كمتيُو
KEMETIO

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢١٥٦٥

بطاقة فهرسة

قاسم ، هشام

كمتيُو: عصر الغروب رواية/ هشام قاسم، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٢٨٩ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٢-١٨٩-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

كمتيو

KEMETIO

عصر الغروب

رواية خيالية من تأليف

هشام قاسم

«أنا الملك كِمِتيُو الأكبر، السيد على كل من لبس تاجًا، المحارب الذي هزم الملايين، من الخصوم والأعداء، قاهر كل الظالمين، والذي خضع العالم كله لسلطانه، معترفًا بقوته التي لا تُقهر! فليشهد الجميع أني سيف عدالة الخالق، وأني خادم الأتقياء والأبرار، أنا الصائح بحكمةِ كيميت بين النجوم! مُمَجّد القدوس ورفيق القدّيسين والأتقار».

الفصل الأول
عن بلاد العالم القديم وعجائب الشعوب!

كان ذلك في الزمان البعيد.. عندما كان العالَم مباركًا نضرًا. عندما كانت أركان الأرض واسعة.. تعيش بينها كثير من الشعوب. قبل أن تأتي الأوجاع المُظلمة.. وقبل أن يعرف البشر الدموع. كم كانت الحياة جميلة خضراء.. مليئة بالأعاجيب! يغمرها روح غسقي بلا حدود! يفتح الأبواب السحرية للولادة والموت. تشع عصاه الذهبية عند الغروب. فتهدي الشعوب كي تخلد إلى الرقاد. وتسطع عند كل إشراقة؛ لتغمرها بحكمة الكون الأزلي. فيتأمل الكل امتزاج الألوان البهيجة لهذا الفيض المجيد.. في عالم مُذهل يضِجُّ بالزهو والخلود.

***

في أرض واسعة مليئة بالمراعي ذات الأشجار والينابيع العذبة.. سكن شعب نبيل عجيب! قيل إنهم قد أتوا إلى العالم منذ زمن سحيق.. يُعَد بأحقاب الشموس وجواهر السماء! تحكي الأساطير أنهم جاؤوا من دموع

الأنوار المقدسة التي انهمرت أنهارًا، وعندهم.. تعود كل الأمور في آخر الزمان، أراضيهم بساتين خضراء تفيض فيها النافورات والجداول، وتملؤها ضحكات البهجة وغناء العصافير فوق الأشجار، يتميزون بلون الذهب وخُضرة المُروج، وينابيعهم الصافية التي تعكس زُرقة السماء وبريق السُّدُم والنجوم! هُم من علَّم باقي الشعوب السلوك الراقي وكل المعارف والفنون.

إنها «مملكة كيميت المباركة» ذات البساتين والأنهار.. وأهلها هُم شعب كيميت الكريم.. كان رجال «كيميت» كالبشر المتفوقين! تبدو في وجوههم السيادة والنُّبل والحكمة البالغة.. وفي أجسادهم القوة والكمال، كان بعضهم يحلق شعر رأسه تمامًا، وبعضهم كانت له لحية ملكية مُزيَّنة، وبعضهم أطلق شعره كأمواج البحر.. بشرتهم معتدلة اللون، وكان النصف الأعلى من أجسادهم تحفة فنية بكل ما تحمل الكلمة من معنى! ولذلك كانوا أحيانًا لا يُغطُّونه بكساء، وارتدوا على الوسط رداءً يُسمى «الشنديت»، وهو مصنوع من الكتان الفاخر، ويلتفُّ حول أجسادهم، ويصل إلى منتصف الساقين، مع حزام ذهبي أنيق بلمعان الشمس.. تتدلى منه أنصال عريضة من قماش مُطرَّز شديد البهاء، بألوان من أجمل درجات الأزرق مع ماء الذهب والفضة، وتبدو من فوقه عضلات أجسادهم الكاملة، وأذرعهم القوية الماهرة التي لا تُخطئ الهدف!

أعناقهم الشامخة مُزيَّنة بعقدٍ عريض خلَّاب من قِطع مُلوَّنة تتناغم على نحو مُذهل مع صبغة ردائهم، يتكحّلون فتبدو نظراتهم القوية الهادئة كنافذة

على روحهم العظيمة، وما فيها من ثقة بلا حدود وفِكر عميق، وأحيانًا ما ارتدوا غطاء رأس بخطوط عريضة مصبوغة بالذهب ولون سماء الليل الزرقاء، صنادلهم بديعة من نبات البردي والجلد الغالي المُطعَّم بالمعادن النفيسة، وفي بعض الأوقات كان رداؤهم الملفوف حول الوسط مصنوعًا من قماش القطيفة بألوان قاتمة وقورة، مع زنار حريري مزخرف بالذهب، وفي المناسبات اعتادوا ارتداء عباءات بالغة الفخامة من أحلى الصبغات إبداعًا، وحقًّا أنهم كانوا كالآساد في تلك الأبهة الساحرة!

أما فتيات كيميت فهُنَّ أيقونة من الروعة! إذ كانت لهنَّ وُجوهٌ مليحة بالغة الحُسن، وبشرة نضرة تتدرّج بين البرونزي البَرَّاق وبياض اللبن، تزينها قطرات العبير وغبار الذهب المتلألئ، وشفاههن الوردية كالثمار الغضة التي يغطيها الندى، كانت لهنَّ فساتين حريرية بديعة دون أكمام.. ملفوفة كغشاء مطاطي رقيق من نسيج الطبيعة.. يغلف جمال أجسادهن كشيء ثمين للغاية، وتبدو منها أكتافهنَّ النضرة اللامعة كأنها منحوتة بيد فنان، وعلى شعورهنَّ أكاليل في غاية الروعة من المعدن النفيس، في أعناقهنَّ عقودٌ وحُليٌّ من أبدع ما يكون، فما أحلى المساحيق البراقة على جفونهنَّ الفاتنة، التي تخطَف القلب بتلألؤ أخضر ذهبي وفضي مُزرَق، وما أجمل عيونهنَّ الحوراء الواسعة ذات الأهداب!

وأصباغ ملابسهنَّ تتدرج بين لون الزبد وحجر الفيروز، وكذلك زهر البنفسج الهادئ ولون وريقات الورد، وكلها تنسجم تمامًا مع درجات لون

بشرتهنَّ، وأحيانًا ما كانت الفتاة الكيميتة ترتدي قميصًا من نسيج القطن الرقيق، وكان مقطع خلاب من خصرها الناصع يفصل بين الرداء الناعم وبين تنورة بيضاء تشبهُ زهرة اللوتس المقلوبة، مع طوق بديع على شعورهنَّ المنسدلة، وفي أوقات أخرى كان رداء الفتاة الكيميتية على هيئة قميص حريري يمرُّ على جانبها تحت إحدى الذراعين ليغطي نهديها، ثم يُشَد فوق الكتف المقابل ليعود من فوق ظهر الفتاة، وعند قوامها يلتفُّ شريط عريض من الحرير المطاطي بإحكام عند الخصر، ثم ينسدل للأسفل كتنورة فاتنة، مع أسورة ذهبية تُزيِّن وسط الذراع، وتشهد أقراط ابنة كيميت البراقة على اكتمال جمالها الخلاب.

ما أبهج حركة سيقانهنَّ الرشيقة بين البساتين والنافورات! مُستمتعات باللعب والمرح بين الآنية الفضية والأباريق المُعلقة على الأغصان! إذ كانت إناث كيميت في ذلك الزمان البعيد رقيقات إلى درجة لا تصفها الكلمات، حتى أن الزائرين الأجانب كانوا يحسبون أن بنات كيميت هنَّ الملائكة، ويصفُون رجالها بأنهم أنصاف آلهة، وقد تزيَّن كلٌّ من رجال كيميت وفتياتها بالحُلي والجواهر والعقود المُلوَّنة من بتلات الأزهار والزنابق بأحلى الصبغات، وأساور بديعة من أجمل المعادن الكريمة، ولهم صنادل خفيفة من ألياف البردي الناعمة المصبوغة بماء الذهب والفضة والألوان المُستخلصة من النباتات.

***

وأرض كيميت مليئة بالحدائق والينابيع الباردة والحقول ذات الأشجار النادرة، وعلى مرمى البصر تلوح بينها القصور الفخمة، والبيوت ذات

الأعمدة المزخرفة الضخمة، والتي صقلتها أبرع الأيادي وعقول المعماريين العظماء، لترتقي بإبداعها فوق سُحُب الخيال، فتتجسد فيها الأخلاقيات الرفيعة لهذا الشعب النبيل.

وتطُل بلاد كيميت الأسطورية على عدة بحار، منها «البحر الأزرق» العجوز.. ذو الأمواج الصاخبة بدرجات اللازورد والفيروز، أجواؤه خلابة وشمسُه ساطعة، وعلى شاطئه اللطيف سَكَنُوا المنازل الرائعة، أما بحر «قصب الأرجوان».. فعلى ساحله أحجار كريمة بديعة الألوان! وقيل إن الروح تسري في تلك الصخور السحرية عند الشروق والغروب، عندما تغطيها الأمواج القرمزية فتدب فيها بالحياة! وهذا البحر يفتح الطريق لبلاد عجيبة في الجنوب، ومن موانى شعب كيميت الكريم خرجت الأساطيل للتجارة ونشر نور الحكمة في بعيد الشعوب.

وفي أنحاء كيميت ذات المجد والجمال.. توجد عديد المرتفعات وسلاسل التلال.. التي تروي عنها الحكايات الخرافية، وكم هو مشهد مهيب من ضرب الخيال.. عندما تُحلِّق شمس الأفق بين سفوح الجبال.. بحجمها الهائل وصبغتها البرتقالية.. لتغمر جدرانها العظيمة بالنور والظلال.

وأهل كيميت لا يعرفون النيات أو الأفكار السيئة، إذ إنهم لم يُحرِّموا أي شيء طيَّب أو مُبهِج أو جميل، وعليه، فلم يجدوا أي احتياج لالتماس اللذة في غير مواضعها الفطرية، وبذلك أعْفَوا أنفسهم من آفة الانقياد للشهوات، إلا أن هذا لم يمنعهم من الاستمتاع بمباهج الحياة لأقصى حدودها.. بقدر شوقهم

نفسه للارتقاء الروحي فيها على مستوى ثقافة العقل والوعي والحكمة، ذلك أنهم رأوا الحياة نزهة بديعة مستمرة للأبد، تبحر فيها الروح عبر نهر ممتد، يصبُّ في ما بعد الموت إلى عالم جديد من جنات النعيم، حيث يذوب الإنسان مع روح الخالق العظيم، وهي الفرحة النهائية التي لا تضاهيها بهجة، فأحبَّ الكيميتيون الحياة واستمتعوا بخيراتها الزاهية إلى أبعد مدى.. دون أن يثنيهم ذلك عن احترام الطبيعة وحق الآخرين، فكان مذهبهم مزيجًا من الروحانية الجارفة التي لا تنفصل عن كل عنصر من الحياة والوجود.

***

كان رجال كيميت يعرفون كل شيء عن البستنة والزراعة والمحاصيل، وهم أبرع الشعوب في الحكمة والفلسفة والعلوم المختلفة.. كالفلك والهندسة والأرقام وخصائص المواد، فكان منهم الزُّراع والحكماء والمحاربون، وكذلك أهل الحِرف والصاغة والبناؤون، وصانعو التحف المُذهلة من نحت ورسم وتصميم، ومن رجال كيميت خرج أعظم ملوك البشر.. وكانت لمحاربي كيميت سيوف عظيمة يسهل تمييزها عن أسلحة باقي الشعوب، فهي معقوفة كالمنجل في تناسُقٍ هندسي بديع.. وتُعرف باسم سيوف الـ«خوپيش»، وهو اسم يماثل على نحوٍ عجيب الصوت المجيد الذي تصدره هذه السيوف في المعارك! وتُصنَّع هذه السيوف من مزيج البرونز والفضة، وأحيانًا من الفولاذ المخلوط بالذهب الخالص، وهي لامعة قاطعة لأبعد مدى، ولها مظهر شديد الفخامة.

وقد اشتغلت نساء كيميت في صناعة المشروبات والعطور وتصميم الملابس البديعة وتعليم الأطفال، وكذلك غزل وصباغة النسيج والاعتناء بالمواشي والحيوانات الأليفة، وشاركت المرأة الكيميتية أُسرتها في زراعة الحقول وجمع الثمار. كان شعب كيميت عاشقًا للحياة إلى درجة التقديس، وفي داخل كل كيميتي توجد رغبة عميقة للارتقاء والعروج نحو أكثر المعاني سموًّا وإبداعًا، وهو الأمر الذي يتجلى في أرضه الطيبة.. التي حرص على تحويلها إلى جنة الخلد كما هي معبد الكون.

***

أما ملك كيميت، كمتيو الأكبر، فهو أكثر أهل الأرض نُبلًا ومهابة! تاجه يسطع كالشمس! صوته عميق كأخاديد الأرض! صولجانه أثقل من جبل عظيم. هو الأقدم بين كل الملوك. إلا أنه لا يشيخ حتى الأزل! لمحة واحدة على وضاءة وجهه.. يتذكرها الإنسان إلى الأبد!

***

وبلاد كيميت المقدسة قديمة للغاية.. أيامها مليئة بالروايات الممتعة التي تجفل لها الأذهان! عن الحكماء والمغامرين والأبطال والملوك العظماء! فقد كانت كيميت أولًا.. ثم كان التاريخ.

***

وكان الإنسان في كيميت يعامل جسده كما يعامل روحه.. باعتباره شيئًا مُقدسًا طهورًا يستحق الاحترام والتوقير، واعتبروا أن النِّعم والجوارح الحسيَّة مثل السمع والبصر والرغبة.. أمانة من الخالق فأطابوا استعمالها، ولهذا اعتاد الرجل الكيميتي الاعتناء بجسده كتحفةٍ ثمينة، فيغسله يوميًّا بالماء العذب وعطور الأزهار ويدهنه بأفخر الزيوت، فقد كان في منازلهم غرفة خشبية جميلة للنظافة والاستجمام، تدخل عبر زجاجها بعض أشعة الصباح الخلَّابة، وبها نباتات منزلية لطيفة تملأ القلب بالفرحة، وكذلك احتوت الغرفة على أوانٍ خشبية ومناشف أنيقة ومراهم وأباريق فضية، وفرن صغير لتسخين الماء.

وقد اعتادت المرأة الكيميتية عند كل شروق أن تستجم في الغرفة الخشبية، وبينما ما يزال جسدها البديع رطبًا نديًّا بعد الاغتسال.. وبشرتها الغضة البرَّاقة مفتوحة المسام.. فإنها تُدلِّك جسمها بكريمة القشدة.. فيحافظ على نضارته وبريقه الفتَّان، ثم تمشط شعرها اللامع وتضفره، فتكون قرَّة عين لزوجها.

ومن الأمور الحميمية في بلاد كيميت، أنه عند خروج الرجل الكيميتي من منزله كل يوم.. وهو في بالغ أناقته، تقابله امرأته تحت ظل أشجار بستان المنزل، بشعرها المُضفَّر البرَّاق، وعينيها اللامعتين، ورموشها الجميلة المُكحَّلة، وفستانها المطاطي الرقيق، فتحيط عنق حبيبها بذراعيها، وتنظر عن قرب في عينيه القويتين، فيتذكران كيف أن ربَّ الكون قد مزج روحيهما

المُذكرة والمؤنثة كذوبان العسل والزُّبد.. فصنع من الرجل وامرأته كيانًا واحدًا، يعشق أحدهما الآخر كما لو كانا روحًا واحدة، فتكون لحظات جميلة راقية من الراحة وبهجة الروح، ويمتلآن بالطاقة التي تدفعهما لخوض كل جميل من مغامرات الحياة.

***

ولم يلعب المال دورًا كبيرًا داخل بلاد كيميت، إذ كانت كل كنوز البلاد وخيراتها تقريبًا مُتاحة للجميع، فكانت أغلب أعمالهم تطوعية يشاركون فيها بملء إرادتهم، إذ كانوا يجدون فيها لذة البناء والتجميل، فكان غرضهم على الدوام الارتقاء في الحياة، لا جمع المال وتكديس الأملاك، فلم يعرفوا الآفات كالجشع ومصادرة عناصر الطبيعة لمتلكات خاصة، وهي الأمراض التي ستصيب العالم في عصور لاحقة، وتُحيل الحياة الجميلة إلى عبودية وكدح مستمر لكسب القوت.

***

أما لفظة «كيميت» نفسها.. فتعني: الأرض الخصبة. إذ هكذا كانت تربتها ذات البساتين والينابيع. وهكذا كان شعبها خصب الأفكار بديع التنوير. وبالنسبة للاسم المهيب: «كـمتـيـو». وهو كنية آخر سلالة لملوك هذه البلاد الأسطورية. فالكلمة تعني في الأصل: إنسان من كيميت. وهي تُجمع على صيغة: «كِيمِيتْيِينْ»، وهو اللفظ الذي كان يُطلق على شعب بلاد البساتين والأنهار.

والجدير بالذكر أن الكلمة العتيقة التي كانت تشير إلى «ملوك كيميت» القُدامى لم تكن مُشتقة إطلاقًا من لفظة «التملُّك» بل من صيغة «الحكمة والاتزان»، بمعنى أن «الملك» في أرض البساتين والأنهار لم يمتلك لا الشعب ولا الأرض ولا كنوزها.. بعكس الطغاة الظالمين من شيوخ الأمم الأخرى وأباطرتها القادمين في آتي الزمان، بل كان «ملك» كيميت أقرب إلى زعيم روحي شامل يحفظ الهارمونية والتناغم المقدس عبر البلاد، وأب فائق حكيم يمثل شعب كيميت النبيل.

وكان أهل كيميت يُسمُّون الكون «نون» وهي كلمة تعني «الموج الأزلي»، إذ كانوا يرون العالم كله كبستان طهور في بحر كبير، مهمة الإنسان فيه هو الذوبان والارتقاء، ولهذا.. كثيرًا ما كان الرجل والمرأة الكيميتية يتركان صنادلهما عندما الخروج للتنزُّه أو التأمُّل، فيخرج الواحد منهم في أروع حُلَّة وزينة وبهاء، تحت ظل البساتين وغناء العصافير، فيسير حافيًا فوق عشب الحدائق وبلاط الميادين المصقول، والأرضية الخشبية والتربة الطينية العذراء.. لتتلامس أجسامهم مع حدائق كيميت في حميمية بالغة، فتسري طاقة الحياة بينهم جميعًا عبر الأرض المباركة، ممتزجين مع الطبيعة كما يتعانق العشيقان.

***

أما زوجة «كـمتـيـو الأكبـر» ملك كيميت العظيم.. فهي «ميريت»، وهي كلمة تعني (الحبيبة)، وقيل إنها أقرب الناس شبهًا بـ «آسِت ذات الحكمة»

سيدة السِّحر والشفاء والجمال، ولا عجب في ذلك.. إذ إن عائلة «ميريت» تنحدر من نسل السيدة «آسِت».. و«أوزير العظيم».. سيد كل ما ينبت فوق الأرض، وهو أحد ملوك كيميت الأسطوريين في الماضي السحيق.

كانت «ميريت» شابة للأبد لا يغيرها الزمن! ويُقال إن وجهها الملائكي هو أجمل ما خلقه رب الكون منذ الأزل! بيد أن أحدًا لم يَكَدْ يراه قط! إذ كانت الملكة «ميريت» ترتدي دومًا عباءة من الحرير الناعم الذي يتحرك مع الرياح، وقلنسوة تغطي رأسها الكريم، وفي الأيام الأخيرة كانت ترتدي بُرقعًا حريريًّا ينسدل على كل رأسها فيغطي وجهها الأسطوري.

ولم يكن هناك ما هو أحب إلى الملكة «ميريت» من أن ترسل العون والدعاء لكل محتاج، على أنه في ذاك الزمان لم يكن في أرض كيميت فقير، وتُحكى عنها أساطير كثيرة بديعة، وقد نَقَلَ بعض الثقات أنهم شاهدوها في عصور لاحقة على هيئة طير نوراني مُجنَّح يتحرك في السماء! وأنها تأتي في صورة ملائكية لتساعد أهل الشدة والحصار وتخرجهم من الأزمات، وقيل إن طيور الأرض ودوابها كانت تعرف السيدة «ميريت» الطيبة وتزقزق مبتهجةً بحلول روحها في المكان! وكُلُّ من رآها أو سمع عنها من جميع المخلوقات عشقها عن ظهر قلب.

***

ومن الأمور العجيبة اللافتة للانتباه.. أن اللغات القديمة وعلى رأسها لغة شعب «كيميت» قد احتوت كلمات للدلالة على مفاهيم ستختفي

من الاستخدام في العصور اللاحقة، فكانت لديهم ألفاظ تُعبِّر بدقة عن الانسجام والتناسق الجماعي لعناصر الطبيعة وهي تتفاعل بهارمونية مع بعضها البعض، وكانت مفرداتهم تُظهر بجلاء أن كل شيء متصل على الدوام بجوهر روح الكون.. وقد استخدموا تعبيرات لغوية تخدم أفكارًا رفيعة الشأن.. كالترقِّي في مستويات الوعي.. وكذلك العلاقات التي تحكم دوران عجلات الطبيعة، وهذه الأفكار والمفاهيم ستبدو ضبابية للأجيال المسكينة التي ستأتي في قادم الزمان، تلك الأجيال غير المحظوظة.. التي ستفقد الحِسّ بكل ما هو غيبي وبديع.

إذ إن هذه التعبيرات ومعانيها ستندثر تدريجيًّا في العصور اللاحقة، عندما يتغير العالم وتسيطر عليه الشرور، فيتحوَّل البشر إلى آلات مشغولة بأعمال فجة لا معنى لها، كتروس صماء منفصلة عن بعضها البعض، وعن الوجود الكلي، ولا تنشغل إلا بما يخدم جمع المال بين البكور والزوال، واستراق الملذات الرخيصة التي تنسيهم وعثاء الحياة، وإعداد أبنائهم لدورة الحزينة نفسها.. وهم يظنون أن ذلك هو غاية الإنسان.

وعليه سيصير لسان ابن الإنسان ضحلًا عاجزًا عن التعبير عن الأفكار الجليلة، بل إن أسئلة حاسمة كمصير الروح والهدف من الوجود ستصير مبعثًا على الضحك والسخرية! وهو الأمر المؤسف الذي سيدفن الحكمة ومعنى الحياة عن عيون الأحفاد، ويُحيل مجد الأسلاف العظماء ورُقيهم إلى أطلال عتيقة غير مفهومة، ويجعل الإدراك الكامل لفكر الشعوب القديمة

أمرًا متعذرًا.. فتصير كمحاولة وصف ألوان سحرية لم يطَّلع عليها المتلقِّي من قبل!

***

وقد ظهر في أرض كيميت منذ الأزمان العتيقة.. مَن تمكنوا من بلوغ معارف عُليا، ودرجات فائقة من الوعي والإدراك! وقد مكَّنهم ذلك من الارتقاء فوق مستوى البشر الفانين، إذ صار لهم سلطان على المادة والطاقة.. أسباب المنطق وأوتار الوجود! وقد عُرف هؤلاء باسم «الأنتار» وهي الكلمة التي تعني «التجليات المقدسة»، وكان هؤلاء محبوبين جدًّا من شعب كيميت، وكانت الشعوب الأخرى تدعوهم بالآلهة، وفي تلك الأيام العتيقة المُباركة كانت رؤيتهم بُشرى بحلول الأفراح وتحقيق الأحلام السعيدة.

وكان من المعتاد أن يلمح الكيميتيون أحد الأنتار وهو يعبر سماء الليل المُرصعة بالكواكب المتلألئة، أو لعل واحدًا من الأنتار يتجلَّى ككائن نوراني بالقرب من أحد ينابيع كيميت أو أشجارها القديمة، وعندها تملأ البهجة قلوب أهل كيميت ويزدادون عشقًا لروح الكون القدوس على تكريمهم بمرافقة القديسين والأطهار.

***

وفي الأراضي الطيبة.. عاشت الشعوب النبيلة بالعدل.. وأكرموا القريب والغريب، بجَّلوا المُبدع العظيم، وذابوا في روحه التي تتجلى في الكون كله،

تفكَّروا في الوجود والأخلاق، وتدبَّروا معنى الحياة، تدفعهم إرادة الارتقاء.. نحو العالم الفضيل.

ولعصور طويلة.. تبادلت شعوب النور كل حب وتقدير.. رغم كل الويلات التي ستصير.

***

وقد سكنت الأرض في الماضي البعيد شعوب عجيبة من غير الإنسان! من الجبابرة والوحوش والأقزام! وعديد الكائنات الخرافية والأرواح التي تسكن البيوت والأشجار ورُوِيَت حكايات غريبة عن ممالك الجن الخفية! وراء الغابات الكثيفة.. وتحت أمواج البحار، وبين الأطلال القديمة المهجورة.. وفي أحواض المياه السحرية التي تغطيها طبقات من الطحالب والضباب.

***

فبعيدًا في يمين البحر الأزرق تقع أعمدة العمالِيق التي قيل إنها تحمل السماء! وهي جبال بالغة الضخامة تخرج من وسط البحر في مشهد مُبهر شديد الجمال! وفي أعماق الجنوب من تلك أعمدة تقع أطلال المدينة الخرافية التي يسميها البعض «أتلانتا» ذات البوابات الذهبية! والتي سنحكي عنها الأعاجيب المُذهلة ما إن تحين الفُرصة!

أما ما يقع وراء أعمدة العمالِيق الأسطورية.. فلا يعرف به أحد يقينًا! وقد حكت الروايات عن أرض غامضة وراء محيط هائل الضخامة، أسماها

البعض أرض «إيمين» أو «ساحل الألوان» التي تقع فيما وراء العالم! وتعيش هناك قبائل عجيبة لم تصل عنهم إلا حكايات مثيرة وخرافات، وهي أرض سلام وطبيعة خلابة، وقيل إن أعماق بلادهم تعجُّ بالكائنات الغريبة، كالثعابين الضخمة ذات التيجان! وقيل إن شعب «إيمين» كان يُحضِّر مشروبات سحرية تمكنهم من رؤية الموتى ومحادثة الأشجار!

ويروي الحكماء والعجائز أن بعض مغامري كيميت في الماضي البعيد قد عبروا البحار حتى بلغوا ذاك الساحل العجيب، وقالوا إن سكان أرض ما وراء الغرب يلفُّون الريش المُلوَّن على شعورهم المنسدلة، ويفترشون أوراق الشجر والفِراء للراحة والنوم داخل خيام من الوَبَر، وخيامهم مُبطَّنة من الداخل بأوراق نباتية كبيرة، ومُزيَّنة بلوحات من نسيج مزركش وعقود من صَدَف البحر تتراص إلى جوار بعضها البعض في روعة وجمال يُريح النفس، وتعبر نوافذها أشعة سحرية بلون البنفسج، وعندما تهطل السيول.. كان فتيان ما وراء الغرب يركضون بمرح وسُرعة رهيبة! وكأنهم مع الفهود في سباق! يُدوِّي صياحهم البهيج الخفاق، وتنقله الرياح فيبلغ الآفاق، ما أروع غناءهم الجماعي تحت أنوار القمر والسحاب المتجول عبر السماء! عندما يمتزج بعواء الوحوش البرية الباحثة عن الرزق.. فوق قمم الجبال وراء غابة الضباب الكبيرة، وكان رجل الروح منهم يُسمّى الشامان، يرتدي قطعًا طويلة من الريش، ويقرع الطبول لطلب الأمطار أو طرد الأرواح الشريرة.

وبعيدًا في أقصى يسار الأرض.. تقع سهول «پانديان».

وهي أرض واسعة ذات مزارع وتوابل وألوان، شعبها يعشق الحياة والعاطفة السعيدة، وبين شوارعها العتيقة تسمع الغرائب الممتعة عن قديم الزمان.. فتروي أساطيرهم عن معارك عُظمى من الماضي، وكائنات ملائكية سكنت معهم الضفاف والأراضي.. فلسفتها قديمة تملأ القلب بالشغف والسلوان.

وقليل هو مَن رأى وعاشر شعب «القماش المربع» وهم محاربون أشداء، لهم لحًى وضفائر صهباء وشقراء، لا تفارق الفؤوس والسيوف أذرعهم ذات البأس، وقد ارتدوا الخوذات ذات القرون، وهم عاشقون للإبحار في سفنهم الخشبية عبر المحيط الأدكن، وفي غابات الثلج الرمادية.. عاشت شعوب «الدببة الباردة»، وهم غلاظ أفجاج، صعاب المِراس والحُكم.

أما صحاري «الدرخبيل» فهي موطن شعب «الأسيان»، سكان البادية وأبناء الأصيل، رعاة الإبل شاربي الألبان، أراضيهم مليئة بالكثبان الناعمة.. دافئة في الصباح أركانها آمنة.. وقارسة عند هبوط أجنحة الليل الساكنة، كانوا يفترشون الأبسطة المغزولة ويبيتون في الخيام، يتلحفون بالثياب عندما تهب الرياح العظيمة ذات الغبار، ويجتمعون بعد الغروب متسامرين حول النار، وهُم يُحبون مساعدة الرحالة والمسافرين، ويجدون في ذلك بهجة وحنينًا، ما أحلى تأمَّلهم في الليالي المقمرة، في قلوبهم صدقٌ وصفاء.. وفي كلماتهم بساطة ونقاء، سكن بعضهم أعالي الجبال، وتنسَّك بعضهم فوق

التلال، يُحبون الأصالة وطرب الغناء.. وتحت النجوم يُلقون النَّثر وينشدون الجَمال.

أما شعوب بلاد التنين.. فكم كانوا في التأمل بارعين! بين أعواد الخيزران الخضراء وغناء الطيور! إذ كان هؤلاء يؤمنون.. أن أجزاء العالم تتراكب بانسجام تامٍّ، وأن الظلام ضرورة حتمية لوجود الخير، وأيقنوا بوجود طاقة سحرية شاملة تسري في كل عناصر الكون، وأن كل شيء في صيرورة كفيض الجداول بين الأغصان، وفي أثناء تأملهم.. اعتادوا أن يغمضوا أعينهم متحدين مع كل ما يحيط بهم، فينالون راحة البال التي تشتاق إليها النفوس.

وكم من القصص الخلابة عن أقوام سكنوا قرب محيط «پَوو» البعيد!

كشعوب «الغال» وأبناء الأميرة «سكوتا»، كان لهم شعور طويلة حمراء.. وأساطير ممتعة للشغوفين والقُرَّاء، وأقاربهم هم «السيلتيون» ذوو المعازف الغامضة التي تسحر القلوب، ما أعجب الصخور الرمادية الضخمة المغطاة بطبقات من الطحالب.. عندما تضرب عليها الأمواج في تلك البحار الباردة! كم تتحرك النفس عندما تدوِّي الأبواق في السهول الخضراء بين الجبال المُغطَّاة بالمروج والأحجار الدكناء! وما أغرب المخلوقات الملائكية التي رافقت تلك الشعوب في حياة الغابات الساحرة! وعسى أن نأتيَ على ذِكر الملحمة البديعة عن شعب مملكة المروج الرائعة.. وأميرتهم الكيميتية «سكوتا» الجميلة.

أما على شواطئ البحر الأزرق..

فقد قامت حضارات عجيبة وعاشت فيها شعوب متنوعة..

منهم شعب «جُزُر الزيتون».. والتي تشمل أقاليم «أيونيا» و«مايسينيا»، وهؤلاء قد اعتادوا الاجتماع كل صباح في أجواء مُشمسة صحوة، إذ إنهُم أهل عقل وتدبُّر، فيتأملون البحر الكبير الممتد أمامهم، بينما تندفع الرياح القوية بملابسهم البيضاء ولِحاهم وشعورهم الدكناء المُلتفَّة، وفي الأفق أمواج زرقاء عملاقة.. كأشبال تلاعب بعضها في صخب الشباب! فتمتلئ روحهم بهواء يمتزج فيه عنفوان رياح البحر المالحة.. مع عطر أشجار الخشبية والزهور البرية، حقًّا إنهم عاشقون للجمال والموسيقى وصنائع التُحف، وهم أكثر أهل الأرض شغفًا بالمغامرات والأسفار، وملاحة السُّفُن عبر البحار، وقد تكوَّنت «جُزُر الأيون» من مدن عديدة شبه مستقلة عن بعضها البعض، وأُقيمت فيها كل عام عديد من الاحتفالات.

أما شعوب «أبناء الثور».. فهُم أهل مجد وقوة ونظام، سيوفهم لا ترحم، ونصالهم تلمع كالنجوم! تُميِّزهم العباءات الحمراء والملامح الفخورة، وخوذاتهم الفضية كالبرق! وأما قصورهم فمن الرخام الأبيض وعروق المرمر، سكنوا إقليم «إتروسكا» ذا المراعي الواسعة، شعورهم ولِحاهم طويلة دكناء مُبللة بالماء، أحبوا كثيرًا العمل والفخر، وعشقوا اصطياد الوحوش البرية، جدرانهم مُزخرفة بلوحات خلابة من قطع الفسيفساء، لتحكي قصص ومغامرات الأبطال.

***

وبالقرب من الأماكن الجبلية الجافة عند تلال «أغرامينيا» عاش رحالة الـ «خابو»، وهم مزيج من التجار وأصحاب القوافل، ويُقال إن قطاع الطرق المُلثمون قد خرجوا من تلك البلاد، كان بعضهم يسكنون الخيام، ويزينون جدرانهم بالسجاد الأحمر الأدكن ومنسوج الكليم المُزخرف بالنقوش وتصاوير الحيوانات، وكان لبعض زعمائهم كثيرٌ من القساوة وجنون البذخ، والجدير بالذكر أن كلمة «خابو» بلغة كيميت القديمة والتي تشير إلى الشرق، فإنها تشير أيضًا إلى اتجاه اليسار، وكذلك الشؤم والنحس وسوء الطالع، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى حقيقة أن خراب البلاد يأتي دومًا من يسار الأرض.

وفي أدغال «غانتي» الحارة.. حيث تهطل السيول بغزارة.. عاشت شعوب أخرى، بشرتهم دكناء، وشعورهم مجعدة، وإليهم تنتمي قبائل عديدة كـ «أصحاب الطبول»، وقد زار الرحالة ممالك عجيبة أخرى في الأعماق كبلاد «پونت» و«هيمبا» و«نزامبي» وكذلك أرض كاش وشعب الأحباش، وهؤلاء اكتسوا بجلود الحيوانات البريَّة، واعتادوا الرقص ليلًا حول النيران تغمرهم نشوة الوجد، وهم يروون ترانيمَ وملاحمَ بلا نهاية.

أما سكان سهول «ليڤانتيا» فقد عاشوا في المناطق المعتدلة وسط العالم.. كان منهم شعوب «الفينيق» ملوك البِحار الأسطوريون، وأراضيهم الطيبة تطل على البحر الأزرق الدافئ، لا يبعدون كثيرًا عن جُزُر الزيتون وأرض كيميت، وامتازوا بحسن الوجه واللسان، وعِشق الغِناء والرحلات، ورواية الحكايات على أنغام القيثارات.

***

كان هذا في الأيام المباركة، قبل أن يأتي الظلام، ذلك أنه في مكان لا تلمحه العيون، وفي زاوية ضيقة من العالم.. عاشت شعوب أخرى من نسل مختلف.

شعوب متوحشة قد اختارت من ظلمة الكهوف الملتهبة مسكنًا.. ومن جفاف الفيافي مرتعًا.. وهم لا يبغضون شيئًا أكثر من الاستقرار والتحضُّر، سكنوا أماكن مقفرة تُسمى «خاسوط» أو الصحاري المقفرة، قوم غلاظ القلب خشنوا الجلد.. صوتهم منفر كالنهيق! كلامهم أشبه بحشرجة بلعوم خنزير بري، اعتادوا الحركة حفاة عراة إلا من (هلاهيل)، لا يعرفون شيئًا عن الارتقاء، يقطعون رؤوس بعضهم البعض، ويأكلون لحومها النتنة! تعشش الديدان في تجاويفهم، وكانوا لا يتحرجون من قبيح الأفعال التي يندى لها الجبين!

بشرتهم النجسة تلفحها الشمس الحارقة، التي تصل صحاريهم عبر طبقات من الدخان، عيونهم جاحظة وأسنانهم ناتئة، حوافرهم طويلة مقززة، وتفوح عنهم رائحة لا تُطاق، كانوا يسمون أنفسهم بقبيلة «بني شاعوط» أو «الشعاسيط» وهي كلمة مشتقة من اسمهم بلغة كيميت المُقدسة وهو: «شاسوحاي» والتي تعني «المتجولين الحُفاة»، وهم مطارید هائمون في فيافي خاسوط النائية، وكان اللون البني هو الذي يميِّز هؤلاء المتوحشين ويُذكِّر بهم.. وهو لون القاذورات المختلطة بالصديد المتقيح.

وكان لهؤلاء أقرباء.. إنهم قبيلة «الشيباقيت»... كان لهم مظهر غريب كالمرضى! أنوفهم طويلة ومعقوفة كالمناقير، عيونهم خبيثة، وأسنانهم مبرودة

كالمسامير، جلودهم باهتة وفي نظراتهم إرهاق ومذلَّة، إنهم (دراويش) مشعوذون يقبعون في الكهنوت، أشحاء يعبُدون المال، كانوا يلجؤون إلى المناطق الخالية والمقفرة بعيدًا عن الأعين.. في البادية تحت السُّحُب الدكناء.. ليطلبوا العون من الأرواح الدنسة والخبيثة، كانوا يتصنعون التملق مع كل مَن هو مِن شعب آخر متفوق! أما إذا مَرَّ عليهم وحيدٌ غريب.. وأمِنوا العاقبة.. عندئذٍ يُريقون دماءه! ويشربونها إرضاءً للأرواح المظلمة!

اشتغلت نساؤهم بالسِّحر وصنع الأعمال الخبيثة، وارتدينَ أكفانًا مخيفة من عظام الحيوانات الميتة، وقلوب الشيماقيت الجافة تهتز دومًا بالعطن.. كخشيش الحكَّة المزمنة التي لا أمل في الراحة منها، فالشعور بالنقص والحقد الدفين هو محرك كل خُطاهم، وهؤلاء لم يميزهم لون، فرغم توشّحهم بالثياب السوداء.. فقد كانوا قادرين على التخفي! وتغيير جلودهم والذوبان بين الآخرين.

أما أشهر أقرباء تلك القبائل المُريبة فهم العشيرة البدوية القديمة المعروفة باسم «هكسوت»، إذ وُرِد ذِكرٌ عن غرائبهم في الحكايات المروية مع نغم الأمواج في سواحل بلاد البحر الأزرق.. إذ كانت الروايات تَرِد كخيال باهت يهبُّ من قِفار بعيدة غريبة، وكلمة «هكسوت» متحورة من لفظة «حقا خاسوط» أي «شيوخ الصحاري المقفرة»، وكان هؤلاء يعبدون سيد الفوضى والصحراء وعدم الاستقرار «شوتخ» ويُسمُّونه بلغتهم البدائية «شاطون سيد الرُّعب»!

ويُقال إن هؤلاء قد أبادهم أحد ملوك كيميت العِظام في الماضي.. بعد أن تجرؤوا على التسلل والاعتداء على بلاده في الماضي البعيد، وقد قام جلالة الملك ومعه جيش كيميت الباسل بإزالة هؤلاء المُعتدين عن بَكرة أبيهم، حتى أنه لم يُبق منهم شيئًا.. ولم يُذكر اسمهم ثانية.. إلا في الحكايات.

وقد رُويت بعض القصص عن الأمور العجاب والأفعال المُفزعة في تلك الفيافي البعيدة القاسية التي سكنها «الشاسو»، ورنَّم الرحالة روايات عن تيه المستكشفين بين كثبانها اللافحة التي لا تعرف الاستقرار.

كانت الشعوب المظلمة قصيرة العمر.. كارهة للطهارة والنور بطبيعتها، وإن كان الفساد واللؤم غالبًا على تلك الشعوب.. فالحق أن من بين هؤلاء من اختار للنور سبيلًا.. فكان منهم الصالح والطالح.. وكان منهم الأتقياء وأهل صفاء القلب والتقوى، فرؤية النور في النهاية ليست سوى نتاج إرادة حرة.. لا مصيرًا حتميًّا يحدده النسب.

الفصل الثاني
زيارة الشيماثيت لأرض كيميت المقدسة

وذات مرة... شعَرَت قبيلة الشيماثيت بالجوع.. إذ أحسوا بالضجر من حياتهم الفقيرة في البقاع المقفرة، وكان زعيمهم يُسمى «بلعام بن بعرام».. كان له وجه طويل كخطم الذئب، فأشار عليهم بالرحيل إلى أرض كيميت المقدسة ذات الأنهار، ليطلبوا ضيافة ملكها كـمتيـو العظيم لعدة أيام، بعد ما سمعوا عن مجدها ووفير خيراتها.

حملوا أمتعتهم في أجولة على الأكتاف وشدت القبيلة الرحال.. يرومون الوصول للمدينة الكيميتية «پيرامون».. تتساقط أمتعتهم فيربطونها بالحبال.. يهرولون في المسار ويلهثون.. فعبروا الطريق بين الوديان والجبال.. وكان عددهم حينئذٍ.. «ستمائة وستة وستين».

وما إن اقتربوا من أطراف أرض كيميت المقدسة.. بلاد الأشجار والحكمة.. حتى فغروا أفواههم في عجب شديد! فقد شاهدوا من بعيد

ملامح مجد وبهاء عظيم! إذ رأوا أسوار البوابة الشرقية لمدينة «پيرامون»! وعندها ثلاث قلاع هائلة من الفولاذ وصخر البازلت المتين! لها روعة البنيان وحسن التصميم.. وعلى كل واحدة أربعة أبراج ضخمة للحراسة.. ومن خلف السور تبدو أشجار الأفق الخضراء الزاهية.. وسطوع الشمس على الينابيع اللازوردية! وكأن الفردوس يقع وراء هذا السور!

وبمجرد أن أصبح الشيماثيت على مشارف البوابة.. لاح لهم كيان نوراني عظيم الهيئة! له بشرة لامعة ووجاهة تسلب اللُّب! يرتدي خوذة ودروعًا مصقولة من البرونز المُزخرَف، ويلتفُّ على وسطه زنار مصبوغ بالفضة يشُد على ردائه المتألق، ويمسك في يده عصا من النحاس بديع المنظر! حتى أن الشيماثيت ظنوا أنهم ماثلون أمام أحد الآلهة، وهَمُّوا بالسجود أمامه. إلا أن هذا الكيان النوراني ناداهم بصوت عميقٍ ليُعرِّفوا بأنفسهم.

إذ إنه لم يكن سوى أحد حراس البوابة الشرقية لبلاد كيميت! ذلك أن رجال كيميت كان لهم هيئة عظيمة كأنهم بشرٌ خارقون! إذ حباهم رب الكون بخلقة غاية في الكمال والإبداع.. حيَّرت مَن مَر ببلادهم من الشعوب.

وما إن دخل شعب الشيماثيت إلى أرض كيميت.. حتى ازدادوا انبهارًا!

المروج النضرة الممتدة بطول الأفق! الأنهار الجارية بين البساتين ذات الصبغات الخلابة! وأوراقها الكثيفة تسطع تحت الأنوار بلون يتدرج من الليموني الزاهي ودرجات الأخضر والأزرق، حقول البنفسج والياسمين

والأرجوان! قطوف الثمار طيبة المذاق بجميع الألوان، وعناقيد الأعناب العظيمة التي لا يستطيع الرجل الواحد أن يحمل إحداها! أبهرتهم بركة كيميت وتربتها الخصبة ومحاصيلها الوفيرة، وعجائب شعبها الكريم وصنائعهم الفائقة!

***

كانت كيميت بلادًا عتيقة للغاية.. وكان تاريخها القديم إلى جانب توسطها بلاد الأرض.. يؤهلانها لتكون الأب لجميع الشعوب العالم.. وقد دانت كل الممالك بولائها لنفوذ أرض كيميت المقدسة وأوامر ملكها العظيم؛ فهي الحضارة التي استوعبت الجميع بنور حكمتها، وارتوى جميع البشر من ينابيعها؛ لتفتح عيونهم على مباهج المعرفة وروائع الوجود! إنها بلاد كيميت.. التي خُلِقَت للخلود!

***

تنعمت أبصار قبيلة الشيماثيت بمشاهدة بيوت الحياة وأعمدتها ذات الرونق الذي يسلب العقل! لقد بلغ أهل كيميت غاية الحكمة والمعرفة، وأنعم عليهم الخالق الجليل بمهارات لا تُضاهيها باقي الشعوب.

وكان بأرض كيميت ناحية البحر.. في مدينة «راكوتا».. مكتبة عظيمة.. تحوي ألفي ألف من الكتب والمُتون.. بين طيات صفحاتها.. كل المعارف والفنون.. وكل ما كان.. وما سيكون!

نزل الشيماثيت في أرض كيميت المباركة.. فأكرمهم أهلها بأحسن مما كانوا يتوقعون! إذ أُقيمت لهم مأدبة من المأكولات.. أولها عند النهر.. وآخرها عند البحر!

أطعمة شهية من جميع الأصناف التي تنعم بها خير بلاد الأرض.. من فطائر مخبوزة وعسل نحل بالغ الحلاوة، لحوم مشوية ومأكولات بحرية، أصناف لذيذة من الفواكه والمحاصيل، وأنواع من المذاق لم يعرف الشيماثيت بوجودها! ويُقال إنه كان فوق الطاولة العظيمة أربع آنية ضخمة للغموس.. القشدة البيضاء، والسكر المطحون، والعسل، وزيت الزيتون، فأكل الضيوف حتى شبعوا وامتلؤوا.. وكان أعظم أيام حياتهم! بل إن ذكرى هذا اليوم أصبحت لاحقًا عيدًا يُحتفَى به في عُرف قبيلة الشيماثيت.

***

وفي أثناء تجوالهم في أرجاء بلاد كيميت ذات البهاء.. دخلوا مدينة جميلة ذات حقول وحدائق وقناطر ونخيل، إنها مقاطعة «تاميات».. والتي يعني اسمها مدينة «القُدرة»، إذ تتجلى فيها قدرة الخالق البديع في التقاء مياه البحر الأزرق المالحة ومياه النهر الخالد، في مشهد لا مثيل له على وجه الأرض وعلى طول عصورها!

***

كان الشيماثيت في حال من الانبهار العظيم.. وأذهلهم وَرَع شعب كيميت المُبارك.. وتحليهم بالتقوى التي لا يضاهيها شعب آخر من الشعوب.. وحبهم العميق لحضرة الخالق ذي الجلال.. الذي تخشع لمحبته القلوب.. وتدمع العيون بفرحة الأزل في مَعِيَّته.. رب الأنوار.. روح الكون القدوس! والذي يشير أهل كيميت لشموليته بعدة أسماء منها: «آتوم» و«آتون» و«آمون» أي: الأول.. الكل في الكل.. والذي لا تدركه العيون.. إذ إنه الروح العظيم الذي يسري في كل شيء ومنه يصير كل شيء.. ويرمزون لمجده ببهاء نوراني تخرج منه أيادي العطاء لتفيض كنهرٍ أبدي.

***

وفي حكمة أهل كيميت العتيقة لا توجد لحظة معينة لبدء الوجود.. إذ كانت البداية بضحكة النور البشوشة التي سطعت بإشراقة الأزل! فالمُبدع يخلق الآلاف المؤلفة في كل لحظة، وعنده لا يوجد زمان.. لأنه يعرف كل شيء في نفس الآن.. وهو ليس سلطانًا للعالم كملوك البشر.. إذ لا يُعد نفسه سيدًا يُمارس سُلطته عليهم من موضع مُفارق.. بل هو أقرب إلى أب فائق يعتني بصِغاره! أو روح الطبيعة التي تعانق ثمارها! إنه الحقيقة نفسها وعين الوجود! والجوهر الثابت الذي تسري من خلاله جميع الظواهر والموجودات.. ومن ثمَّ فإنه لا يطلب عرفانًا أو إظهارًا للخضوع.. لأنه لا يحتاج لشيء من أبنائه الأحباب.. إذ هو أصلًا كامل التمام.. أما الأوثان والطواغيت فهم مَن يطلب البخور والسجود.. إراقة الدماء وسفك الأضاحي وتقديم القربان..

وأن تجري الألسنة لهم بالتمجيد.. وهذه هي علامتهم التي يوصمون بها.. إذ يرومون الأوجاع والإذلال.. ووطء شرف الإنسان.

***

أما الشيماڤيت فكانوا أبعد ما يكونون عن روحانية شعب كيميت العميقة.. وعن رب المحبة وقدوس الأكوان.. إذ كان الشيماڤيت يعبدون عدة أوثان جافة تحب الشواء والدماء.. أهمها إله البراكين «ياهوڤ».. وقد بدا لهم بجلاء كيف أن سلطان إله البراكين قد سكن وصار عدمًا.. بين جنبات الأرض الطاهرة لشعب كيميت الصالح.

***

وبينما يتجول الشيماڤيت مع مضيفيهم عبر بلاد كيميت الخرافية.. ظهر من وراء الأشجار القديمة.. بهاء ناصع شديد! كنور الشفق الأبيض.. ملأ الأفق وأعمى أبصارهم! لقد كانت أسوارًا من أحجار بيضاء براقة! تحيط بمدينة خرافية ذات مجد وفخامة لا يمكن وصفها! ذات أعمدة هائلة من الفضة الناصعة والصخور المصقولة على شكل كؤوس زهور الزنبق!

إذ كانت مدينة «إنبو هيتش» هي العاصمة الأسطورية لبلاد كيميت المقدسة، يشع النور الأبيض من أرجاء هذه المدينة، متناسقًا مع روعة تصميم الحدائق الخضراء المنتشرة في ربوعها وبين قصورها، وأغلب معمارها من الكوارتز والرخام الأبيض المصقول بأيدي أمهر الفنانين، وشوارعها

مرصوفة بقوالب ناصعة بين البساتين النضرة والميادين والأرائك الذهبية، وكان هدير النافورات والينابيع وغناء الطيور لا يفارق هذه المدينة، حقًّا إن سكان «إنبو هيتش» هم أكثر أهل الأرض وقارًا وهيبة! وهذه المدينة العُظمى تطل مباشرة على ضفاف النهر الكبير، أما اسمها فيعني: مدينة «الأسوار البيضاء».

لم يتجرأ الضيوف الشيماثيت على دخول المدينة الخرافية! وأخذوا يطوفون في الشوارع والبساتين حولها في ذهول وانبهار عظيم.. فينعمون بملامح بهائها الناصع من وراء حدائق الأفق وأشجارها الكثيفة. عندئذٍ أشرق على وجوههم نور وهَّاج من بعيد! وكأن جوهرة لها روح تتألق بأشعة الذهب من أعماق المدينة الساحرة! فحاولوا النظر إلى مصدر هذا النور البديع.. فإذا هو لمعان بنيان لا تصفه الكلمات! على مرمى الأفق بين الحدائق والجنات.

***

عندئذٍ همس «بلعام» لأفراد قبيلته:

- تأملوا واملؤوا عيونكم! فلا بد أن هذا هو «البيت الكبير»! قصر جلالة الملك القدير! الذي يدين له ملوك الأرض بكل احترام وتقدير، الذي لا تنقطع عن بلاده الحكايات والأساطير، وقليلٌ جدًّا من الأجانب هُم من نالوا شرف دخول هذا القصر، والمثول في حضرة ملك أرض الحكمة والبساتين، وابتهجوا بِنُور تاجه الذي يتألق كبهاء الشمس!

***

مرت بضعة أيام.. وأيقن الشيماثيت أن أعاجيب وخيرات بلاد كيميت لا تنضب! أذهلتهم روعة الغروب في الأفق! وغناء أهل كيميت الأطهار بين النافورات.. كأنهم أرواح نورانية قد باركها القدوس في ينابيع الحياة! تحت سحاب بهيج كحلوى السُّكَّر المغزول.. يضيء السماء بلون القطن الناصع وزهور البنفسج.

***

والحق أن أهل كيميت قد آمنوا أن الروح هبة ثمينة من الخالق، ولهذا فقد اعتبروها شيئًا عزيزًا لا يقبل الإهانة أو التحقير، فكانت نفوسهم كريمة تأبى أي انحطاط في المظهر والقول والسلوك، وهُم لا يعرفون قبيح الألفاظ والأفعال، ولا تخرج من فم أحدهم أي إساءة أو كلمة رخيصة، وحقًّا إن أهل كيميت كانوا دومًا الأرقى بين كل الشعوب، فقد أدركوا عن ظهر قلب كيف أنهم أبناءٌ محبوبون لروح الكون، ولا يوجد إنسان من كيميت قد أحنى جبهته لأي أجنبي على الإطلاق.. فكانوا بشرًا فائقين، أصحاب عِزة وبهاء لا يُضاهى، ولهم مهابة قوية مخلوطة بالمحبة الخالصة في قلوب باقي الشعوب!

***

بقى الشيماثيت كضيوف لعدة أيام، وجدوا فيها كل ترحاب وكرم، ذلك أن أهل كيميت كانوا لا يقيِّمون الناس على وجوههم، بل كانوا يحسنون الظن وينظرون للقلوب، فأحسنوا معاملة قبيلة الشيماثيت بودٍّ وابتسام ونية طيبة.. غير مدركين.. لِما تحمله هذه القبيلة من حقدٍ وخبثٍ خطير!

***

مرت بعض الأيام بالشيماثيت وهم ما زالوا يتفكرون في روعة البلاد التي دخلوها.. واستطاعوا أن يستشرفوا القليل من معارف كيميت المذهلة التي بدت.. حتى لهؤلاء المشعوذين.. نوع من السحر! ولكن روحهم النتنة لم تلبث أن تفوح!

فبينما يتجول الشيماثيت منبهرين بروعة بلاد كيميت، دخلوا مدينة «أيونو» البديعة.. ذات العيون المائية اللطيفة والرياض الخضراء، وهناك لمح رجل منهم يُقال له: «نتنشاؤول بن زَبُوبْ» بساتين ممتدة وراء سور عظيم! كان نتنشاؤول مشهورًا بين قومه برائحته الكريهة.. بل إنه لم يعرف الاغتسال بالماء قط!

توجَّه نتنشاؤول وحيدًا عبر البوابة وأعمدة السور الذهبية.. ودخل إلى مكان مُذهل خلاب! مروج مُسوَّرة مليئة بالحدائق والجنان، وتظللها الأشجار العملاقة.. حتى أنها تصنع سقفًا من طبقات الأوراق الكثيفة الملونة يحجب أشعة الشمس، إنها بساتين «بانتي رونپيت» والتي يعني اسمها «الحدائق التي تعيد الإنسان للشباب»! وما إن دخل نتنشاؤول حتى شعر أنه قد وَلَج إلى عالمٍ سحري تتساقط فيه أوراق الأشجار بأحلى الصبغات! فردوس هادئ لا صوت فيه سوى هدير المياه وزقزقة العصافير في أعالي الأشجار الضخمة!

وقف «نتنشاؤول» أمام حوض واسع بديع.. تترقرق فيه المياه بألوان متجددة لا يُمكن لإنسان وصفها! وتطفو على سطحه الزهور والزنابق بأجمل

الألوان والعطور..أعجبه الحوض فوقف مبهورًا أمامه يتنهد في ذهول! وشعر بضآلة حجم قبيلته أمام روعة جنات هذه الأرض التي يباركها الخالق الكريم، وأحس بحقارة شعبه أمام بهاء بلاد الكيميتيين..

فامتلأ بالحقد والعفن.. وصار قلبه كالجيفة.. ثم نظر حوله... وتبين أنه وحده في المكان.. عندئذٍ أراد أن يبول في الحوض ليفسده! حقدًا على هذه البلاد الطاهرة! ولكن صوت تغريد أحد الطيور أفزعه.. فرجع عن فَعلته.. وهرب بجبنٍ شديد.

***

أُقيمت للضيوف مأدبة طعام جديدة كل يوم! من خيرات وفضائل كيميت المُباركة..جلس «بلعام» زعيم الشيماثيت بين رفاقه مُتخمًا بالدسم.. متأملًا ما شهد من أعاجيب! ثم صوَّب نظره على الضفة الثانية من النهر الكبير.. مبهورًا بمجد هذه البلاد! حيث كانت أشجار النخيل تتمايل مع الرياح.. بين الضباب المُلوَّن بنور أفق الغروب.. غرقت أذنا بلعام في نشوة الطرب.. مع سحر الأنغام الوترية البديعة.. وفجأة.. خفق قلبه بقوة شديدة! وأخذته الشهوة بالشبق! فقد سمع ضحكات مرحة رقيقة! عندها التَفَتَ ليرى.. كان قلبه ينبض بسرعة! وللوهلة الأولى.. ظن أنه قد لمح إحدى حوريات الأساطير! تتحرك بين الأغصان والنافورات الصافية على ضفاف النهر الكبير! دقَّق «بلعام» بصره بشهوة عميقة.. وسرعان ما أدرك أن ما وصل أبصاره كان.. إناثًا فائقات الروعة.. إنهنَّ فتيات كيميت الحسان!

يملأن جرار الماء من الينابيع في رقة ودلال! كأنهن ملائكة أطهار! حتى أن نور القمر بدا وكأنه يخترق إلى نخاع أجساد الفتيات الغضة! تلمع أجسادهن البراقة، وكأنما قد تم تدليكها بالزبد! وقد انحنت إحداهنَّ لتملأ آنية الماء من الينبوع البارد..فثنت ركبتيها إلى الأرض.. وجلست على ساقيها.. فخفق قلب بلعام ما إن لمح بياض بشرتها! وبدت ذراعاها أكثر نضارة من الوريقات الخضراء الطرية وأعشابها الساحرة.. وانعكس نور النجوم على كتفها الملساء كالمرآة! وكانت روحها أكثر رقة من الورود المائية المتهادية على أمواج النهر المقدس!

عندئذ قال بلعام في نفسه وهو يشعر بالحقد متأملًا عظمة بلاد كيميت وأهلها: حقًّا إن شعب كيميت هم كأنصاف الآلهة! وإن قومي إلا بعوض إحسانهم! نحن أهل البقاع المقفرة، وهم شعب البساتين والأنهار.. ما من رجل في كيميت إلا ولَهُ هيبة وبهاء.. كأنهم القدُّوسون الأنتار.. ولا يوجد فتاة في كيميت إلا ولها وجه كالملاك وروح رقيقة كالأزهار.. إن فردًا من قبيلتي لا يستحق حتى أن يكون عبدًا لخدمة شعب الأطهار! ما لنا لا نملك مثل مجد كيميت ذات الوقار؟! هل لنا مجرد الحلم بأن نرث هذه الأرض المباركة وكنوزها يومًا ما؟! هل لأمثالنا أن يذلُّوا هؤلاء الأسياد العِظام ولو بعد دهور طوال؟! هل لنا أن نرجو المُحال.. وأن نقلب الحال؟ إني لأسجد وأحرق البخور.. لأيًّا شيطان يعطيني هذا المنال!.

***

وبعد عدة أيام.. وعندما حَلَّ الليل.. خرج الشيماثيت سرًّا بقيادة بلعام! وسرقوا بعض الحُليّ من أهل كيميت الذين أحسنوا ضيافتهم! مستخدمين ما لهم من قدرة علَى التخفِّي! وأخذ بعض الشيماثيت مجموعة من اللفائف والكتب وسجلات المعرفة.. وكان من ضمن ما سرقوا من أحد بيوت الحكمة.. مفتاحًا أسطوريًّا خطيرًا! سيأتي ذكره في لاحق الزمان! وبذلك أخذ اللصوص قليلًا من حكمة كيميت! حملوا ما طالته أيديهم سريعًا وهربوا بجُبن نحو الصحاري.. وهم خائفون من أن يلاحقهم الملك العظيم ويعاقبهم.

***

وخلال الليل.. تسللوا عبر التخوم.. حتى وصلوا قلب العراء بين الجبال الصخرية العظيمة تحت نجوم السماء الواسعة.. فعندها عَلَت الصيحات وتناثرت الكلمات.. ذعرًا من عقاب ملك كيميت القدير! عندئذٍ صاح زعيمهم «بلعام» بصوت مزعج وهو يمسك بعصاه:

– مهلكم يا بنو شيماثيت.. لا بكثرة الأصوات نقدر على أهل الحكمة والنور.. إنهم ليأتونا ببأس عظيم لا قِبل لنا به.. وإنهم ليعاقبوننا بمجدٍ قدير.. فلتكن الاستكانة ملاذنا.. والحيلة سترنا ومكرُنا المَكير.. وإني لأصعد نحو أعالي الجبال.. حيث يسكن (ياهوف) ربُّ قبيلتنا.. فأسأله التدبير.. وإنَّا لصانعون ما بِهِ علينا يُشير.

***

فقرروا عندئذٍ بَعْثَ نائحين متخفين.. في كل مكان باكين شاكين.. زاعمين أن ملك كيميت قد طرد الشيماثيت.. ونكَّل بهم ورفض استضافتهم! وأنهم مستضعفون بلا حول ولا قوة.

***

وعندما علم الملك «كـمتيـو الأكبـر» بالأمر.. شعر بالغضب.. وحقًّا إنه كان له أن يبيد هؤلاء الأنجاس عن بكرة أبيهم بعدما خاضوا في سمعة شعبه الكريم، ولكنه كان متسامحًا.. ورأى أنهم أحقر من أن يدنس طرف سيفه بدمائهم السوداء، وتركهم يتنعمون ببعض مما سرقوا من خيرات أرض الأنهار المُقدسة. فـ عاش الشيماثيت في الذل خائفين من الملك.. بعد ما فعلوه، حاقدين على تلك البلاد الوقورة التي استضافتهم بوِدٍّ وكرمٍ لا يستحقونه.

الفصل الثالث
يوم العيد!

رَحَل الشيماڤيت أهل اللؤم كالمطاريد، يملؤهم الحقد.. ولكنهم سيعودون يومًا ما.. بِوَجهٍ خبيثٍ غير متوقَّع! وفي أول أيام الربيع من هذا العام.. استيقظ الجميع في أرض البساتين على فرحة كبيرة! فقد حلَّ أجمل أعياد شعب كيميت.. وهو «عيد ميلاد العَالَم»! والمعروف باسم يوم «شيمو».. كانت أيام كيميت مليئة بالأعياد والاحتفالات.. وقد اشتهر شعبها بعشق الحياة والبهجة بقدر نَهَمِهُم العميق للحكمة والإبداع.. وفي كل مكان كانت الزينة والألوان، تُجمِّل المنازل المتقاربة والطرقات.. مع صوت الموسيقى ومرح الأطفال.. تحت سماء زرقاء وسحاب كالقطن الناصع! تختبئ وراءه الشمس كبتول جميلة في خمارها.. فلا يتجلى منها إلا نور أبيض لطيف.. وفي الحدائق الواسعة.. بدا المشهد كلوحة فنية من طبقات سحرية بلا نهاية.. كلحظة من البهجة تستمر للأبد!

كانت الآنية المزخرفة ترقرق المياه في النافورات ذات القوالب الرخامية البيضاء، فيتموج الماء بأجمل الأشكال في الينابيع الصافية، وأمسكت الفتيات

الكيميتيات بعضهن بأيدي بعض؛ ليُشكلن حلقة بين البساتين المُلوَّنة.. يرقصن ببهجة ويغنين بأصوات ملائكية، تتناغم بتوافق سحري مع الآلات الموسيقية، وبدت الأباريق الفضية كأنها تحمل ذكريات آلاف السنين، وكان بعض رجال كيميت وحكماؤها يمشون بوقار ونُبل في عباءات شديدة الفخامة، وقد جلس بعضهم للتأمل والحديث على الأرائك الذهبية بديعة الصُّنع فوق الحدائق الخضراء.

وكانت فتاة كيميتية جميلة يافعة السن تُسمَّى «رونتيتي» تمسك بقيثارة وتصنع بها لحنًا بديعًا مسحورًا! ويخرج من بين شفتيها الرقيقتين صوت ملائكي كالرنين يملأ السماء! ما أعظم ترانيم رجال كيميت بصوتهم العظيم العميق! لتروي أصداؤهم أفكارًا وأعاجيب.. لو اطلع عليها أهل الأرض لانشرحت صدورهم حتى الأزل! وعزفت المزامير بأنغام من عالم السماء! في أجواء صفوة خلابة باعتدال تام، كأنه مشهد من داخل الفردوس.. تتطاير فيها أوراق الأشجار وتتراقص الفراشات حول الورود!

***

وفي وسط العيد والمرح.. في مدينة «راكوتا» في شمال كيميت.. فوق البساتين النضرة على ضفة النهر الكبير.. انشغلت الفتيات باللعب والمرح.. وإلى جانبهنَّ مجموعة من الشباب والرجال اليافعين.. خرجوا جميعًا لقضاء وقت سعيد في واحد من أجمل أيام العام.. كانت راكوتا أعظم مدينة ساحلية في العالم.. ومن أفخم المدن المجيدة في تاريخ الإنسان! وقد اشتهرت بمنارة

أسطورية عتيقة.. ومتحف ضخم مليء بأعظم المؤلفات ومُجمَل الحكمة.. وكانت القلاع والقصور والمنازل في مدينة «راكوتا» من بلاط الإردواز الثمين المتميز بالدرجات الدكناء، وأحجار البازلت ذي اللون الرصاصي اللامع.. أما شوارع المدينة فمرصوفة ببلاط من أحجار الديورايت ذي البهاء! بل إن حصى الطرقات بين المنازل والحدائق كان من الأحجار الكريمة ذات الألوان البديعة! أما الدروب فمحفوفة بأعمدة بيضاء وفضية.. بين البساتين والقصور والأكواخ الكثيرة ذات البناء الخلاب!

ما أعظم مشهد هذه المدينة في الشتاء حين تغطي شوارعها طبقة برَّاقة من الأمطار! وتبدو الشمس كنور أبيض غامض بين الغمام بعيدًا في أفق البحر الواسع! وفي الميناء الكبير لراكوتا.. ينتصب تمثال خرافي قديم.. على هيئة ملَّاح كيميتي محارب.. مُدجج بالعتاد الجبار.. قيل أن الحياة تدب فيه.. عند أزمان وقوع الأخطار! فيشير بيده نحو البحر مُنذرًا.. ويلتقم النفير مدويًا.. ليسمع الكل صداه على مسافة أميال.. عندما تقترب سُفُن الأعداء بمسيرة يوم.. أو بضع ليالٍ.

***

استمتع أهل كيميت بيوم العيد في البساتين والقوارب وعلى الأرائك وبين النافورات، يحرك النسيم حولهم أوراق الأشجار بأزهارها الملونة وعصافيرها، مستمتعين بأنغام الموسيقى الساحرة.. وبالقرب من شجرة بُندق.. كان ثلاثة من الشُّبان جالسين في الحديقة على أرائك خشبية أنيقة

ذات وسادات وثيرة، يفرشون تحت مجلسهم بساطًا خلاب الزخارف، وأمامهم منضدة صغيرة من خشب البلوط الثقيل، يلعبون لعبة الـ «سينيت» وهي لعبة مُكونة من قِطَع ولوح مُقسم إلى مربعات، الأول حليق الرأس ذو جسد بالغ القوة، والثاني نحيل ذو شعر مُلتف كالأمواج، والثالث أسمر البشرة كأهل الجنوب، إذ كان الشبان الثلاثة هم: «يحوي بن خونانوپ»، وهو مغامر شهير، وله أسفار عديدة لبلاد العالم.. ويُروى العديد من القصص عن رحلاته لبلاد الشرق والغرب رغم سنة الشاب.. ولـ «يحوي» جسد عضلي رياضي ذو بأس شديد، بشرته قمحية معتدلة وله عينان بلون العسل الأدكن، وعلى وجهه ملامح الرجولة والثقة التي لا حدود لها، اعتاد في أغلب الأوقات أن يحلق شعر رأسه تمامًا، وأن يطلق لحية صغيرة عند ذقنه، كان يرتدي الشنديت على وسطه، مع عقد عريض مُلوَّن حول عنقه، وفي ذلك اليوم كان يضع عباءة من القطيفة اللامعة بلون العناب، ولها إطار ذهبي وتلتفُّ حول عنقه لتنسدل على كتفيه وظهره.

وكان والده خونانوپ مزارعًا أصيلًا من مدينة «أخمين» في كيميت الوُسطى، ويُروى عن المرحوم خونانوپ أنه كان رجلًا فصيحًا، وأن جلالة الملك العظيم كان يعرفه شخصيًّا..

ويحوي كثير الأسفار، لا يعيش في مكان واحد، إلا أن لديه كوخًا في مدينة «راكوتا» حيث الميناء الكبير.. وكانت إحدى رحلاته الخطيرة على وشك الإقلاع في الغد!

***

وإلى جانب يحوي جلس شاب أصغر سنًّا.. حليق اللحية، ذو جسد رشيق، وشعر طويل كالأمواج.. برَّاق كأنه مدهون بالزيوت.. وله عينان لامعتان كالليل الكحيل.. إنه «تسوتي بن راحوتيپ»، والذي يشتق اسمه من كلمة «اللهب الناصع» وهو اسم يعبر بدقة عن روحه الحرة، وأبوه «راحوتيپ» هو أحد كبار الحكماء في البلاد ويعمل في النحت وتصميم الميادين، وقد انحدرت عائلتهم من نسل «إيمحوتيپ» العظيم!

وإيمحوتيپ الأسطوري هو رجل الفن والإبداع في بلاد كيميت في الأزمان الغابرة، وهو سيد الهندسة والأرقام، وقد شيد في أرض كيميت أكثر من مئة معبد وعديدًا من السدود والقلاع والسُّفُن والآلات، وقد صمم كذلك منازل فخمة وقصورًا لا تُحصى لأهل كيميت، وكان يعرف كل شيء عن الفلك والنجوم، والطب وعلاج الأمراض.

ويُقال إن إيمحوتيپ قد عاش في عصر الأمواج الزرقاء في الماضي البعيد وزمن الأهرامات العتيق، وقد صارت له مرتبة أسطورية تقترب من الأنتار القدوسين، وكان رمزًا للحكماء في كل البلاد، كان صغير الجسم، حليق الشعر، ذا وجه طفولي كريم، وقد كان مسئولًا عن الاهتمام بالمدارس في كل أنحاء بلاد كيميت، ومديرًا لـ موانى كيميت البحرية كلها، واشتهر باستخراج العقاقير من النباتات، وله مؤلَّفات وكتب عديدة، محفوظة في المكتبات وبيوت الحكمة في أنحاء أرض كيميت، وكان الحكماء من البلاد

الأخرى يأتون إلى أرض البساتين والأنهار لينالوا المعرفة على يد المعلمين الذين نشؤوا على يدي «إيمحوتيپ» وغيره من العظماء.

ومعنى اسم «إيمحوتيپ» هو «الذي يحل معه السلام»، وكان «إيمحوتيپ» في الماضي كبيرًا لمُجمَّع حكماء كيميت والمعروف باسم «بير عنخ»، التي تعني بيت الحياة، بل أمين مجموعة «سمايت سارانتيرو» الأسطورية! وهي أخوية (الحكمة المقدسة) التي نشأت على يد المُعلِّم الخارق «تحوتي العظيم» سيد الحكمة كلها.. بغرض الحفاظ على الحكمة والمعرفة المقدسة.. ليس فقط بين نخبة الحكماء.. بل لكل إنسان يتوق لنور المعرفة والبصيرة!

أما المُعلَّم «تحوتي» العظيم.. فهو أحد أنتار العصور الأولى المقدسة.. وقد عاش في زمن سحيق للغاية.. منذ عصور «أسياد اللهب» و«الأمواج الزرقاء»! وهو أول من سجَّل المؤلَّفات المعرفة الفائقة ورسم الخرائط للنجوم.. ويُقال إن مؤلَّفاته تشرح عظيم الأسرار عن معنى الوجود! وإليه تُنسب المعارف والفنون وكشف الغموض.. ويعرفه أهل «أيونيا» و«إتروسكا» باسم «هرمس المثلث العظمة».. وهو يُبجَّلُ في بلاد كثيرة ويُرفع لمرتبة الآلهة المعبودة.

***

وإلى جانب يحوي وتسوتي، وقف شاب أسمر أدكن البشرة، صبيح الوجه طويل القامة.. تبدو الطيبة البالغة والبساطة على ملامحه، إنه هوجرافور وهو

من سكان القبائل النوبية، قُرب مدينة سوينيت ذات جُزُر النباتات الخلابة في جنوب كيميت.. وكان هوجرافور صديقًا مُقرَّبًا من پحوي وشريكًا له في مغامراته.

***

وعلى مقربة افترشت بعض الفتيات الأنيقات البستان الأخضر.. وبينهنَّ.. وقفت فتاة يافعة ذات بشرة بيضاء كالحليب.. كان لها صوت بديع خلاب.. وجفون ذابلة ذات أهداب.. وتمسك في يدها قيثارة خشبية أنيقة.. رموشها سوداء كثيفة، كأنها تحفة من أحلى ما يمتع البصر.. إنها الجميلة «رونتيتي» سليلة «ڤيردو» البستاني ومُصمِم الحدائق.. ومعنى اسمها «رونت تاتي».. «ها هي البتول قد أتت»، صوتها بالغ الجمال.. ولها شفتان ورديتان غاية في الرقة.. وعينان لامعتان واسعتان بدرجات متنوعة من اللون الرصاصي.. وكأن عينيها ترويان مجد مدينة «راكوتا».. وقيل إن من ينظر في عينيها عن قُرب.. يستطيع أن يرى تفاصيل رائعة عجيبة! عن أمور جليلة قد أوشكت على الحدوث! وعلى جسمها الرقيق قميص من الكتان الناعم، يغطي إحدى كتفيها.. وعدة عقود رفيعة بها خرز خفيف بديع.. من درجات اللون العنَّابي القريبة من بشرة التين الناضج.. وفوق شعرها الأدكن البرَّاق غطاء رأس صغير.. من نسيج القماش المغزول بلون ريش طائر التيل (فيروزي أدكن) وصبغ الورد.. وبه زهرة لوتس.. مع قرطين أزرقين يُشبهان الهلال في أذنيها.. كانت شابة صغيرة السن ذات خصر

نحيل.. وكانت كف يدها غضة صغيرة ناصعة البياض.. وتضع طلاء أظفار بلون برتقالي لامع كشروق الشمس على سحاب الشتاء.. وكانت تعزف على أوتار قيثارتها الصغيرة.

و«رونتيتي» تعيش مع جدها «ڤيردو پاتميس».. وهو بستاني يعيش في مدينة راكوتا منذ زمن.. ويُعَد واحدًا من حكماء كيميت وأهل ثقتها.. ولكنه كان رجلًا غامضًا عجيبًا، لا يعرف الناس الكثير عنه.. ويُقال إن جلالة الملك يعرفه شخصيًّا، وأنه قد خرج معه في مغامرات مُذهلة في الماضي!

و«رونتيتي» فتاة يتيمة، إذ رحل والداها «أيوف» و «مايا» بعدما أنجباها في سنٍّ كبيرة.. وكانت والدتها الطيبة «مايا» ابنة البستاني الحكيم «ڤيردو».. من زوجته في الأيام البعيدة «بانتي هيتا»، والتي يعني اسمها «امرأة البستان» والحق أن «ڤيردو» كان رجلًا طويل العُمر على نحو عجيب! وهي الصفة التي لا يضاهيها إلا ملوك كيميت والملائكة الأنتار.. وبعض المخلوقات السحرية، والأشجار العتيقة.

***

وإلى جانب رونتيتي.. وقفت فتاة سمراء شديدة الجمال! ذات بشرة برونزية براقة.. كأنه جلد ثمرة زيتون ناعمة مغموسة في الزيت.. عيناها بنيتان تشدان الانتباه، ولها أنف صغير رقيق.. إنها «هيسپا» الحسناء.. والتي يعني اسمها «طوق الأزهار»، كان لها جسد لامع شديدة النضارة، وشفتان ممتلئتان كالتوت في الربيع.. وهي أقرب أصدقاء رونتيتي، ولا عجب إذ إنهما

قريبتان وتنحدران من الجدود أنفسهم.. إذ كانت هيسپا حفيدة لـ «يويا» أخت « بانتي هيتا» زوجة «ڤيردو»، وجدُّ هيسپا هو الراحل «إيري».. واحد من أعظم الكتبة في شمال كيميت، وقد كانت علاقة «هيسپا» و«رونتيتي» قريبة جدًّا كأختين تعتني إحداهما بالأخرى.

***

ضجَّت بساتين أرض كيميت اليانعة بالمحتفلين بالعيد.. وكان النهر الكبير نقيًّا منعشًا مليئًا بالقوارب الخشبية التي خرج فيها شعب كيميت النبيل ليستمتع في ابتهاج! فيستلقي الكيميتيون بمرح على القوارب الجميلة لتمُر بهم عبر النهر الخالد ذي الزنابق المُفرِحة، ثم تعبر قواربهم تحت قناطر شديدة الروعة تُشبه من الداخل الأقواس تامة الكمال.. وهي مصنوعة من قوالب الأحجار المصقولة، والمفروشة ببوص النخيل كشرائط الأرابيسك الطويلة كَبِطانة لقوس القنطرة الداخلي، لتتراكب شرائط البوص في زخرفةٍ بديعة، وتضم فيما بينها باقات غزيرة من الورود المُلوَّنة والأوراق الخضراء الكبيرة.

وإلى جانبهم انطلق الشبان والفتيات مُمْتطين الخيول في مرح فوق الجنان والحدائق بين الأعمدة البيضاء، فيخترقون بخيولهم الأمواج المباركة لنهر المحبة الكبير «حابي»، الذي بدت صفحته كطبقات من مرآة سائلة، وكأنها تتراكب كنسيج متطابق مع سحب السماء حولها في بحر الكون الأزلي!

والتقمَت شفاه الصبايا والفتيان الأبواق لتدوِّي بالأصداء المُفرحة.. وهم يرفعون شرائط البهجة بألوان الليمون الزاهي والأرجوان والأزرق

والفيروزي لترفرف مع الرياح، وإلى جانبهم كان الناس على المنتزهات والبساتين على الضفتين يفترشون العشب الأخضر النضر، يستمتعون ويتناولون أطعمة لذيذة مثل الخبز الأبيض الساخن المقرمش والبسطرمة والأسماك المُتبَّلة ولحم السمَّان، وكذلك الورق الأخضر والترمس واللوز والبندق، وفي أيديهم أكواب أسطوانية بديعة من الخشب تحوي أحلى العصائر والمشروبات مثل شراب الشعير وأزهار الجنجل، وفي السلال المصنوعة من البوص الناعم قد أحضروا معهم الكعك المُحلَّى بالسكر والقرنفل، وكذلك أقراص العسل اللذيذة، وفواكه كثيرة منها البرقوق والخوخ والتين والأعناب والرمان، وكذلك ثمار «الرنبوت» التي تعتبرها باقي الشعوب ضربًا من الأساطير.. والتي يُقال إن لها ألذ طعم بين كل مأكولات الأرض! إذ إن بذرتها قد جاءت من مكان سحري بعيد يُحكى أنه مملكة السماء! وإلى جانب العائلات يأكل الأطفال وهم يلعبون ويمرحون مع السناجب والغزلان والعصافير.

تتمايل العذراوات في براءة الأطهار.. بأصابع رقيقة ككؤوس الأزهار، وتنزلق الزنابق فوق الأنهار.. لينسجم الكل مع الألحان الوترية، غموض السحاب و صوت المزمار.. زهو الفراشات وقطوف الثمار.. هديل الطيور ورقص الأشجار.. تشهد لبلاد البهجة الأزلية، عمق الغناء وعذوبة النغم.. في عشق كيميت جنة عدن، تغمُر بالسحر أفق الزمن.. بأصداء تروي الحكمة الأبدية.

***

كانت رونتيتي تغني بصوت طهور من عالم السماء! وفي كَفِّ يدها الرقيقة تمسك بمزمار الناي! حقًا إنه لسعيد الحظ.. إذ تلمس شفتاها الرقيقتان فمه.. لتسري فيه نبضات ممتعة.. مع كل همسة تخرج من بين شفتيها لتخترق فجوات قلبه.. فتستحيل كل واحدة من قُبلاتها.. أنغامًا سحرية خلَّابة! وداعبت أصابعها الغضة أنغام موسيقى الـ «هارب» و«القيثار».

***

والحق أن قلب رونتيتي كان يخفق كلما كانت ترى أو تسمع عن «پحوي» المغامر الشجاع، ولطالما رغبت في الاقتراب منه أكثر، فقد عرفا بعضهما البعض منذ الصغر، ولكن قليلًا ما تسنَّت لها الفرصة لتعرفه على النحو الذي يُشبع شغفها، فحاولت دومًا إخفاء إعجابها به، إذ بدا لها رغم كل مزاياه.. رجلًا شديد الصلابة.. كثير الغياب والرحيل، وكانت تخشى أن تصارحه باهتمامها.. وفضَّلت أن تدفنه في قلبها.

***

وفي ذلك الوقت، وفي أثناء فرحة ومرح العيد.. ركب الشباب على خيولهم، والفتيات على مهورهنَّ.. وانطلقوا من المروج إلى الطريق المُعبَّد بالرخام الناصع والمرمر.. متوجهين نحو ساحل البحر الأزرق.

***

انطلق الجميع في فرحة.. ودوَّى صوت حوافر الخيول الأنيقة على الطريق المرصوف بالبازلت المصقول.. فسارعت رونتيتي نحو مُهرها برتقالي اللون، وعلَّقت قيثارتها على جانب السرج.. نظرت الفتاة اليافعة للأفق فوجدت الجميع منطلقًا في الطريق.. ولم يبق أحد في المكان.. سوى هديل اليمام بين أغصان الأشجار.. فخشيت أن تتأخر وأن يسبقها الجميع.. فامتطت مُهرها ذا لون المشمش.. والشعر الغزير.. وحاولت الإسراع به فوق البستان حتى لا تتأخر.. ولكن المُهر قد تعثَّر بها قرب إحدى النافورات.. فوقعت الفتاة من فوق الفرس الصغير! وسقطت في مياه أحد الينابيع.

***

خشيت الفتاة من الغرق! ولكنها أدركت على الفور أن المياه ضحلة وغير خطيرة.. فأخرجت رأسها من المياه بشعرها الرطب وغطاء رأسها الذي صار مائلًا.. وبينما كانت المياه تجري على وجهها وتعكس النور الأبيض على صفحة كتفيها.. رأت بعض الزنابق والورود المائية تطفو إلى جانبها سطح مياه الينبوع الصافية.. شعرت «رونتيتي» بالألم من السقطة.. وخشيت أن يكون أحد قد رآها وهي تسقط في الماء على هذا النحو المضحك.. ولكنها لم تسمع سوى خرير مياه النافورة وصوت الكروان.

كانت المياه باردة على جسدها الرقيق.. فأخذت في الارتعاش وهي تحاول الوقوف على رجليها.. وما إن حاولت الخروج من تحت الماء.. حتى اكتشفت أن جزءًا من ردائها قد تمزَّق.. وأن المياه قد جعلت رداءها مُبللًا

لصيقًا.. فصار كاشفًا لبياض جسدها الغض.. حتى أنها شعرت بالحرج الشديد من هذا الموقف المهين.

***

حاولت الوقوف ووضعت قدمها على الرخام خارج الينبوع بين الأعشاب الخضراء.. وهي تنتفض من البرد في ثياب رطبة تقطر منها المياه.. ثم لفحتها رياح ما قبل الغروب الباردة! فارتعشت بقوة وهي تضم ذراعيها.. وصار لونها بشرتها باهتًا من الصقيع.. كانت تظن أنها وحدها في المكان.

***

ولكن عندما رفعت بصرها.. وجدت ظِلًّا يقترب منها! كان رجلًا قويًّا متناسق الجسد..

إنه «يحوي» المغامر العظيم.. شعرت رونتيتي بالحرج الكبير! فقد أحست انها تقف أمامه مكشوفة ضعيفة.. بينما تتحرك قطرات الماء على ذراعيها وساقيها.. حتى أنها كادت تفقد وعيها من الخجل المؤلم.. حاولت منع نفسها من البكاء.. ارتجفت شفتاها وصار لونها ورديًّا باهتًا من البرد.. ولكنها أجهشت على الفور ببكاء خجول خافت الصوت ودموع رقيقة دافئة، وتمنَّت لو أن تغرق في الماء للتخلص من الحرج، وتسارعت أنفاسها مع فيض الدموع، إذ كانت تخشى أن يسخر منها الرجل الماثل أمامها، ويضحك على حماقتها وضعفها.. ولكن يحوي.. المغامر الشهم.. ما كان ليسخر من آلام

إنسان.. وما كان لينظر لجسد امرأة لا تحل له.. إذ كان يعرف تمامًا.. معنى أن يكون.. رجلًا من رجال كيميت.. ولهذا فقد أشاح بنظره جانبًا.. وخلع عباءته المصنوعة من القطيفة العنابية في وقار.. وألقاها حول كتفي الفتاة.. وهو ما يزال يغض بصره عنها.. ثم ابتعد مع فرسه.

***

كان الغروب قد انتهى منذ قليل، وما زالت الاحتفالات مستمرة حتى قلب الليل.. ولكن رونتيتي عادت إلى منزلها وإلى جانبها مُهرها البرتقالي ذو الشعر الكثيف.. تتلحف من البرد بالعباءة العنابية البديعة المنسوجة من القطيفة والمُزينة بماء الذهب.

خالجت الفتاة البريئة مشاعر متضاربة، وما زالت الدموع تاركةً آثارها على وجهها.. وأمام مدخل البيت.. رفعت بصرها.. وأضاء نور القمر وجهها النديّ.. فوجدت أمامها رجلًا خارقًا عظيم الطول يقف في وجاهة وبهاء! بقميصه واسع الكمَّين ذي لون الفستق الأخضر.. فحنت الفتاة بصرها ونظرت للأسفل بإجلال.. إنه جدها «ڤيردو پاتميس» الحكيم!

كان لڤيردو هيبة لا تُضاهى، كأنه أحد القديسين والأنتار! فارع الطول، طويل العنق، ذا شعر رمادي مموج رائع، حليق اللحية، ذا بشرة معتدلة اللون، كان وجيهًا، ناصع الجبهة، وله عينان ضيقتان، ذواتا رموش كحيلة.. وابتسامة ماهرة تبعث على الطمأنينة، تبدو الحكمة البالغة على ملامح وجهه

الكريم، يرتدي زيًّا بالغ الأناقة من الكتان المُزخرف له كمَّان واسعان، وينسدل حول جيده الشامخ عقد خلاب من خيط رفيع وأوراق الأزهار ذات الألوان، وكان ڤيردو يعمل بستانيًّا ومُصممًا للحدائق، وهو أحد أعضاء مُجمَّع حكماء كيميت والمعروف باسم «بير عنخ» أو بيت الحياة.

وقفت أمامه رونتيتي في حرج وهي مبللة بالمياه.. فقال لها جدها «ڤيردو» بصوت عميق.. كأغوار البحار وجذوع الأشجار:

- ما بك يا صغيرتي؟ ما لي أرى الدموع تغرق عينيكِ؟

حاولت الفتاة التقاط أنفاسها ببراءة الأطفال.. وحاولت مسح دموعها بكفيها وهي تنظر لأسفل في خجلٍ.. وقالت:

-لا شيء يا جدي، لقد تعثرت وسَقَطْتُ في الماء.

فمد ڤيردو كفَّ يده الغض، ومسح عن وجهها قطرات الدمع.. رمقها ڤيردو بنظرة أخيرة ثم تركها بهدوء مُتجهًا نحو إحدى الغابات القريبة.

كان البيت مُظلمًا هادئًا، فتحت رونتيتي بابًا خشبيًّا لإحدى الغرف يدخل إليه قليل من شعاع القمر الأبيض، ثم نظرت بداخلها تجاه فراش والديها الفارغ ذي الغطاء من القطيفة الوثير، كم هي أوقاتٌ صعبة مليئة بالحيرة! قد مرت بها رونتيتي منذ رحيل والدها الصالح ووالدتها الطيبة.

***

وبعيدًا في الخارج كانت أصوات الأهازيج تملأ البلاد بأجواء روحانية خارقة للوجدان! إذ كان الكل مجتمعين في الشوارع المُضاءة بالقناديل البيضاء.. والمُعلَّقة على الأشجار وأعمدة الطُّرق المزخرفة.. يتهايلون ويغنون جنبًا إلى جنب.. يملؤهم عشق الحياة بكل سكانها وعناصرها.. وكأنهم قد عادوا للامتزاج مع روح البديع متعانقين في رفقة رائعة تدوم حتى الأزل.

وعندما دخلت رونتيتي غرفتها.. أغلقت الباب الخشبي.. الذي ينبعث منه عطر الزعفران الرطب، جلست والتقطت أنفاسها الدافئة وسط البرد، وأخذت تفكِّر تحت ضوء الشموع. فقد ازداد شغفها بالمغامر «يحوي بن خونانوپ».. وخشيت أن تقع في شباك العشق وعذاب الفراق.. إذ كانت تعلم أن «يحوي» سيبحر في الصباح في مهمة ملكية إلى بلاد بعيدة.. وقد لا تتمكن من رؤيته ثانية.

الفصل الرابع
الرحلة البحرية تنطلق!

وفي الصباح التالي.. لم تكن رحلة يحوي هي الحدث المهم الوحيد.. ذلك أنه في أقصى جنوب البلاد.. وصلت بعثة من «بلاد الأحباش».. فقد أرسل ملك «أرض كاش» الجنوبية سفارة بالهدايا.. إلى بلاد كيميت ذات البهاء وملكها العظيم.. جاؤوا من الجنوب في سفينة من الأبنوس تشقُّ عُباب نهر المحبة الكبير.. كان للأحباش بشرة دكناء، وشعور مجعدة مضفرة.. ويقودهم سفير يُدعى «شاباركا».. كانت معهم حقائب من جلود.. وصناديق مزخرفة بالذهب.. جاؤوا بفراء الفهود.. وعاج أبيض كاللهب.. وأخشاب نادرة وعطور، وجواهر بنور القمر.. وفواكه مجففة وبخور، وخير ما أنبت المطر.

اقترب مركبهم من الجندل الأخير.. على الحدود الجنوبية لبلاد كيميت.. كان السفير «شاباركا» يحكي لرفاقه على مدار الطريق عن العجائب التي تنتظرهم في أرض كيميت العظيمة، وأخبار مدنها وأحوال أهلها، فهو الوحيد الذي قد نال الحظ السعيد بدخول أرض كيميت ذات البهاء في الماضي.

فقال شاباركا لرفاقه ببهجة صادقة:

– طوبى لكم يا أعزائي، لقد تغمدنا الخالق برضوانه وفضله العظيم.. ففي الأيام القادمة ستشهدون مجدًا وذكريات ستسكن قلوبكم طوال الحياة! حكمة بلاد كيميت المباركة وبساتينها الخضراء، روعة أهلها ومُدنهم البراقة.. موسيقى البحر الأزرق الدافئ.. مدينة طيبة الأسطورية ذات المعابد وبيوت الروح.. «أشمون» ذات الحقول النضرة والنخيل.. مدينة «تحوت» الجليل.. إقليم المدينة البيضاء ذات القصور، مدينة «الجمال الخالد» عاصمة البلاد.. مدينة « راكوتا» البديعة ومنارتها التي تُحكي عنها الروايات.. آه يا رفاق لو تعلمون سطوع الـ «هيرونيبو»!

فسأله أحد رفاقه الشُبان:

– سيدي «شاباركا».. ما «الهيرونيبو»؟

فالتفت إليه سفير الأحباش «شاباركا» الحكيم وقال:

– «الهيرونيبو» يا «تاماركا» هي «الإشراقة الذهبية».. إنه تاج مولانا العظيم.. سليل القدوس الأمين.. كمتيو الأكبر.. سيد الملوك والأراضين.. صدقني يا تاماركا.. فعندما تكونون في حضرة ملك كيميت الكريم! وتأتي تلك اللحظة السحرية الغامرة! عند سطوع نور تاجه الوهاج! عندئذٍ... شَعَر «تاماركا» ورفاقه بالذهول! وامتلأت قلوبهم بالفضول!

فسألوا بصوت مرتعش خجول:

– ما الذي يحدث عندها؟ أخبرنا يا سيدي كيف تكون الإشراقة الذهبية!

***

وبينما يتحرَّك المركب سريعًا في النهر الكبير.. وشمس الشروق تلمع في وجه السفير شاباركا الأسمر الصبيح بنور أصفر خلاب صوَّب شاباركا نظره على رفيقه الشاب.. وفتح فاه ليصف الأمر الجليل ولكنه عندما التفت إلى الأمام.. رأى أمرًا عظيمًا!

***

وفي الوقت نفسه في أقصى شمال البلاد.. اجتمع أهل مدينة «راكوتا» عند الميناء الكبير، كان الصباح صحوًا بهدير أمواج البحر الأزرق الصاخبة، والذي يُعرف أيضًا باسم «ڤاتشور»، وقف «يحوي» على سفينته وهو يرتدي أعظم الأزياء من شنديت مصنوع من القطيفة المخملية الدكناء، ملفوف بزنار من الحرير الأبيض المُشبَّع بماء الذهب، مع طوق عنق من أحلى أصباغ الطبيعة، وإكليل رأس من الذهب يحمل عين «حورس»، وعلى جسده القوي المتناسق.. عباءة تبرُق بألف لون!

وإلى جانب المغامر عند أسوار السفينة.. وقفت مجموعة من المرافقين، وهم «تسوتي» الشاب اليافع صاحب الروح الحرة، ذو الشعر الطويل المُموَّج..

حفيد « إيمحوتيپ» العظيم، وكذلك «خاڤرياجوس الأيوني» وهو صديق مُقرَّب من پحوي وينتمي لبلاد «أيونيا وجُزُر الزيتون»، وكذلك هوجرافور الشاب الأسمر لطيف القلب..

خرج أهل مدينة «راكوتا» لوداع أبطالهم، الذين كانوا على وشك الخروج في بعثة ستمثل أهل كيميت جميعًا، لاكتشاف البلاد البعيدة وإعطاء نور كيميت المقدس للعالم.

كان الناس في المرفأ يرتدون ملابس وقورة ويحملون أعلامًا بأكثر الألوان إبهاجًا، ومن ورائهم مدينتهم الساحلية البهية ذات البيوت الفاخرة البيضاء والرصاصية، وشوارعها وتماثيلها ومعمارها الذي يسلب الألباب، سطعت الشمس فوق مياه البحر الڤاتشور الصاخب الذي يملأ الأفق، كانت أمواجه ضخمة كالقصور! وكأن أضواء الصباح تدفئ المياه البديعة المُكوَّنة من طبقات بين درجات عديدة من الأزرق.. وفي الأفق تبدو المنارة الأسطورية في وسط البحر! فتتلاطم الأمواج الهائلة على صخور قاعدة الفنار العظيم. وكانت بعثة پحوي على ظهر السفينة العظيمة «يخت القمر»، وهي سفينة ضخمة بالغة الجمال والقوة، ذات تصميم رائع طويل وأشرعة كبيرة ومجاديف عديدة وزخارف ذهبية، ولها طرفان على شكل زهرة اللوتس، ومنحوت على أخشابها الفاخرة أبطال كيميت وأنتارها العِظام، وكانت تتحرك بقوة في المرفأ.. وكأنها تتوق للانطلاق في هذه الرحلة الجليلة.

وقف يحوي فوق السفينة المتأرجحة ليحيِّي أهل المدينة المجتمعين.. ولكن الحقيقة.. إن يحوي قد أخفى عن الأهالي.. بل عن رفقائه.. السبب الحقيقي لهذه الرحلة الخطيرة! إذ كان مُكلفًا بمهمة خاصة من جلالة الملك «كـمتـيـو الأكبـر» بنفسه! ولم يعرف بالهدف الحقيقي من هذه البعثة إلا عدد قليل.. أما «ڤيردو» البستاني الحكيم.. فقد خرج مع أهل المدينة لوداع بعثة كيميت.. ونظر بعين رحيمة نحو السفينة الراحلة.. وهو يدعو لهم بالتوفيق والسلامة.

***

وفي أقصى جنوب البلاد.. صاح سفير الأحباش «شاباركا» في رفاقه على المركب:

- تمسكوا جيدًا يا أصدقائي لئلا تسقطوا! فنحن على مشارف الشلال الأخير! وخلال ثوانٍ سنعبر يا أصحابي إلى حدود أرض كيميت ذات البهاء!

فنظر الأحباش للأفق، فاندهشوا لوجود شلال هائل أمامهم مباشرة! وكأنهم سيسقطون من حافة العالم! شعروا بالذُعر! إذ لم يستطيعوا أن يروا ما يلي هذ الجندل! فتمسك كل رجل منهم في جدران المركب وأعمدته وحباله.. ثم جاءت لحظة عظيمة كادت تتوقف فيها قلوبهم! إذ شعروا بأنفسهم وكأنهم يسقطون في هوة سحيقة بلا قرار! يضربهم الماء العنيف

من كل اتجاه.. وهو يفيض عاكسًا نور شمس الأفق القوية.. لم يستطيعوا الرؤية بوضوح، وامتلأت أسماعهم بهدير شديد! مع أنوار الأفق الجارفة التي اخترقت جفونهم!

***

وما إن مرت هذه اللحظة الساحرة حتى هدأ خرير الماء القوي، وبدأ صوت العندليب يملأ مسامعهم! وأحسوا بالنسيم اللطيف يتحرك على أجسادهم المبللة، وداعبتهم الأذرع الدافئة لشمس كيميت المقدسة، وغمرتهم أنغام النافورات ومياهها الصافية المتدفقة عندها فتحوا أعينهم في دهشة! فنالهم ما نال غيرهم من الشعوب! التي كان لها امتياز أن تشهد بلاد كيميت المُباركة في عصرها الذهبي! فقد أدركوا أن سفينتهم طافية على الماء المترقرق وقد دخلت للتو.. إلى حدود بلاد كيميت العظيمة! عندها.. حدَّقوا بأعينهم وفغروا أفواههم في ذهول!

***

إذ هامت روحهم مع الينابيع والبساتين النضرة على الضفاف.. وخفقت قلوبهم مع أصوات البهجة ودويّ الأبواق! ملأت مسامعهم أنغام الحياة.. الممزوجة بأمواج نهر المحبة.. أذهلتهم مدن كيميت البديعة على طول ضفاف النهر الكبير.. كأنها أرض واحدة ممتدة على طول الوادي وفروعه تحت ظلال الأشجار الوافرة.. من عظمة مدينة «سوينيت» وصخورها النادرة، وجُزُرها

ذات الحدائق والأزهار في الجنوب، وعلى طول وادي النهر الخالد حيث المُدُن البديعة وأشجار الصفصاف والجميز على ضفافه، وتأملوا المزارع الخضراء الفسيحة، والبيوت الخشبية اللطيفة وأبراج الحمام البيضاء..

***

وقبل الغروب.. صارت السماء ذهبية لامعة بالسحب وأنوار القرمز والورد! عندئذٍ ترامت إلى مسامعهم أصوات غناء ساحرة قادمة من بعيد! فقد وصلوا مدينة الروح «طيبة المقدسة» التي تروي عنها الحكايات الخرافية عبر العصور!

كانت شمس الأزل المهيبة تحلِّق بعيدًا في الأفق وراء النخيل وأعمدة القصور! ومياه النهر هادئة تمامًا، كأنها تخشع لأصوات الترانيم العجيبة التي يُحلِّق صداها فوق المدينة المُباركة! وعلى صفحة الماء تنعكس صورة السماء التي امتزج فيها اللون البرتقالي الهادئ والوردي كلحم السلمون، مع سحابها وطيورها البيضاء المهاجرة، ومن وسط النهر الخالد تخرج أعواد نبات البردي بين أوراق السراخس الساحرة وزهور الزنبق الزرقاء والناصعة، وعلى الأرض المضيئة بالبهاء الذهبي تمتد حقول الحصاد عبر الضباب إلى ما وراء الغموض.

***

استمرت رحلة الضيوف الأجانب الخلابة في مركبهم عبر النهر العظيم،

حتى صارت الشمس كياقوتة أرجوانية تشعُّ في أطراف الغرب! وكأنها تلوِّح بأشعتها لشعب كيميت النبيل مُودِّعة إياهم.. إلى زُرقة الليل والسكون.. حتى لقاءٍ قريب.

تنعَّم شاباركا ورفاقه في نزهتهم النهرية عبر مدن كيميت المباركة ومروجها النضرة، يحملهم النهر الصافي باتجاه المدن الخلابة في الشمال.. حيث تتلاقى البساتين الخضراء مع زُرقة مياه البحر الأزرق الدافئ ورياحه الخفاقة! هب عليهم النسيم الرائع بحكايات الماضي السحيق لأرض كيميت.. فانغمسوا في الانبهار بفلسفتها الغامرة وحكمتها العتيقة.. وروايتها الممتعة التي لا تنضب! وجذورها الأصيلة في أعماق قديم الزمان.

***

وفي تلك الليلة.. وفي قلب البحر الثاتشور الأزرق.. كانت سفينة يحوي ورفاقه تندفع بقوة بين الأمواج الكبيرة والرفاق على ظهر المركب الكبير.. يحوي المغامر بن خونانوپ، خاڤرياجوس الأيوني، هوجرافور النوبي، اجتمعوا تحت النجوم حول قبس زجاجي من اللهب، ما عدا «تسوتي» سليل إيمحوتيپ.. صاحب الروح الحرة، وعيون الليل الكحيل، إذ كان يقف وحيدًا متأملًا عند مقدمة السفينة.

أما خاڤرياجوس الأيوني فكان شابًّا مرحًا طريفًا للغاية، وكانت له لحية مموجة ملفوفة بشريط، وشعر كستنائي طويل مضموم بإكليل، ويرتدي زيًّا

أيونيًّا من الصوف المغزول على هيئة قميص يغطي إحدى الكتفين وتعلوه عباءة رائعة لها إطار معدني مع رداء على الوسط يصل للركبتين، مع زنار وسط من النسيج اللامع، وصندل من الجلد له أربطة تلتف على الساق بشكل جميل كالنباتات المتسلقة.

كانت الصحبة ممتعة تملؤها الضحكات والحماسة.. كان اللهب يلمع في عيني خاڤرياجوس عندما نظر ليحوي صائحًا:

– كم أنا سعيد يا صديقي بأن أشاركك أخيرًا في إحدى مغامراتك وبعثاتك الاستكشافية.

فابتسم له يحوي وقال:

– لدينا وقت طويل يا رفيقي الغالي لنتسامر تحت النجوم.

خاڤرياجوس:

– إليك الصفقة.. ستحكي عن رحلتك الأسطورية لمنبع النهر الكبير وشعب الأحباش، ومغامرتك عبر بحر «قصب الأرجوان» الأسطوري إلى بلاد پونت الشهيرة بالذهب وسماء البرونز والطين الخصب، وأنا سأحكي لك عن رحلتي لبلاد أنهار الشرق وعاصمتهم «البوابة المقدسة»، وسأتلو عليكم حال شعوب الكلدان ساكني الأنهار الشرقية، وعن شعورهم الملفوفة بالشرائط وثيرانهم الأسطورية ذات الأجنحة!

عندها سأل «هوجرافور» النوبي:

– أخبرنا يا خاڤرياجوس ، ما طباع شعب أنهار الشرق؟

وضع خاڤرياجوس يده على قلبه.. عندما استرجع ذكرياته العميقة في تلك البلاد.. وقال:

– حقّا يا رفقيَّ، إن أهل بلاد ما بين النهرين يتمتعون بمزيج عجيب من الشراسة وطيبة القلب.

ثم حكى لهما خاڤرياجوس كثيرًا من القصص الطريفة عن رحلاته في عن المغامرات العجيبة التي عاشها هناك! عندما ذهب هناك كجزء من سفارة زعماء أيونيا لبلاد النهرين، وكم ضحك الرفيقان عندما سرد لهما خاڤرياجوس عن تلك المرة التي صعد فيها خلسة لأعلى الحدائق المعلقة ورأي المشهد المُذهل من فوق سحاب الأعالي! وعندما لمحه الحراس ظنوا أنه أحد المُشاغبين! فاضطر للركوض نازلًا بسرعة عبر المروج المُدرَّجة ليهرب منهم على نحو بالغ الطرافة، وكيف أنه مَرَّ من بين الحراس الحائرين متنكرًا في زي أحد الباعة المحليين.. حتى تمكن من العودة بأمان إلى قصر ضيافة السُّفراء. ومع كل جملة من خاڤرياجوس خفيف الظل.. تعالت الضحكات وابتسامات الدهشة والاستمتاع..

استمرت القهقهات المرحة بين الرفاق.. ولكن نبرة صوت خاڤرياجوس سرعان ما تغيرت.. إذ تنهد بنظرة حزينة وهو ينظر في أمواج الأفق.. وقال كأنه هائم في حلم لم يفارق قلبه:

– في تلك البلاد الشرقية البعيدة.. أحسبني تركت قلبي تائهًا.. مع أميرة في القصر.. كانت لها عينان واسعتان بهما مسحة من الحزن.. ورموش كحيلة طويلة تخفق كجناحين.. ليخفق قلبي هو الآخر مع كل حركة من أجفانها الرقيقة، وطوال فترة مكوث السفارة.. كانت تدعوني كل يوم لأعزف لها موسيقى جزر الأيون، وكانت تهيم سارحة في كل ما أتلو عليها من الروايات وعزف الأنغام، كم أحسستُ ببهجة عجيبة.. كلما تلاقت عيناها الحوراوان بعينيَّ! على أي حال.. قوانينهم لا تسمح لهنَّ بالزواج بأجنبي.. وبعد أيام قليلة رحلت سفارتي وعُدتُ إلى بلادي.. ولم أعرف عنها شيئًا بعدها.

فقال له يحوي مشجعًا:

– عبرت كثير من البحار يا خاڤرياجوس يا صديقي.. ولا أحسبك تغرق في عيني أميرة من بابل.

***

وبينما استمر التسامر على السفينة الضخمة التي تتهادى فوق الأمواج الكبيرة..

حدث شيء أخذ أبصارهم! نظر الرفاق في السماء.. إذ إن نورًا جميلًا قد شقَّ الليل وعبر بهدوء بجانب القمر البدر! فوقفوا يتأملونه في عَجبٍ! ولكن النور لم يلبث أن اختفى!

فصاح خاڤرياجوس في ذهول:

– لم أرَ يا صاحبيَّ شيئًا كهذا من قبل!

فرد عليه يحوي:

– ما رأينا الآن.. يا عزيزي خاڤرياجوس.. ليس نجمًا من الأفلاك.. بل هو «خونسو» سيد القمر! المسافر الرحال.. وهو يساعد الأرواح على العبور إلى العالم الأزلي!

أراد خاڤرياجوس أن يرى المزيد من هذا التجلِّي المقدس، فذهب مسرعًا إلى جانب المركب الكبير، ووقف عند سور السفينة لينتظر، إذ كان للفنان الأيوني كثير من حس الجمال وحب الإبداع، فاقترب منه المغامر يحوي بهدوء.. عندها همس خاڤرياجوس متفكرًا وهو يحدِّق إلى بهاء القمر المنير:

– يقولون إنه لا شيء في العالم يشع نورًا أكثر من القمر.. إلا وجه الملكة «ميريت» سيدة بلاد كيميت.. هذه الملاك التي تحكي عنها الأشعار منذ مئات من السنين! ولكن أحدًا لم يرَها كي يخبرنا.

***

عندها صوَّب يحوي نظره متأملًا أفق البحر المفتوح.. وهو يسترجع ذكرى قديمة..

وقال:

– أنا فعلت يا صديقي!

شعر خاڤرياجوس بالفضول، وارتسمت ضحكة خفيفة من الاندهاش على وجهه، وأصغى المسامع ليحوي الذي فرَد ذراعيه القويتين، واستند بكفيه إلى سور السفينة، وقال:

–لا يوجد إنسان في كيميت إلا وهو يشهد بفضل السيدة الكريمة، لقد كان أبي خونانوپ مُقربًا من مولانا الملك «كـمتيـو الأكبـر»، وعندما رحل والدي عن هذا العالم.. كنت ما أزال صبيًّا صغيرًا، وقد جاءت بعدها دعوة ملكية لأسرتنا لحضور احتفال في القصر الكبير، فجئت مع عمي ووالدتي وأنا صغير السن.. من مدينتي «أخمين» ذات الحقول.. إلى إقليم الأسوار البيضاء.. «إنبو هيتش» عاصمة البلاد.

ثم تنهد يحوي باحترام قائلًا:

– كانت تلك هي المرة الأولى يا خاڤرياجوس التي أنال فيها شرف لقاء مولانا الجليل.. حضرة الملك العظيم.. «كـمتيـو الأكبـر»..

يومها ارتجف قلبي من لقائه! حتى أن جسدي كان يرتعش وصارت أطرافي باردة من الخوف! ولكن ما إن حصلت على كرم الوقوف في حضرة مولانا.. حتى صار حبه جزءًا من أوصالي، إذ عاملني جلالته حقًّا كواحد من أبنائه، إذ هكذا كان يحب رعيته ويحرص عليهم، وطلب يومئذٍ من الحكماء الاعتناء بأسرتنا، وقد أوكل أمري إلى الفاضل «ڤيردو» البستاني، كان رجلًا

صالحًا وعلمني كثير من المعارف وصار كأبٍ لي.

شدت القصة مسامع هوجرافور النوبي فانضم إلى يحوي وخاڤرياجوس على شرفة السفينة مُصغيًا لباقي القصة تحت السماء الزرقاء وهواء البحر المالح..

أكمل يحوي كلامه:

-وفي ذلك اليوم الذي دعانا فيه الملك للحفل.. اجتمع العديد من الضيوف في أجواء سعيدة تحت قناديل القصر الساطعة بأحلى الأنوار.. وسط أنغام الموسيقى الساحرة.. كانت مولاتي الملكة «ميريت» ترتدي رداءً وقلنسوة تغطي رأسها، ولكني لم أتمكن من رؤية وجهها، كانت خطاها تشهد بالنُّبل الرفيع، وانتسابها لنسل القديسين والأنتار.. وكان حفلًا رائعًا لا يُنسى... وفي اليوم التالي عندما حلَّت ساعة العصر يا رفاق.. وبينما كنت أستمتع بجمال النباتات بين أعمدة باحة القصر.. فقد كانت أصوات الطيور تملأ الأجواء بالنغم والبهجة.. عندها رأيت الملكة مرة ثانية! واقفة بين أعمدة من المرمر بجانب بستان القصر، تتحدث مع إحدى الأميرات.. بين أوراق شجيرات الفُل والليمون والقرفة، وكانت القلنسوة تغطي رأسها، وعندها.. لمحت من غير قصد كفَّها الشريفة.. برَّاقة كأنها من عجين النجوم الخالص! وفجأة.. التفتت في تجاهي!

عندئذٍ شعر خاڤرياجوس بالفضول وابتسم بحماسة ونظر إلى يحوي قائلًا:

– هل رأيت وجه جلالتها؟

سكت يحوي ثم نظر إلى صديقه وقال:

– آه يا خاڤرياجوس.. قد رأيته! فما أدراك! كيف يكون وجهها النبيل.. ولمحة عينيها! أقسِم لك يا خاڤرياجوس.. أن وجهها الكريم قد أشرق كمئة بدر! حقًّا يا خاڤرياجوس إن لسيدتي «ميريت» وجهًا.. لو اطَّلع عليه أبأس أهل الأرض لابتهج وصار أكثرهم تفاؤلًا وحبًّا للحياة! بل حسبت أن الإنسان يقايض أي شيء مقابل نعيم النظر في وجه سيدتي.. بارك الخالق في سيدتي الملكة.. وبارك في مولانا الملك ابن كيميت البار..

***

وبينما تتحرك السفينة بانسيابية عبر أمواج بحر الڤاتشور الأزرق، كانت السماء صافية وتنعكس صورة السُّدُم والمجرات في طبقات الأمواج، عندها هز «هوجرافور» النوبي رأسه متأملًا وقال وكأنما قد أخذته النشوة:

– إن كان لوجه الملوك العظام والملكات كل هذا البهاء.. فكيف نحن يا أصدقائي؟ حين نرى وجه أبينا الكريم الذي يسكن السماوات؟!

ملأ يحوي صدره بهواء البحر المفتوح والبهجة تملأ وجهه وقال:

– حقًّا يا أعزائي، ما جمال الإنسان والطبيعة إلا من جمال الخالق البديع، وما عشق المحبوب إلا لما فيه من عطر الجوهر الأصلي، إذ هو كأعظم فنان خلَّاق، والبدائع نسل أفكاره.. تخيل المطر السحري عندما يلمع على سطح

المعمار، ويُحيي الغابة والأشجار، تأمل (تناسُج) الأفكار، تدبَّر مرور العصور وتراكب الغزل وغيوم الألوان، تأمل أعظم متع الإنسان، تناسق الطبيعة والأفلاك، تخيَّل أحلى الأفراح والمباهج، أطهر الثياب البيضاء عندما تبرق كالنور، مشهد بحر لازوردي ممتد الألوان، شاطئ طهور ذو أشجار كبلاد «رومنان»، مجد بزوغ الفجر وشروق الشمس كل إصباح، كلها لمحات من جماله العظيم، فكيف نحن حين نمتزج مع الأصل كامل الجمال؟! لنعانق مصدر الإبداع الفائق الذي جئنا منه وإليه نعود!

فقال «هوجرافور»:

– سمو العشق يا رفاقي على قدر المعشوق، من أحب الوجه والجسد، فإن إعجابه إلى زوال.. ما إن يروح ما فيهما جمال، وكان كمن يقضي غرضًا لا يسكن القلوب، أما من عشق الحلاوة فيما وراء المادة الفانية، فإن محبته تبحر للخلود ما دامت الروح، فمن كان طاهر القلب.. رأى الجمال حتى في الوجه القبيح.

***

وفي قلب بلاد كيميت، قبل الفجر.. كانت سفينة الأحباش ما تزال تعبر على طول نهر «حابي» العظيم في ليلٍ ذي سماء واسعة زرقاء مُرصعة بالنجوم، لا تلبث أبصارهم أن تنعم بإحدى مدن كيميت الخلابة.. حتى تبهرهم المدينة التالية! كان من المنتظر أن يصلوا للعاصمة «إنبو هيتش» مع طلوع الصباح، وبينما يتهادى مركبهم في النهر العظيم في طريقهم للعاصمة الأسطورية.. لمح

الأحباش شيئًا مُذهلًا! في أفق الضفة الغربية من النهر، حدقوا بأبصارهم فشاهَدوا.. جبالًا شاهقة لا مثيل لها! تخترق الضباب وطبقات السحاب! بل إنها تملأ الأفق الهائل! رغم وقوعها على مسافة بعيدة جدًّا!

عندها قال شاباركا في غبطة عظيمة:

– أعزائي.. إننا نمرُّ الآن على ضفاف مدينة «العالم الآخر»! ونشهد المكان الأسطوري.. الذي يلتقي فيه عالم الأرض بعالم السماء!

فصاح أحد رفاقه في عجب شديد:

– سيدي شاباركا.. لم نرَ في حياتنا جبالًا بهذه الضخامة والتناسق!

عندئذٍ قال السفير شاباركا وهو يتنهد من النشوة:

– أعزائي.. هذه ليست جبال! بل هي عجيبة أُخرى من عجائب الكيميتيِّين! وعندما سمع الأحباش ذلك.. شعروا بذهولٍ عظيم!

الفصل الخامس
سفارة الأحباش والصندوق السحري!

وبينما تمر السفينة فجرًا في النهر بدأت ملامح الكيان الضخم تتضح على الفور.

فتلك الكتل هائلة الحجم.. التي أذهلت الأحباش في قاربهم النهري.. لم تكن جبالًا ضخمة.. بل أهرامات عظيمة تخترق السحاب! غنية بالتفاصيل.. شديدة البهاء! مصنوعة من أحجار تامة هائلة الحجم! ومُغطاة بالرخام الأبيض المصقول.. الذي يتلألأ من بعيد بأنوار النجوم.. ليعكس قدرًا لا يُحصى من التفاصيل الساحرة! وكان لها قمم من الذهب الخالص! كاد كل رجل منهم يُقسم أنه في حلم خلاب! لا يرغب في الاستيقاظ منه!

تنهَّد السفير «شاباركا» مبتسمًا وهو يرى الذهول على وجه رفاقه:

- إذ قيل إن تلك الأهرامات العظيمة هي وسيلة لتخليق الطاقة ونشرها في كل الأرض المُباركة، فكانت تستقبل أنوار الشمس الأبدية عند كل صباح.. مُستعينة بالموج الأزلي الذي تتراقص عليه الورود في نهر حابي العظيم.. فتنشر الطاقة في ربوع البلاد كلها، وفي ذلك الزمان الذي

كان العقل فيه ساطعًا بمعرفة الحق.. لم يكن هناك انفصال إطلاقًا بين طاقة الروح والحياة المقدسة.. وطاقة الأنوار المرئية كالضوء والحرارة والتحريك، فمن الطاقة النابعة من تلك الأعجوبة بمدينة الخلود كانت شوارع كيميت تُنار كلها بقناديل بيضاء مُذهلة للأبصار، فوق أغصان الأشجار بين الحدائق الممتدة، وكذلك تضيء القناديل ببياض ناصع على جوانب الطرقات الخلابة.. فوق الأعمدة المُزينة بالزخارف التي تسلب اللُّب.. والتي شيَّدها أعظم المهندسين.. حيث تعشش فوقها الطحالب الجميلة وتزدهر النباتات المتسلقة بالزهور.

ومن الطاقة نفسها تُشفى الأمراض وتطول الحياة وتملأ السعادة القلوب.. ولهذا يُعمِّر أهل كيميت سنوات كثيرة تفوق باقي الشعوب، محتفظين بشبابهم أحقابًا طويلة للغاية! بسبب الطاقة المجيدة التي تسري في التربة وقطرات المطر اللطيفة والأشجار.. وتهيم في أعماق السُّحُب الباردة وأنوار الصباح الدافئة وصافيات الينابيع.

والحق أنه قد قيل في شأن تلك المُشيَّدات الهائلة أمورًا عِظامًا! فسيُروى في آخر الزمان أنها كانت تشير إلى جنة السماء ومملكة الخلود الأسطورية! ولكن هذه معرفة ستعمى عنها الأبصار.. وستجهل بها أذهان البشر لعصور طوال.

***

وبينما تهبُّ رياح الفجر الباردة تحت سماء غسقية بالغة الاتساع.. عادت حبيبة شعب كيميت ذات الأنوار والدفء.. فمدَّت شعاعها ليعبر زجاج أكواخهم بين الحقول وهم مستغرقون في أحلامهم البهيجة.. إذ جاءت شمس الخلود لتلاقي الكيميتيين في الميعاد.. و بنورها طبعت قبلاتها الرقيقة على وجوههم الكريمة.. كما تلثم العشيقة وجه محبوبها بشفتيها الناعمتين لتوقظه على شروقٍ جميل.

***

اقتربت رحلة مركب الأحباش من العاصمة «إنبو هيتش» ذات الأسوار البيضاء.. حيث أرادوا النزول في مينائها الوقور.. ذي الرخام والمرمر الأبيض والأحجار الجميلة المصقولة.. بدأت ضفة مرفأ المدينة تلوح لهم في الأفق.. فلاحظوا السفن الكيميتية العملاقة ذات الأشرعة الخفَّاقة.. وهي تشقُّ مياه النهر قرب ميناء المدينة الصاخب.. كانت مياه النهر فيروزية تامة الصفاء، وتُظهر مدى عمقه واتساعه الهائل! وتلألؤ النباتات المائية الخلابة والتربة الناعمة في قاعِه البعيد!

تأمل شاباركا وأصحابه أمواج النهر المُقدس التي تتحرك بحيوية كبلُّور سائل.. فتنتشر فيها الصورة اللامعة للشمس الأبدية التي تباركت بها هذه البلاد.. عندئذٍ.. ارتفعت أبصارهم نحو أفق برَّاق بلون السحاب الناصع والذهب! فإذا هم يُحدقون عيانًا في عمران مجيد لا يتخيله عقل إنسان!

فشعروا كأنهم تحت تأثير تعويذة تملأ القلب بفرحة سحرية! إذ كانوا ينظرون مباشرة نحو العاصمة العجيبة لبلاد كيميت الأسطورية!

***

لم تكن «إنبو هيتش» مذهلة فحسب.. بل كانت أيضًا كبيرة جدًّا! بل هي أقرب إلى إقليم كبير يشمل عدة مدن.. ومدينتها الرئيسية هي «مينيفرا» أي مدينة «الجمال الخالد»! وهو الاسم الرائع الذي كان السفراء الأجانب يدركونه على الفور.. ما إن ينالوا فرصة زيارة تلك البلاد الخرافية.

نزل شاباركا ورفاقه إلى ميناء مدينة الجمال الذي لا يزول.. ومتعوا أعينهم في ذهول! إذ كانت الأجواء صاخبة في الميناء مع كثير من مراكب الصيد والنقل التجاري، وعلى ضفة الميناء الأبيض تستقر أصناف كثيرة من البضائع الخلابة، إذ كانت المدينة قلبًا تجاريًّا ينبض بالحياة ويربط أنحاء بلاد كيميت المباركة، وبين جنبات المرفأ يتحرك رجال كيميت الأقوياء في الميناء وينقلون البضائع في أناقة ووقار، بينما تسير بعض الفتيات ذوات الحُسن في الزي الكيميتي اللطيف وهنَّ يحملن سلالًا من فواكه وأزهار.

كانت «مينيفرا» مليئة بالدرجات الرخامية المتصاعدة في بهاءٍ لا يُضاهى، والعديد من البوابات الضخمة المتتالية التي تصل بين جنبات الإقليم الساحر، وكم كان ذهول السفراء الأجانب من التماثيل الهائلة التي كانت على جانبي كل بوابة، إذ هي منحوتة بتفاصيل تسلب العقل! ومصقولة بأيدٍ ماهرة تصل إلى حد الكمال، ومصنوعة من الأحجار الكريمة بالغة الصلابة

كالسبج الأسود اللامع واليشم والبازلت والجرانيت، لتذكِّر بأساطير كيميت المجيدة وحكمائها العظماء من الماضي العتيق الممتد إلى العصور السحيقة، أما البوابات البيضاء العملاقة فهي مزخرفة برسومات جليلة من ماء الذهب وصبغ اللازورد والبرونز العسلي، وتُظهر رموز كيميتية عميقة كأجنحة الشمس وأزهار الزنبق والجعران، وبين أركان المدينة تنتشر الأواني المعدنية الكبيرة ذات الزخارف التي تحوي نباتات الزينة بالعديد من الألوان المتناسقة، وتلوح في الأفق الأشجار البديعة والنخيل والحدائق ذات الأعمدة والنافورات، أما الأعمدة فأغلبها أسطواني شديد الضخامة عريض من أعلى كبتلات زهرة متفتحة، وهي مزخرفة بطِلاء أخضر فيروزي مريح وبرتقالي زاهٍ وأزرق مَلَكي.

تأمّل سفراء الجنوب المعابد وبيوت الحياة برهبة! وجمال البيوت ذات الشرفات العليا المنمقة والمُزينة بالنباتات المنزلية، وطباع أهل كيميت ووقارهم، والحياة المفعمة الغنية بالتفاصيل والألوان! والطيور البيضاء التي تتهادى على ضفة النهر الأزلي بين زهور اللوتس والأوراق البديعة.. انتعشوا بعطر النهر والأساطيل.. ومرت كل لحظة كدهرٍ طويل.. وإذ هم كذلك.. أشرق عليهم نورٌ وهاجٌ أثيل! يسطع كشمس الأَصيل! فقد اقتربوا من القصر الكبير!

رفعوا رؤوسهم ليشهدوا روعة بنيانه، وكأنه من عالم غير العالم! اقتربوا من البساتين قُرب بوابة القصر، فملأت أسماعهم أغاني العصافير

اللطيفة.. كان لحدائق القصر أسيجة عجيبة مصنوعة من النباتات! وتتدرج عليها الأنوار بألوان متداخلة كالغيوم السحرية! ثم أُذن لشاباركا ورفاقه بالدخول.. فازداد ذهولهم من هول المشهد العظيم! أبهرهم الاتساق الهندسي والرخام البراق والصياغة وأُبَّهة المعادن النفيسة التي تزينها! والتي تعكس أشعة شمس الأفق البهية على وجوههم وأجسادهم.. عندها خفقت قلوبهم بقوة من الهيبة! إذ كانوا على بُعد ثوانٍ قليلة من المثول بين يدي الملك الذي لا تصفه الكلمات.. الذي سمعوا عنه قصصًا وروايات.. وقرؤوا عنه في الأساطير والكتابات.. مُذ كانوا صغارًا في بلادهم!

***

إذ كانوا عارفين.. أن مجرد سماع اسم هذا الملك..تخشاه أقوى الجيوش.. وترتاع له الوحوش.. والملوك فوق العروش.. تهيج له البحور.. وتفزع منه الأرواح الخبيثة في القبور! بَيْدَ أن اسم «كـمتيـو» هو نفسه.. الذي تطرُب له القلوب النقية.. ابتهاجًا ببُشرى العدالة والنور!

***

عندها نوديت أسماؤهم للدخول! فازداد خفقان قلوبهم من الخشية! وكادت تنفرط من عيونهم قطرات الدموع! إذ جال في خاطرهم.. أن ملكًا بهذا البهاء.. كيف يكون عقابه وسخطه؟! إن هم أتوا بأهوَن ما لا يليق؟!

***

ازدادت سرعة ضربات قلوبهم، واغرورقت أعينهم بالعبرات! سيكونون في الحال في حضرة ملك بلاد كيميت الأسطوري! كـمتيـو الأكبـر.. سليل القدوس نفسه! ملك ملوك الأرض! وسيد الشرق والغرب!

***

وعندها وصلوا إلى ردهة «رود إماخ» وهي «السلالم المُبجلة» التي تقود إلى قاعة العرش ذات الدرجات الشاهقة المصنوعة من معدن خرافي بالغ النقاء والشفافية! كأنه ضباب متجمد يتدرج بين الأبيض والأسود كالعروق المتناغمة.. والمرور عليها يشبه بالضبط أن يسير الإنسان فوق السحاب! أما الأعمدة الهائلة فمن حجر عظيم لا يُعرف اسمه! وتتحرك الأشعة اللامعة بينها عدة مرات! وتزينها حروف كيميتية متلألئة مكتوبة بالمعادن النفيسة.. وأما قواعدها المكعبة فمن الذهب الخالص البرَّاق.

كانت الرُّدهة الأسطورية خلابة ومفعمة على نحو عجيب! حتى أنهم عرفوا اسمها ومعناه دون أن يُخبرهم أحد بذلك! وتمكنوا من تلاوة الأفكار العُظمى التي تخبرها الحروف المكتوبة دون أن يتعلموها! وعندها.. أيقنوا أن أرواحهم قد صعدت للعالم العُلوي! إذ غمرت مسامعهم المعزوفة القومية لبلاد «كيميت» المقدسة! فأقسموا أن نداء الجوقة هو صوت الملائكة! وأن وقار مزامير النحاس أعمق من المحيط، وأعلى من أفلاك السماء! فتتناسج الألحان لتعلن حكمة أرض الخلود والبهاء.. عندئذٍ نسيَ كل واحد منهم اسمه.. وكاد يجهش بالبكاء.

***

استمروا في صعود الدرج الأسطوري حتى بدأت الأرضية تتحول إلى صخر أسود أملس تمامًا كامل الصلابة! كالمرآة يعكس كل شيء! بل شفاف كماءٍ مسحور وكأنه مصنوعٌ من سُحُب دكناء ممتزجة! حتى أن أعماق أغواره الضبابية تبدو واضحة كالتحديق في نهر سحري بلا قاع! وكأنها أعظم ما يُمكن أن تبصره عيون مخلوق! فاضت الدموع من عيون الأحباش.. وانتفضت أجسادهم بالارتعاش.. وارتجَّ كيانهم بالرهبة! وساروا وهُم يبكون كالأطفال! لقد وصلوا أخيرًا إلى القاعة الأسطورية لجلالة الملك «كمتيو الأكبر»! وهم مُتخبِّطون كالسُّكارى.. كالتائهين من مشروبٍ سحريّ! كالهائمين في حلمٍ جليّ! عندئذٍ..

غمرهم نورٌ عظيم! يسطع كشمسٍ صافية بلا حجاب! امتلأت روحهم بنشوة الأبدية.. وتأكدوا أنه لا يوجد نعيم أجلُّ وأحلى من هذه اللحظة الساحرة!

عندئذٍ شعروا برغبة لا تُقاوم في السجود..أمام حضرة الملك القدير.. كمتيو الأكبر..أعظم ملوك الأرض.. سيد بلاد كيميت المقدسة.. الذي تُقبِّل شفاه ملوك الشرق والغرب موطئ نعليه.. فانحنوا.. وهُم يودُّون لو أن وجوههم تخرق الأرض من الخشوع..بل هم يحسبون أنه حتى السجود نفسه لا يليق بهذا المقام!

***

عندها سمعوا صوتًا عميقًا بلا مثيل! لقد كان صوت سماحة الملك الكريم! فاهتز كيانهم وهم يسمعون الكلمات:

(ارفعوا رؤوسكم يا رفاق.. هذه أرض حرة.. لا يُهان فيها إنسان.. ولا يُرفع فوق أخيه قيد بنان.. ولا يُركع فيها.. إلا لملك الأكوان).

***

وما إن سمع سفراء الأحباش بتلك الكلمات الكريمة من فم كـمتـيـو الأكبـر.. حتى صار أحب الناس إلى قلوبهم.. وودوا لو أن يفدوه بمالهم وروحهم.. إذ كيف يُعقل أن يكون؟! لملك ملوك الأرض.. جُلَّ التواضع والكرم؟! اللطف ودماثة الأخلاق؟! حتى لأبسط البسطاء؟! بل إنهم شعروا بنغمة المحبة الصادقة في عينيه الكريمتين.. رغم أنهم قد استَحوا النظر مباشرةً في وَجْه جلالته الشريف.. فأيقنوا جميعًا أنه:

إن كانت فضيلة كيميت الأولى هي: حكمة القدر.. فما الثانية إلا: العدل بين البشر..

***

أُذن للسفير «شاباركا» أن يتقدم.. وأن يتلو رسالة «هاروك» ملك الأحباش من ورقة ملفوفة، وكان نصُّها:

(إلى مولاي العظيم.. رب الأراضين.. ملك الملوك والسلاطين.. ابن آمون العظيم.. جلالة الملك الأقدر.. «كـمتـيـو الأكبـر».. الذي تخضع لاسمه جيوش الشرق والغرب.. ولنظرة واحدة من عينيه ترتعد وحوش البحر والأرض.. لولا شيخوختي لجئتُ بنفسي إلى بلاطكم خاضعًا طائعًا..

ليتني أُعفِّر وجهي تحت عرشكم الكريم.. وأبتهج بحكمة أرض الأنهار والبساتين.. ألتمس من جلالتكم الرضا عنا وقبول سفارتنا.. وما أرسلنا إلى بلادك الكريمة من هدايا لا أحسبها تليق بعظمتكم.. من خادمك «هاروك» في أرض كاش وبلاد الأحباش.

عبدك الخاشع عند موضع قدميك).

***

أثنى الملك العظيم «كـمتـيـو الأكبـر» على ملك الأحباش ناعتًا إياه بالرجل الصالح والصديق القديم.. وطلب من شاباركا أن يُرسل إليه التحية.. شعر السفراء بغامر الامتنان من ضيافة شعب كيميت الكريم.. وأمر الملك كـمتـيـو الأكبـر بإكرامهم كضيوف أعزاء وإعطائهم تذكارات.. وهدايا فخمة تليق ببلاد كيميت ذات البهاء.. إلى شعب الأحباش الصديق.

***

وكان مع سفارة بلاد الأحباش والطبول كاهن يرتدي ثوبًا من فراء الفهد الأرقط.. إذ كان ملك الأحباش قد أراد أن يختبر عجائب قدرة كيميت وحكمائها! تقدَّم الكاهن أمام عرش الملك كـمتـيـو الأكبـر وقال:

– مولاي العظيم.. قد رأينا من هذه البلاد المقدسة كامل الخير والحكمة.. وشهدنا منها السحر والأعاجيب.. إن تسمح لي أستعرض عليك بعضًا من حكمة شعبنا المتواضعة.. وفخر ما صنع السَّحَرة في بلادي!

فأشار إليه كـمتيـو الأكبـر وقال بصوت عظيم ذي وقار:

- اعرض ما شئت أيها الكاهن.

فجاء الكاهن بحقيبة مُزخرفة من القماش.. وأخرج منها صندوقًا عجيبًا! بلا قفل أو مصراع! وتخرج منه همسات غامضة! وعندها قال الكاهن:

- في هذا الصندوق يا مولاي.. شيءٌ من الأسرار.. فليقرأه حكماء كيميت إن كانوا يعرفون الأقدار.. ولك أن تستخدم ما شئت من معين.. ليصير السحر الخفي مستبينًا.

ومن فوق العرش.. قال كـمتيـو بصوتٍ متين:

- سآتيك بالجواب اليقين.. صباحًا.. بمشيئة رب العالمين.

الفصل السادس
يوم أشرقت الشمس مرتين!

خرج السفراء إلى الحدائق المفتوحة على ضفة النهر الكبير.. فظنوا أنهم في الفردوس!

ذائبين في طبيعة كيميت المباركة وشمسها الأزلية، وأشجارها القديمة وطيورها البديعة وبينما يتجوَّل السفراء في المدينة البيضاء.. «إنبو هيتش» عاصمة بلاد كيميت.. استمتعوا بصخب النافورات وصيحات لعب الأطفال التي تملأ الأرجاء مع ألحان الغناء الحالم.. الذي يروي أفكارًا بديعة عن معنى الوجود! أفكارًا مقدسة من عالم الغيب.. لم يعلم بوجودها هؤلاء القادمون من الجنوب! ثم لمحت عيونهم تحفة من البنيان البديع! ميدانًا هائلًا مستديرًا.. مزروعًا بالنباتات والزهور.. وفي داخله حوضٌ كبير.. ونافورة من الفضة والبلور.. وتماثيل ضخمة من الرخام الأبيض لمحاربين كيميتيين مدججين.. في وضع القتال ويصرعون وحوشًا على شكل زواحف عتيقة! تكاد تنطق وكأنها مشهد حقيقي من معركة كُبرى! وتنسال مياه النافورة من إبريقين ناصعين.. يحملهما تمثالان رائعان لامرأتين ترتديان الزي الكيميتي..

وفي وسط الميدان الكبير.. كانت هناك مسلَّة ضخمة بالغة النُّبل والجمال.. تنتصب بشموخ عظيم وسط الميدان! كان ارتفاعها يفوق التسعين ذراعًا! وكان لها قمة هرمية من الذهب.. وعليها نقوش ملكية وفخامة تفرض هَيبَتهَا على عقل أي إنسان!

فقال شاباركا سفير الأحباش لأتباعه:

– انظروا وتعجبوا يا رفاق! فهذه هي مسلّة الـ «سينتاهيرا».. نُصبت لتخليد ذكرى معركة «النهارين» الشهيرة.. التي روُوا عنها الملاحم والأساطيرَ! قد صُنعت منها نسختان، واحدة هاهنا في العاصمة.. وفي أناطوليا تقع الأخيرة.. في مدينة «جارينتام».. حيث كانت ساحة المعركة.. منذ أربعمائة عام! إذ تفوَّه الحكماء في الماضي بنبوءة عُظمى.. عن بلاء شديد يُفزع الأمان! ويملأ سواحل البحر الأزرق بالخوف ومستنقعات الأنتان.. ولا يَحِل عنها إلا في يوم غريب مُذهل! تُشرق في الشمس مرتين! وبعد هذا اليوم يُدفن الشر والعفاريت في الجُب المُظلم.. ثلاثة عصور من الأزمان!

***

كان مشهد المسلة يسلب الألباب.. وكان النسيم يُحرِّك أوراق الأشجار حولهم مع أصوات النافورات.. وكان أفراد بعثة الأحباش منجذبي الانتباه.. متشوقين لكل كلمة تخرج من فم السفير شاباركا الذي أكمل القصة المُذهلة:

– في تلك الأيام البعيدة ازدادت الأمراض والأعطان.. وانبعثت في الهواء روائح كريهة وأعفان.. إذ اجتمعت العفاريت من جميع الأراضين.. يقودهم «أعبوفي» اللعين.. سيد الشرور والشياطين.. أبو الأفاعي والثعابين.. ليمهدوا لعصر مُظلم.. قوامه ألف من السنين.. فاستعانوا بأهل الفساد والغاوين.. ليُرسلوا رياحًا نتنة تُفسد العقول وتُمرض الأجساد.. وتُعكِّر التّرع والرياحين.. ما أبشع عفاريت المَوَات! كان لهم ألسنة الحيَّات.. ووجوه مُفزعة بلا تعبيرات! أضعفوا الملوك.. وحرَّضوا الشعوب.. ثم أعلنوا إخضاعهم لسهول ليڤانتيا وأناطوليا.. وإقليم كالابريا وجزر الزيتون! فصار الليلُ سرمديًّا في تلك البلاد.. وظنوا أن الظلم باقٍ لقرون.

***

عندها تغيَّر وجه السفير «شاباركا» وهو يتلو الملحمة.. إذ نظر لأسفل بأسى... ثم قال والحزن يهدِّج صوته:

– فعل الشياطين وأعوانهم ما لا يصنعه الكفرة ولا الفجار، كانوا يتلذذون بصب الآلام وخرق أجساد الأطهار.. وإجبار الناس على أفعال الإذلال.. التي لم يسلم منها نساء ولا رجال! فهتكوا الأعراض بطرق لا تخطر على بال! بأفعال يندى لها الجبين.. ويعفُّ عنها اللسان! تفيض لها السماء بالدمع.. وتهتز لها الجبال! وربِّي.. لو أخبرتكم بما كانوا يصنعون... لبكيتم سنين طُوال!

***

عندها سقطت قطرة دمع من عين السفير شاباركا، وأكمل:

– فعانى البشر على أيدي الشياطين أبشع عذاب.. وصار شرف الإنسان أرخص من التراب.. فتمنَّوا لو أن لم يولدوا! أو أنهم كانوا طيرًا أو كلابًا.. وليس هذا بعد.. هو أعجب عُجاب!

فقال له أحد رفاقه:

– وماذا حدث بعد ذلك يا سيدي؟ كيف عاد النور؟ وكيف أشرقت الشمس مرتين؟

فابتسم شاباركا مُتبعًا:

– يُروى أن جيوش العفاريت كانت في الخيلاء والكِبر.. عندما سطع نور غريب.. عند الفجر! صارت العفاريت في خوفٍ وحيرة! فقد رأوا الصباح يبزغ قبل ميعاده! بفترة ليست بالقصيرة! عندها تذكروا النبوءة.. واستعدوا لمصيرهم المشئوم.. إذ سمعوا الزئير الغاضب في الأفق.. كرعد يدمدم ويدوم! فامتلأت قلوبهم بالهلع والجزع! وشابت شعورهم بالرهبة والفزع!

عندئذٍ.. غمرهم شروقٌ ساطع! وملأ العالم بالضياء! أعماهم النور الطالع.. وصمَّ آذانهم دَوِيُّ الأبواق! فقد جاء كمتيو الأكبر! أعظم الملوك.. وسليل السماء الذي قاد حملات حربية لا تُحصى.. في البر والبحر والأجواء، وأخضع أهل الظُّلم والعُتاة وأتباع الشرير، ها قد خرج بسيفه الحاسم، وأشرق عليهم بتاجه الشهير، مع جيش قوامه مائتي ألف مقاتل

من محاربي كيميت ذوي البأس القدير، التقى الجيشان عند الساحل القديم.. ودار بينهما قتالٌ عظيم!

***

عندها شرع الملك «كـمتيـو الأكبـر» يقطع صفوف جيوش العفاريت.. على عجلته الحربية، حاصدًا أرواحهم الخبيثة، مع جنوده الأبرار، طوبى لجنود كيميت الصدوقين! ما أنقى أرواحهم! وما أعظم بنيانهم الوقور، كانت خوذاتهم ذهبية ودروعهم من البرونز.. بلون الحمأ والفولاذ المصهور، تبُث الرعب في نفوس الظالمين ومُدنسي القبور، وتفيض الطمأنينة على أصحاب القلب الطهور.

انتهت المعركة بظفرٍ ساحق، ثم طلعت الشمس.. وبعثت دفأها الماحق، ليسطع بأحلى الألوان على سحاب الآفاق، ومن ذلك اليوم.. في كل البحر الأزرق رفرفت الأعلام، ورنَّموا أهازيج وأغاني.. سادت الفرحة وعزفت المزامير.. احتفالًا بشروق الشمس مرتين.. يوم أنقذهم كـمتيـو من «أعبوفي» الشرير.

فقال أحد رفاق شاباركا:

– وماذا تقول الحروف المنحوتة على المسلة، سيدي السفير؟

فاتَّكأ شاباركا على عصاه وأشار بيده إلى أعلى المسلة تاليًا ما كُتب عليها.. فأصغوا جميعًا للكلمات المهيبة، كأنهم يسمعونها بصوت صاحبها الأصلي:

«أنا كـمتيـو الأكبـر.. السيد على كل من لبس تاجًا، المحارب الذي هزم الملايين من الخصوم والأعداء، قاهر كل الظالمين، والذي خضع العالم كله لسلطانه معترفًا بقوته التي لا تُقهر، فليشهد الجميع أني سيف عدالة الخالق، وأني خادم الأنقياء والأبرار، أنا الصائح بحكمة كيميت بين النجوم، مُمجِّد القدوس ورفيق القديسين والأنتار»!

الفصل السابع
العفاريت السبعة!

وفي قصر البيت الكبير.. كان الملك كـمتيـو الأكبـر يقف عند الشرفة الكبيرة ذات الأعمدة.. التي تطل على سائر العاصمة الواسعة.. فتبدو البساتين والقصور والبيوت البديعة على ضفاف النهر الكبير.. تفيض الينابيع بأصفى المياه بين أشجار كثيرة من أنواع مختلفة.. وفي الأفق تبزغ أهرامات مدينة الخلود ببهاء برَّاق يخترق الأبعاد! وعلى منضدة من صخر البازلت المصقول استقر صندوق الأحباش السحري.

***

عندئذٍ جاء «مُحب» ابن الملك كـمتيـو الأكبـر وقال:

– ما لي يا أبي أراكَ مشغول البال؟ أهي روح الحكمة.. أم نشدان الجمال؟

فابتسم كـمتيـو ابتسامته الأزلية وقال:

– لا يا مُحب.. إنه التفكير في رفاق الرحال..

فرد عليه مُحب:

– يحفظهم رب الكون ويعيدهم سالمي الحال.. ولكن يا أبي.. ما هذا الصندوق المقلوب؟!

فقال كـمتـيـو الأكبـر:

– إنها لعبة من أصدقائنا في الجنوب.. يختبروننا أن نستشرف ما في القلوب.. أبصرتها بعين الأزل.. ولكن ما فيها يصعب حتى على الأنتار.. لا يليق أن تقف كيميت ذات البهاء.. عن شيء من الحكمة وفك الأسرار..

نظر «مُحب» إلى الصندوق المُزخرف في يد أبيه وقال:

– اسمح لي يا مولاي أن أكشف ما بداخله من الهمس.. وإني لآتيك بالجواب مع شروق الشمس.

***

وفي عصر هذا اليوم.. جلست رونتيتي في بيتها حزينة على الأرض الخشبية بعينين دامعتين، يؤلمها فراق حبيبها يحوي المغامر، ترتجف يدها كلما أرادت أن تضع من مساحيق الجمال من الصندوق المجاور، إذ صارت تعفُّ عن الحياة نفسها.. بعد رحيل معشوقها، وجلست إلى جانبها صديقتها «هيسپا».. التي يعني اسمها «طوق الأزهار».

رأت هيسپا ما بصديقتها من الهمّ، فقالت بصوتها الودود:

– ما لحالك يا أعز الأخدانِ؟ يُحطم قلبي على أن أرى في عينيك دمعَ الأحزانِ.

فنظرت رونتيتي نحو الفراغ والألم يملأ قلبها، وقالت بنغم خلاب:

– لقد أثارني معشوقي بصوته الواثق.. وكيف يؤمن بنفسه كأمير راعٍ.. إني لأرجو أن أكون امرأته.. وأن أطوق حبيبي بين ذراعي.. وهل أشغَلُ قلبًا قد رأى حور البحر؟ وفاتنات القرى والمراعي؟! قد أضحى صدري جريحًا بجرح.. يُشعله شوقي بالحارِّ والملح.. فلا يُطفئ لهيبي.. إلا عودة حبيبي.. آه يا هيسپا.. يا باقة الأزهار.. لو تعلمين كيف أسهر الليل وأمضي النهار.. آه لو تعلمين خفقان قلبي لسماع اسمه.. تتوق له شفتاي، ويعانق جسمي جسمه.. ها هو سيرحل ثانية في البحار.. ويتركني فريسة لفراقه العميق.. من كلماته.. أصبحت في دوار.. كوردة ضعيفة بلا رحيق.. ذَبَلَت جفوني.. ولم أعُد أعرف حتى.. كيف أضع المساحيق..

***

انهمرت الدموع من عيني رونتيتي الرقيقة وانهارت بالبكاء.. وأخذت تخبئ وجهها بذراعها من الخجل.. فرمقتها هيسپا ذات الشفتين بنظرة حنون، وأمسكت كفَّها وضمَّتها إليها، وقالت:

– لا عليك يا بتول البستان.. دعيني أُعطِّر كفيكِ بماء الورد وعطر الزعفران.. وأدهن بالكحل أهداب عيونك الحسان.. ولكني أخشى أن أكون معينًا لكِ على انتظار السراب.. فالبُعد يحيل لهيب الشوق تراب.. ولا شيء يُغيِّر كما يفعل الزمان.

***

وفي وسط أمواج بحر القاتشور قبل الفجر.. وصلت سفينة يحوي ورفاقه للمياه الغربية من إقليم كالابريا بالقرب من سواحل الخليج المعروف باسم «تيري».. كان يحوي مسترخيًا داخل قمرته بسفينة «يخت القمر».. مغمضًا عينيه القويتين ذواتي الكحل البديع.. ثم فتحهما بنظرة ثقة وقوة لا ينفك المرء أن يُلاحظها.. إذ وصلت إلى أذنيه كلمة انطلقت من فوق سطح السفينة .. كانت الكلمة هي : «شبُّورَه».. إذ صاح بها أحد أفراد الطاقم معلنًا نزول الضباب، واحتجاب الرؤية والنور. فصعد يحوي على ظهر السفينة وهي تتحرك على سطح الماء في غيمٍ أبيض عجيب! وعلى نحوٍ مفاجئ.. اهتزت سفينتهم بقوة! فقد اصطدمتْ بَارجة حربية بسفينة يختِ القمر وسط الضباب! وقفز منها جنود أجانب إلى سطح «يخت القمر»! ألقوا الصيحات ببسالة! وكانت ملامح وجوههم غير واضحة وسط غيوم الغسق! وفي أيديهم سيوف أنيقة عريضة النصال تُعرف باسم الـ «ناڤي»، ويرتدون خوذات ذهبية وأكاليل ذات أجنحة، ومعهم دروع مستديرة من المعدن المُزخرف برسوم تجسَّد معارك وبطولات.. التحم معهم يحوي والرفاق على الفور! فتصافحت السيوف معلنةً بهاءها بلمعان ساطع يخرج منه الشرر! فما أعظم حركة الأجساد المتصارعة! وهي تتوالى بقوة ورشاقة لتوجيه الضربات وتفاديها!

كان سيف الخوپيش في يد يحوي كمنجل أسطوري من ذهب! وكانت مبارزة تمتع العيون! وسرعان ما بدأ الضباب في الانقشاع وسط المعمعمة..

ومع أول أنوار اليوم الجديد.. بدأت هوية الخصوم في الظهور.. عندها طغى الصوت العميق للمغامر يحوي كهدير عظيم: - توقفوا!

فانصاع الكل لنبرته الجهورية ذات السيادة الجارفة.. وانقطعوا عن المبارزة في التو..

صاح يحوي لأصحابه:

- لا بأس يا رفاق.. يبدو أنهم صحبة قديمة..

ثم التفت للمحارب الذي كان يبارزه وقال معاتبًا:

- «لاجوس الشيرداني».. كبير محاربي جزر الشيردان.. منذ متى وأنتم تهاجمون سفنًا تحمل هذا الشعار؟ وبيرق بلاد البساتين والأنهار؟ وتاج مولانا ابن كيميت البار؟!

فابتسم «لاجوس» ذو اللحية الكستنائية والخوذة ذات الأجنحة وقال:

- اعذرني يا يحوي.. أيها المغامر الجليل.. فقد صرنا لا نثق بغريب، ولا ظل سراب.. إذ ساورتنا الشكوك بعد أن مرَّ دخيل.. فصرنا نتوجس مع حلول الضباب..

فسأله يحوي باهتمام شديد:

- كيف كان شكل الغريب؟ ومتى مرَّ من هذا المكان؟

فقال لاجوس:

- في وقت قريب.. منذ قرابة أسبوعين.. كان يرتدي قناعًا بلا تعبيرات.. بلسان مسموم كالحيات.. طاردناه بسلاحٍ ومعدات.. حتى البوابات

العُظمى.. حيث محيط الظلمات! فسلَكَ طريق الثريَّا وسديم الغبار! وعندها رحل بعيدًا.. مُختفيًا عن الأنظار.

***

سارع يحوي ورفاقه بالرحيل الفوري نحو الغرب بعد هذا اللقاء بمحاربي الشيردان..

متوجهين للبوابات العُظمى والتي تفصل البحر الأزرق عن المحيط الأدكن الواسع! ومنه سيتبعون طريق كوكبة الثريا النجمية.. انطلقَ المركب العظيم «يخت القمر» يشق المياه العميقة.. كان خاڤرياجوس وهوجرافور وتسوتي في حال من الذهول.. إذ أدركوا أن هناك غرضًا سريًّا غير مُعلن لهذه الرحلة البحرية! فصاح النوبي الأسمر هوجرافور، بينما تتحرك السفينة سريعًا نحو الغرب:

- فسِّر لنا يا يحوي الأمر الكبير، فقد دارت رؤوسنا من فرط التفكير!

فرفع يحوي بصره في خَط السماء والبحر، وصاح وهو يمسك بالصاري الكبير للسفينة:

- سأُخبركم يا رفاق بالهدف الحقيقي من هذه الرحلة البحرية المهمة.. يُروى أنه بعد معركة «يوم النهارين».. سجد «أعبوفي» اللعين ومَن تبقى من العفاريت أمام مولانا الملك كمتيو الأكبر طالبين الرحمة والمغفرة، وتوسلوا إليه ألَّا يُرسل أرواحهم إلى العذاب الأبدي.. كان العفاريت

موقنين أن لملكِ كيميت القدير .. بحُكم تكليف القدوس الأمين.. أن يقيم العدل ويرد المفاسد ويجلد الظالمين. فكان له أن يُرسل هؤلاء الشياطين للفناء..إذ تصيبهم ضربة صولجانه بما لا ينقطع من الأهوال والفزع! حتى يصيروا عدمًا محرومًا من نعيم الحياة الأبدية.

يومها بكى «أعبوفي» بِحُرقة وهو مُقيَّد بالسلاسل! وبكت من ورائه الشياطين .. كان جلالة الملك « كـمتيـو الأكبـر» غاضبًا عليهم، بعدما أتوا من الفساد والظُّلم.. عندها جاءت اللحظة الحاسمة! فقد أمسك «كـمتيـو الأكبـر» بـ«أعبوفي» من غُرته! وأمسك معه قرابة الخمسين من الشياطين من شعورهم في قبضته اليُسرى! فكانوا في يده كأقزام بلا حول ولا قوة .. وفي يمينه.. رفع الملك صولجانه الأسطوري الثقيل.. المُسمَّى «الإسفتشو» (أي: الألف ضربة عنيفة.. أو قاهر الفوضى).. ليهوي به على رؤوسهم! عندئذٍ صرخوا باكين كالأطفال.. ولكن بصوت مزعج شديد! حتى أن صوت عويلهم وصرير أسنانهم.. قد أفزع سكان الأدغال وبلاد الثلج في أقصى أرجاء الأرض! فقد كان الشياطين عارفين أن ضربة صولجان ملوك كيميت هي أقوى أوجاع الدنيا! تتزلزل لها الأرض وتضطرب لها البحار! حتى أنها تشبه سقوط جبل ثقيل على الدماغ! فأيقنوا في هذه اللحظة انقطاع الأمل.. وأن أرواحهم الملعونة ستهوي إلى البحيرة السوداء حتى الأزل!

***

أبدى زعيم العفاريت «أعبوفي» ندمًا غير مسبوق! وأخذ يلطم وجهه بهستيرية من شدة الحسرة! حتى أن كلماته لم تكد تبين من فرط العويل المتقطِّع! فأقسمَ للملك على الخضوع لحكم حضرة الخالق القدوس .. والولاء الخالص لنفوذ كيميت.. بل إنهم تمنوا أي عقوبة إلا من ضربة صولجان الملك والخلود في البحيرة السوداء! فتوسَّلوا أن تُقطع أيديهم التي سفكت الدماء! وأرجلهم التي مشت بالباطل بين الناس! وألسنتهم التي أساءت للخالق الكريم.. ونشرت الإفك.. وحرضت الإنسان على أخيه! وأن يتم وَسْمهُم بمكواة من نار! تُخلِّد عليهم علامة العار! وأن يمشوا إلى الأبد منكبِّين على وجوههم! يلعقون الأرض في مهانة بلا انقطاع!

فصلُّوا متوسلين لجلالة الملك «كـمتيـو الأكبـر» طالبين أن يوقع بهم هذه العقوبات.. مقابل أن ينالوا الصفح والغفران، ورحمة بلاد كيميت المباركة .. فيسامحهم الملك «كـمتيـو الأكبـر».. ولا يضربهم بصولجانه، ولا يُرسلهم للخلود في البحيرة السوداء، حقًّا إن هؤلاء ما كانوا يستحقون الرحمة.. ولكن الملك النبيل كان لا يُحب إلا الإحسان .. ولا يبغض شيئًا كالتشويه والإذلال .. حتى في العقاب والحرب والقتال .. فصفح عنهم سماحة الملك الكريم .. ورحمهم من ضربة الصولجان والخلود في الجحيم .. على شرط ..أن ينالوا عقابهم بأن يُحبسوا في الجُب المُظلم الكبير ..تحت الأرض خلف جبال «المِنغال».. وأن يظلوا فيه حتى نهاية هذا العالم بعد ثلاثة

عصور .. وأمر جنوده بإغلاق فتحة الجُب المظلم عليهم بالمعدن المصهور. وبهذا.. أراح العالم من عفاريت الشرور.

***

وعندما وصل يحوي لهذه العبارة الأخيرة.. بدت علامات الارتياح على خاڤرياجوس وهوجرافور وتسوتي. ولكن عندها تغيرت نظرات يحوي وصارت أكثر جدية.. فصوَّب نظره للأفق وأكمل:

– ولكن الأمر لم ينتهِ! إذ يُقال إن سبعة عفاريت آبقة خبيثة تمكنت من الهروب! ورفضوا الانصياع لعقوبة مولانا الملك «كـمتيـو الأكبـر»! ثم أهانوا كيميت وملوكها.. لعنوا الأنتار الأطهار، بل جدَّفوا على حضرة القدوس! رامين إياه بالتصرف غير الحكيم! ويُقال إن الشياطين السبعة يهيمون في الأرض وأعماق البحر منذ ذلك اليوم.. يرتادون الأماكن النجسة ..ويغوون ضِعاف النفوس، ويستعملون منهم خدمًا ومُعينين .. وقرروا ألَّا يعودوا للعلن ..إلا بعد أن ينسى البشر عالم الغيب ووجود الشياطين ..وقد خططوا للتحالف مع كل ما هو عاتٍ وكاذب وفاسد ..وستصير أغلى أمانيهم.. ضرب كيميت، والانتقام من حكمتها، ومجد ملوكها القُدامى ..بعد ما ذاقوا من أبنائها العظماء البأس والهوان!

***

وتوعدوا أن تعود الشياطين في آخر الزمان ..ليقيموا حربًا تمردية يقودها زعيم الزيف والبهتان ..فيقيمون عاصمة على تلة.. تحمل اسم سيد الشرور ..والحق أن هؤلاء السبعة.. قد غضب عليهم مولانا غضبًا عظيمًا! بل أقسم أن يُرسلهم بنفسه إلى البحيرة السوداء!

***

عندها قال هوجرافور ذو الوجه الأسمر المليح:

– أنا أعرف هذه الملحمة يا يحوي، إذ يرويها الحكماء في بلادي.. ويقولون إن واحدًا من العفاريت السبعة يعيش في أعماق البحار.. وآخر قد اتخذ مسكنه فوق جبل عالٍ في بلاد الثلج والرياح.. والثالث يسكن في شجرة خبيثة لا يُعرف مكانها.. والرابع قد استوطن الصحاري النجسة وهو «بعل الذباب» سيد الحشرات والهوام.. ويُقال إنه محبوس مُكبَّلًا قرب صحاري «خاسوط» المقفرة من زمن ما قبل المعركة.. أما الثلاثة الباقون.. فيُروى أنهم يطوفون في الأرض سرًّا ويأتون بالشرور.. وأنهم يخفون وجوههم بالأقنعة!

فقال خاثرياجوس بعجب شديد:

– أخبرني يا يحوي حبًّا في الخالق البديع! ما علاقة قصة العفاريت السبعة بالهدف من رحلتنا؟

فقال يحوي بكل جدية:

– لقد سُرق كنز من كنوز كيميت في الماضي البعيد.. على يد أتباع أعبوفي سيد الشرور.. واختفى فلم نجد له أثرًا، ثم وصل إلى مسامعنا أخيرًا ظهور واحد من أعوانه الملاعين.. أحد العفاريت السبعة في بحر ڤاتشور الأزرق، وأنه ينوي استخدام الكنز المسروق في شر كبير! يهدد بنسف هذا العالم البديع الذي نعرفه.. وإقامة نظام خبيث من الزيف والطغيان!

شعر خاڤرياجوس بالفضول فصاح:

– رحماك يا رب الأكوان! وما هذا الكنز يا يحوي؟

فنَظر إليه يحوي وهو يشعر بثقل المهمة على كتفيه وقال:

– إنه جسم من الفخار.. على هيئة إناء مُزخرف بالألوان.. سرقه أعبوفي اللعين وخبَّأه هو وخُدَّامُه من زمن المعركة.. إننا نبحث يا رفاقي عن إناء إيمحوتيپ السحري! الذي يحمل بلسمًا يعالج كل الأمراض!

التفتَ تسوتي منتبهًا فجأة ما إن سمع اسم جده البعيد!

أكمل يحوي كلامه:

– وقد أمر جلالة الملك الكريم بالبحث عن هذا الإناء السحري منذ فترة لغاية شديدة الأهمية لم أعرفها.. وقد أرسل العديد من رجال كيميت

للبحث عنه، ولكن بلا جدوى.. حتى جاءتنا الأخبار بأن الإناء بحوزة أحد العفاريت الهائمين في غرب البحر الأزرق.. ومن الخطر الشديد يا رفاقي أن يقع هذا الإناء العجيب في يد أعداء الإنسان.. ذلك أن البلسم لا يُعالج الأمراض فحسب، ولكنه يُلبي أمورًا عديدة أُخرى حسب نية مستخدمه، ونخشى الآن أن يستعين العدو بغَرفَة من هذا الإناء في عمل مدمر خبيث..ذلك أن رُقية واحدة منه لها قدرة على البحار والأراضين.. وسلطان على السنن والقوانين!وقد أرسَلَنا جلالةُ الملك مُكلَّفين.. فنستعيد الكنز المنهوب..ولو اضطررنا أن نذهب لأطراف الكون مُبحِرين!

الفصل الثامن
ملكوت ما وراء الغرب!

وفي الصباح الباكر من ذلك اليوم في أرض كيميت.. جاء شاباركا والكاهن ورفاقهم الأحباش إلى قاعة العرش العظيمة.. في حضرة جلالة الملك «كـمتيـو الأكبـر».. توجَّه السفير بالشكر على الضيافة الكريمة، فقد حان ميعاد رحيلهم إلى بلادهم.. ولكن الكاهن تجرأ على التقدم ماثلًا أمام ملك ملوك الأرض! مُذكِّرًا جلالته بلُغز الصندوق السحري، والرسالة الخفية الموجودة داخله.. وهو يحسب أن مجد كيميت قد توقَّف أمام سحر الأدغال وطبول الجنوب.. وعندئذٍ.. حرَّك الملك العظيم رأسه الشريف بهدوء.. ونظر إلى الكاهن بعين الأزل وابتسامة الأبدية! فوقع قلب الكاهن بين رجليه.. وخشع بإجلال من بهاء الإطلالة!

وعندها.. حلَّ الفتى المبارك.. وانفتح مصراع الباب.. إذ وصل الأمير «مُحب».. وجاء ومعه الجواب! فقد أمضى الليلة ساهرًا في المكتبة الكبيرة

ورفوفها الخشبية، تحت ضوء المشاعل والقناديل المتدلية بهدوء، بين المجلدات العتيقة واللفائف، حيث متون الحكمة والمعارف، فصاح ابن الملك بصوتٍ طروب.. يتلألأ كأفق الغروب:

– ها قد جئناكم بالسحر المقلوب.. وأجبناكم بما في الصندوق من معنى:

«كما أن نهر «حابي» يصل بين القلوب.. فـروح المحبة هي ما يجمعنا».

ذُهل الجميع من براعة الأمير ابن جلالة الملك! وقُدرته على حل هذا اللغز العجيب! وأيقن الأحباش أن بلاد كيميت المقدسة لا تعجز عن شيء من الحكمة وفك الأسرار.

***

وبعيدًا في أقاصي العالَم.. أبحر يحوي ورفاقه نحو الغرب بحثًا عن العفريت المغبور.. كانت الأجواء باردة ورطبة بأمطار وقطع صغيرة قاسية من الثلج الأبيض، تلحَّف خاڤرياجوس بقطعة كبيرة من الصوف الغزير، كانت لحيته الكستنائية تتحرك بقوة مع الرياح، وارتدى هوجرافور رداءً ثقيلًا مصنوعًا من شعر الفهود الناعم الكثيف الذي أدفأ جسمه من رياح الصقيع، أما تسوتي فكان يلتفُّ في قطعة سميكة من فراء الدب، كان تسوتي يرتعش من البرد ويتطاير شعره المموج بقوة كبيرة للخلف، إلا أنه كان مستمتعًا للغاية بتلك الرحلة.. إذ استقر شيء في نفسه.. إذ كان تسوتي يتوق لتقديم عمل جليل.. أو مغامرة كبرى.. يُضاهي بها أعمال الأبطال الكثيرين

في الأسرة النبيلة التي ينحدر منها، فيكون جديرًا بمرافقتهم والانتساب إليهم.. وفي الأمام كان الرُبَّان يحوي يستند بقدمه اليمنى إلى خشب مقدمة السفينة المتأرجحة بين الأمواج، فيتَّكئ بذراعه اليُمنى على ركبته رافعًا وجهه الكريم للأمام، متدبرًا الأفق بثقة عظيمة تخترق الأبعاد، وكان يبدو حقًّا كواحد من ملوك الأساطير!

إذ كان يرتدي قميصًا مُطرزًا من الكتان الذهبي المشدود على جسده، وفوقه عباءة شتوية فاخرة من القطيف بلون كاردينالي كالياقوت، فتدفعها الرياح للخلف لترفرف متموجة ببطء كراية ثقيلة الوزن من نسيج وثير، وتلتفّ مقدمتها بأناقةٍ حول عنقه المنحوت لتغطي كتفيه القويتين وجزءًا من صدره، مع غطاء الرأس الكيميتي الرائع المعروف باسم «نِمِس» وهو مُزخرف بخطوط عريضة من ماء الذهب والأزرق الكُحلي، وقد بدت بالغة الروعة بتناسقها فوق ملامح جسده الكامل، وعقد الأزهار العريض حول عنقه الكريم وأساور القوة الذهبية على ساعديه، وعلى ساقيه واقٍ حربي مُزخرف من المعدن اللامع، وفي قدميه صندل من الجلد والفضة، فكان النظر إلى يحوي ممتعًا كمشاهدة تحفة رائعة من الفنون.

عندئذٍ صارت أمامهم أجسام ضخمة في الأفق! وكأنها أوتاد خرافية تخرج بين البحر.. لتثبت العالم وترفع السماء! نظر الرفاق للأمام وهم لا يُصدقون ما تشهده أبصارهم! إذ كانت المرة الأولى لهم في الاطلاع على أعمدة العمالِيق الخرافية التي قيل إنها تحمل السماء! والتي روى عنها العجائز والحكماء.

خفق قلب خاڤرياجوس بقوة! وصار يضحك بهستيرية بينما تصطك أسنانه من البرد! إذ كان يعلم أنه سيذهب حيث لم يذهب رجل من شعوب مايسينيا وأيونيا قط! فهو على وشك عبور أقصى حدود العالم المعروف! إلى مشارف عالم جديد.. وملكوت ما وراء الغرب!

حتى يحوي قد بَدَتْ عليه ابتسامة اندهاش وهو يشاهد هذه الأنصبة الخارقة! إذ تجلَّت أمامهم أعمدة العمالِيق كسلسلةٍ جبال شاهقة.. تشقُّ أمواجًا ضخمة كالقصور! فتصير الأمواج كالأقزام عند سفوحها! وتلك الجبال مُغطاة بطبقات من المروج وصخور حجرية اللون، وتكتسي بالثلج قُرب أعلاها، أما قِممها فلا تكاد تُرى! إذ إنها تصير فوق ركام السحاب المتراكب بكثافة.

دخلوا في بحر الظلمات الكبير.. الذي يسميه أهل كيميت محيط «الموج العظيم». مرت بهم أسابيع عديدة، وهبَّت على السفينة رياح قارصة البرودة، وصنعت صوت قعقعة شديدًا يحجب الصياح، فاحتموا بعباءاتهم الفِرائية الثقيلة من ندفات الثلج الغزيرة ورطوبة الأمواج المتلاطمة التي لا تتوقف عن ضرب سطح المركب بقوة.. ثم هبطت سيولٌ مطيرة، كانت المياه باردة وخطيرة.. بأمواج ضخمة كالتلال.. وبعد أن قطعوا أيامًا كثيرة في المحيط..

وجدوا أخيرًا العفريت المقيت! كأنه مصنوع من نارٍ حارقة.. يرتدي قناعًا من معدن على روحٍ مارقة، إذ هبط عليهم كشبحٍ مُظلم! وصارع خاڤرياجوس وهوجرافورٍ بعنف! حتى أنه قد طرح خاڤرياجوس بقوةٍ

غاشمة ودفعه نحو جدار سور السفينة.. فاصطدم جسد خاڤرياجوس بالإطار الخشبي! وأصابه ذلك بألم شديد في فقراته! ثم هُرع العفريت قافزًا بجنون.. وحاول منهم الهروب.. إلى ثنايا الغروب.. ولكن فوجئ بذراع قوية للغاية تقبض عليه بإحكام وهو يلوذ بالفرار! لقد أمسكه يحوي المغامر! وألقاه بقوة شديدة نحو صارية السفينة الضخمة! فاصطدم بها اللعين كأنما تحطمت عظامه المسمومة بين فصوص أخشابها العتيدة، وقبل أن يدرك ما حدث.. وجد العفريت نفسه أمام يحوي ذي القوة والعنفوان! وأدرك أن عنقه مقبوض في يد يحوي اليُسرى كوحش بغيض.. وأن يديه الآثمتين قد أصبحتا مكبلتين في التو إلى الصارية بسلسلةٍ من حديد.. كان يحوي غاضبًا للغاية بسبب الضربة التي وجَّهها العفريت الدنس لصديقه خاڤرياجوس، فرفع يُمناه وأراد أن يهوي بها محطمًا رأس الشيطان الملعون بقبضات من حديد.. بدا على العفريت الفزع الشديد حتى من وراء قناعه البشع.. إذ وجد نفسه أمام قوة مغامر كيميت الأصيل.. ولكن يحوي ابن بساتين أخمين كان لديه مبدأ نبيل.. فكان لا يضرب أبدًا شخصًا مُقيَّدًا بالكبول.. ولا يبطش تنفيثًا عن غضب، فهو يقاتل فقط بشرف ولأهداف رفيعة، ولا يستخدم قوته التي هي هبة وأمانة من الخالق إلا لخدمة الحق وتحقيق العدالة.. عندها صدر من العفريت صوت حفيف غريب!

أخذ الصوت في التصاعد وتحوَّل إلى ضحك خبيث بصوت مُفزع غريب يشبه خوار البقرة!

التقط الشيطان أنفاسه الكريهة وقال:

– اضربني كما شئت يا مُغامر أخمين.. ولكن سأقطع لساني ولا أخبركم عن مكان ما تبحثون.. وقريبًا سيحزن قلب السيد الخارق في أرض البساتين والأنهار.. إذ تحل الفاجعة.. قبل أن يجد ما يريد.

كان خاڤرياجوس وهوجرافور وتسوتي يشاهدون في ذهول! ويحاولون تفسير معنى كلمات العفريت النجس الذي كان يتدلى من عنقه في قبضة يحوي الغاضب!

***

قيَّد يحوي العفريت بالحبال على سطح السفينة.. ووقف عند مقدمة السفينة يفكِّر في كيفية استخلاص المعلومات من العفريت عن موقع كنز كيميت المسروق وهو «إناء إيمحوتيپ» السحري، أما هوجرافور فتربَّع الأرض في تواضُع في أحد الأركان، وأغمض عينيه وأخذ يعزف ألحانًا جميلة على مزماره الصغير متعدد الأنابيب.

بدأ الغروب في الدخول، وصارت السماء كلون البنفسج الأدكن مع ضوء ذهبي بين سحب الأفق.. وبدأ القمر البدر في تسلُّق قبة السماء رهيبة الاتساع، كان العفريت المُقيَّد مُغمضًا عينيه بشكل مخيف في حالة أشبه بالسُّبات.. وبدا أنه لن يعترف أبدًا بمكان الكنز المنهوب.

***

عندها سحب خاڤرياجوس تسوتي من يده، وأدخله إلى مكتبة السفينة، واقترح عليه أن يبحثا عن طريقة لاستشراف المعلومات من عقل العفريت.. وفي القمرة الخشبية كانت المصابيح الزيتية تتأرجح فوقهما مع الأمواج.. وكانت السماء الكحلية الواسعة تُشكل لوحة ذات سُحُب تستقر وراء النوافذ الزجاجية.. أخذ تسوتي صاحب الشعر المموج وخاڤرياجوس ذو اللحية المُزيَّنة بالشرائط في البحث بين فهارس الكتب، كان خاڤرياجوس يُقلب الصفحات باستعجال وحماسة بحثًا عن طريقة ملائمة لقراءة أفكار العفريت.. ثم صاح فجأة ببهجة:

– ها هي إحدى الطرق لقراءة الأفكار.. استخدام مشروب مُحضَّر من دموع التمساح وبخور خشب البعثران الشرقي!

فقال له تسوتي:

– كيف يمكننا أن نجد هذه المكونات الآن يا خاڤرياجوس؟!

فانطفأت حماسة البحار الأيوني وقال:

– معك حق.. فلنبحث عن طريقة أخرى.

ولم يلبث خاڤرياجوس يقلب رقائق الكتب سريعًا، ثم يتناول كتابًا آخر (ويفرُّ) صفحاته على عجل واهتمام بالغ، ويمرر أصبعه تحت كل سطر يقرؤه، فكان يدُقق بصره في المخطوطات القديمة وهو يهمهم بما يقرأ.. ثم رفع صوت الهمهمة بوضوح وهو سعيد كمن وجد جائزة:

– ومن المعروف أن أنتار السماء الثانية لديهم القدرة على كشف أسرار العقول ومعرفة بواطنها.

قال ذلك وهو يرفع بصره تجاه تسوتي ليعرف رأيه! ولكن تسوتي الذي كان يمسك بكتاب آخر في يده رد عليه:

– خاڤرياجوس العزيز.. أنا واثق أن أحدًا منا على هذه السفينة ليس من أنتار السماء الثانية.. علينا أن نجد طريقة عملية وسهلة.

تدَّبر خاڤرياجوس الموقف وأدرك سريعًا أنه يقترح طُرقًا أبعد ما تكون عن التطبيق. أغلق تسوتي الكتاب الذي كان في يده وتناول كتابًا آخر بعنوان «الحدس والبصيرة وحكايات الأجداد»، وأخذ يبحث عن طريقة مناسبة لمعرفة ما في نفس العفريت البغيض، وبينما يحاول التركيز انقطع تفكيره بصوت البحار الأيوني خاڤرياجوس وهو يقرأ بسرعة سطرًا من أحد المجلدات بصوت آخذ في الارتفاع: « وجدتها! وجدتها! من الممكن أن ينشأ عن اللحظات الحميمة ترابط فكري بين العشيقين.. وهو ما ينتج عنه تواصل ذهني عميق قد يدوم لعدة لحظات تتبادل فيه الذكريات والمشاعر، وغالبًا ما يحدث ذلك عند العِناق بين الحبيبين، فيمتزجان كروح واحدة و..»

وبينما يكمل خاڤرياجوس الكلمات رفع بصره نحو تسوتي.. فوجده ينظر إليه بوجهٍ جادٍّ لا يحمل أي تعبيرات، عندها توقف خاڤرياجوس عن الكلام وهو يستشعر الحرج.. ثم حرَّك بصره نحو الشيطان المقيد ذي الهيئة الكريهة وهو يتدبَّر ما قال للتو.. فأدرك أن جميع اقتراحاته هي أقرب للهذيان الطريف، فقال لزميله بابتسامة خفيفة ظهرت فيها أسنانه:

– آآآ.. حسنًا.. كنت فقط أريد أن أُخبرك أن هذه واحدة من الطرق المُستبعَدَة.. التالي...

هز تسوتي رأسه يمينًا ويسارًا وكتم الضحك بداخله أمام كلمات خاڤرياجوس العفوية، وما إن أعاد تسوتي بن راحوتيپ نظره إلى الكتاب الذي كان في يده.. حتى لمعت عيناه وهو يمررهما فوق أحد السطور! وقال لخاڤرياجوس:

- هذه حقًّا.. قد تكون هي أفضل فرصنا!

كان الكتاب الذي يطلع عليه تسوتي «الحدس والبصيرة وحكايات الأجداد» يذكر أن هناك أشخاصًا ذّوي قدرة خاصة.. أشخاصًا قد مُنحوا روحًا رقيقة طيبة جدًّا كطهارة الطفل، وأن لهؤلاء موهبة البصيرة وقراءة الأفكار والشعور بالمستقبل، وأن من علامتهم أن يكون لهم قبول وروح خفيفة، وأن يكون لهم وجه صبيح، وكلام قليل لا ينطق بسوء أو حزن.. وأن هذه الحالة أكثر شيوعًا عما يعتقد أغلب الناس.

وقد رأى تسوتي أن أقرب من تنطبق عليه هذه الصفات هو هوجرافور.. الذي كان يجلس وحيدًا عند سور السفينة، ويعزف على ناي صغير، وإن كان رأي تسوتي صحيحًا فقد يكون بإمكان هوجرافور أن يستشرف ما في نفس العفريت، فيعرف منه مكان الكنز المفقود.

ثم رفع تسوتي بصره نحو السماء وهو يبتسم، إذ إن الكتاب يذكر أن القدرة على قراءة الأفكار تتعزز في الأماكن المفتوحة وفي وجود القمر بدرًا.. وهو ما يصادف أنه حال تلك الليلة في وسط المحيط الهائل.

أُعجِب خاثرياجوس بفكرة تسوتي، وما إن عرض الرفيقان تلك الفكرة على الشاب النوبي الصالح حتى ترك زمارته وضحك ضحكة خفيفة وقال:

- حمدًا للخالق الذي ستر عيوبي، وأظهر لكم ما منحني من نِعَم، ولكن يا تسوتي العزيز ويا خاثرياجوس الغالي.. لا أحسب أنني أملك لا موهبة البصيرة ولا عطية الحدس، ولم يحدث قط أن قمت بقراءة أفكار أحد من قبل.

عندها تحرك خاثرياجوس وهو يصوب نظره نحو هوجرافور وقال بحماسة:

- ولكن بإمكانك أن تجرب.. لن تخسر شيئًا! ربما أنت لا تُدرك أنك تملك موهبة البصيرة واستشراف ما في النفوس..

فقال هوجرافور:

- لا لا يا أصدقائي.. أنا واثق تمامًا من ذلك.

استمر خاثرياجوس في الإلحاح على هوجرافور.. وانضم إليهم يحوي مشغول الذهن.. عندها نظر الشاب الأسمر في وجه يحوي كأنه يحاول أن يعرف رأيه.. فوجد يحوي ينظر إليه وهو يرفع حاجبيه.. كأنه يريد أن يقول: (ما المانع أن نُجرِّب يا هوجرافور)!

ومع الإلحاح قرر الرفاق التجربة! اقترب هوجرافور من العفريت الذي بدا كأنه يتظاهر بالنوم! كانت له ملامح مخيفة شديدة القبح.. أغمض الشاب

الأسمر هوجرافور عينيه الطيبتين.. ووضع كف يده على رأس العفريت النجس.. ووقف الرفاق يشاهدون، هَزَّ خاڤرياجوس جسده متسائلًا بصوت هامس:

– هوجرافور؟ ماذا ترى؟ هل من شيء؟ هل ترى أي شيء يا صديقي؟

ظهر هوجرافور ممتعضًا من هذا التشتيت.. إذ كان يحاول التركيز.. ثم ثبت لبرهة.. ومعها توقفت أنفاس الرفاق من الشوق! ولكنه.. هز رأسه بالنفي.. حرَّك يحوي شفتيه جانبًا غير راضٍ؛ لأن المحاولة بدا كأنها لم تنجح.. أما خاڤرياجوس فقد تنهد باستياء.. عندها نظر تسوتي نحو الأرض في يأس.. ولكن.. حدث بعدها أمر غريب! إذ انتبه هوجرافور ورفع رأسه وكأنه يشاهد شيئًا بعينيه المغمضتين! عندها عاد الأمل عند الرفاق!

فتح هوجرافور شفتيه، وأخذ يتنهَّد سريعًا وهو ما يزال يغمض عينيه كما لو كان يرى رؤيا! شاهده الرفاق بحماسة شديدة، كان يحوي يتابع بعين قوية، وبدت على خاڤرياجوس ملامح السعادة! ولكن مع انشغالهم لم يلاحظوا.. أن العفريت المقيت قد رفع وجهه ببطء.. بعد أن حرَّر يده الآثمة من قيودها الفولاذية! عندها تكلم الخبيث بصوت شيطان ملعون: وقال شيئًا بلغة غير مفهومة.. كانت مخارجها أشبه باحتكاك الطباشير وتكسُّر الأسنان! وفي اللحظة نفسها قام من بين الكبول! وبمخالبه الحادة طعن هوجرافور المسكين في صدره!

تحرَّك يحوي بسرعة خارقة ليقبض على العفريت، ولكن اللعين قفز في الحال قفزة هائلة نحو طرف السفينة البعيد! واستعد لإلقاء نفسه في الماء! نظر إليه يحوي بعين غاضبة وهو يركض باتجاهه بقوة شديدة.. إذ كان العفريت ما يزال يعرف موضع الكنز، كما أن يحوي قد أراد أخذه ليُحاكَم.. عن جُرم قد تراكم .. عندها ضحك الشيطان.. وتوعده بكوارث عضال، وقحطٍ سنين طوال، بسحرٍ رماه في بركان الشمال.. ثم قفز اللعين سريعًا وغاصَ بعيدًا لأعماق البحرِ المظلم.. تحت الموج المتلاطم.

***

وصل يحوي في الحال إلى سور السفينة.. نظر للأعماق الدكناء، وقد أدرك أن الشيطان الخبيث قد أفلت من قبضتهم! أما تسوتي وخاثرياجوس فقد التفُّوا حول هوجرافور المُصاب وهو على الأرض ينزف! عاد يحوي سريعًا ليطمئن على هوجرافور المسكين.. كان الفتى الأسمر يأخذ شهيقه بصعوبة كالمصاب بالحُمى.. ولكنه تمالَكَ نفسه بصعوبة شديدة من الوجع، ونظر إلى يحوي وهو يقول بصوت متقطع:

– لقد رأيت ما في نفس البغيض يا يحوي.. لقد طاردته دابة الماء.. فوقع منه الإناء.. في غرب المياه السوداء.

***

حمل يحوي ورفاقه هوجرافور المسكين ليرتاح على سرير في إحدى الغرف الخشبية في باطن سفينتهم «يخت القمر»، أيقن يحوي أن تلك الكلمات قد تكون كافية لتمنحهم خيطًا يصلون عبره لكنزهم الضائع.. شرع يحوي

وتسوتي على الفور في الاطلاع على خرائط عتيقة للغاية كانت موجودة في قمرة السفينة.. ليحددوا موقع المياه السوداء، أما خاثرياجوس فقد ظَلَّ إلى جانب هوجرافور يحاول الاعتناء به وتضميد جرحه الخطير..

تغاضى يحوي عن العفريت الهارب.. وانصبَّ تفكيره هو والرفاق على تنفيذ المهمة الملكية واسترجاع الإناء الأسطوري.. وكذلك علاج هوجرافور الطيب الذي ضمَّدوا جرحه، وتبادلوا رعايته على سريره فوق السفينة.

***

مرت بهم ثلاث ليالٍ وهم يبحثون عن المياه السوداء حيث وقع الكنز الضائع.. تحت نجوم الشروق والشموس الغاربة.. في أفق لم يصل إليه إنسان منذ أزمان قديمة، بحثوا عن تلك المنطقة الغريبة التي تروي عنها الأساطير العتيقة.. وفي ظهيرة باردة مُلبَّدة بالغيوم.. وصلوا إلى الموقع المنشود! كانت منطقة سوداء عطنة مخيفة! تخرج من وسط الماء! كأنها ظل وحش كبير يتربص تحت الماء! راح الرفاق يفكرون في المشكلة العويصة.. وفي مكان الإناء.. قال تسوتي:

– أخبرنا هوجرافور أن الإناء وقع من اللعين في غرب هذه المنطقة..

قال يحوي:

– وفقًا لمعلوماتي فالإناء مصنوع من مادة فخارية تطفو على سطح الماء.. ولكن تُرى.. أين جرفته الأمواج؟

***

بدا أنه من المستحيل اكتشاف الاتجاه الذي جرفت به الأمواج الإناء المفقود.. عندها تقدَّم خاڤرياجوس أمامهم، وتحرَّك كأنه فنان يؤدي التحية للجمهور على المسرح وقال:

– اسمحوا لي يا رفاقي أن أُحل هذه المُشكلة!

نظر إليه يحوي وتسوتي بابتسامة ذهول! وأدركا أن حيلة عجيبة ستظهر من جعبة خاڤرياجوس! إذ اتضح أن البحار الأيوني بالغ المهارة في قراءة الأمواج ومعرفة اتجاهها.. وبإمكانه الاستدلال بدقة عجيبة على اتجاهات التيارات والأمواج عبر البحار الواسعة.. وقف خاڤرياجوس عند المقدمة.. وطلب من يحوي إدارة الدفة والاستدارة بالسفينة.. صارت شمس الأفق الصفراء أمام وجه خاڤرياجوس وثوبه الأيوني.. استمر يحوي وتسوتي في توجيه السفينة حيث يشير عليهم رفيقهم قارئ الأمواج.. كان الاتجاه يقودهم نحو أرض «إيمين».. أرض ساحل الألوان العجيبة!

وعند شروق اليوم الجديد.. لاحظ خاڤرياجوس بنظره الثاقب.. يابسة بعيدة تنكسر عليها الأمواج، وصار الرفاق عازمين على الرحيل نحو مجاهل بلاد الغرب السحرية!

عندها التفتوا إلى صوت خطوات وراءهم على سطح السفينة الخشبي.. فابتهجت أساريرهم.. فقد وجدوا هوجرافور منتصبًا على قدميه، وقد صعد إلى متن السفينة مستعينًا بعكاز، كان يمشي وبدا أنه يتماثل للشفاء، وكانت شمس الأفق الملوَّنة تنعكس على وجهه اللامع الطيب الصبيح.

***

وفي ذلك اليوم نفسه.. في بلاد كيميت ذات الأنهار والأساطير.. قد جاء الوقت لرحيل واحدة من ملائكة البديع.. فودعت هذا العالم كنغم بديع يتردد صداه في الآفاق.. وذابت في روح الكون.. راحلةً إلى معية الخالق العظيم.. فقد جاء ميعاد الملكة الفاضلة «ميريت آمون» صاحبة أجمل الوجوه وخمار الحرير.. سليلة آست وأوزير.. وعند المقابر جنوب مدينة الخلود.. رقدت في مثواها الأخير.

كانت مقابر أهل كيميت على روعة غير عادية، وهي تقع على الضفة الغربية من النهر الكبير، وتبدو كمدن خيالية مهجورة، وهي موجودة خارج أسوار المدائن، في أرض تملؤها الأزهار والعشب الأخضر وظِل الأشجار الهادئة، وبعض المقاعد المصقولة للزائرين، الأعمدة والرخام الأبيض وورق الأشجار المتطاير، جو لطيف وسكون دائم لا يخالطه إلا صوت الرياح، فتبدو كأنها مدينة تخلد فيها للأبد.. أرواح الأتقياء والورعين.

يا لروعة مقابر كيميت! وما أعظم النقوش التي تغطيها! وفي مواسم زيارة المقابر يجتمع فيها الناس فيقطنونها بأعداد غفيرة؛ ليتذكروا فضائل فقيدهم، فترفرف الملابس الزاهية التي يُهتها وقار المكان، في أجواء روحانية تريح النفوس، وهي تذكرنا بتلك الأساطير القديمة التي وُلدت على هذه الضفاف، وكأنها تُجسد لوحة من حدائق أوزير (الأبرار الراحلين) حيث جنة دار الآخرة.

كان شعب كيميت يكنّ احترامًا خاصًا للموت.. وكانوا يسمونه «الارتحال إلى مملكة النور».. بل إنهم كانوا يهتمون بتحضير توابيتهم حتى لو

كانوا ما يزالون في سن الشباب.. ذلك أنهم لم يعتبروا الموت نوعًا من الشرور على الإطلاق.. ولم يعتبروه نقيضًا للحياة أو نهايةً لها.. إذ إنهم قد آمنوا بخلود الروح.. فرأوا الموت ارتحالا طبيعيًّا للروح، وامتدادًا للحياة.. لمكان مُفرح بهيج يلتقون فيه بالأحباب الذين سبقوهم.. مكان جميل أقرب من حضرة الأب السماوي البديع وصحبة الملائكة الأنتار.. رحلة ارتقاء وصعود في رحلة الوجود الأزلي.

تجمَّع الكثيرون تخالجهم المشاعر العميقة.. تحفهم الرياح الخفيفة في المكان المفتوح..

فترفرف ثيابهم وهم يتذكرون آلاف آلاف الحكايات الخلابة.. التي شهدتها هذه البلاد في الماضي السحيق.. تشتاق نفوسهم إلى يوم لقاء البديع والأحباب عندما يأتي الميعاد.. ساد صمت حزين.. ووقف جلالة «كمتيو الأكبر» في سكون.. وجاء كبير الحكماء «راحوتيپ» والد تسوتي وسليل إيمحوتيپ، كان راحوتيپ كبير السن، ذا لحية قصيرة بيضاء، وعينين خضراوين تنظران بشموخ.. كان له أنف أنيق، وشعر ناصع مهندم قصير على جانبي رأسه.. ويرتدي رداءً من الكتان الناصع الذي يلتف على جسده الوقور.. فاقترَبَ من التابوت المُغطَّى بالورود داعيًا للراحلة:

– أبانا الخالق الذي لا تراه العيون.. يا رب العالمين.. أيها القدوس الأمين.. اقبل خادمتك ميريت آمون، وتغمدها برحمتك ورضوانك.. مُباركة أنتِ يا سليلة الأطهار.. يا ابنة «أوزير».. سيد النخل والأشجار، يا زوجة

ابن كيميت البار.. يا روح «آسِّت».. ست الجمال والفنون.. اخلدي في نعيم «يارو».. مع الأسلاف الذين مَرُّوا.. وبين النجوم استمرُّوا.. تباركتِ يا ميريت.. يا حبيبة آمون.

فرفع الكل يديه وابتهلوا بخشوع في صوت واحد مهيب:

-(آمـــون).

وهي الكلمة التي تعني: «الذي لا تراه العيون»، ويستخدمها أهل كيميت لوصف القدوس.

انتهى الدعاء والعزاء.. ورحل الكل في اشتياق إلى يوم اللقاء مع الغوالي الذي قد سبقوا إلى معية الخالق وبهجة رضوانه.. ولكن أحدًا لم يعرف سر ارتداء الملكة بارعة الجمال للخمار الحريري على الدوام، إذ إنهم لم يعلموا، أن جلالة الملكة «ميريت» قد أصيبت منذ فترة طويلة بمرض خطير! لم يعرف حكماء الطب له علاجًا. أصاب المرض الفتاة التي كانت أجمل ما خلق البديع.. حتى أن شعر رأسها قد تساقط! وهذا هو سر ارتدائها القلنسوة منذ سنين بعيدة.. وهذا هو السبب الذي من أجله سرق أعبوفي الإناء السحري.. ليطعن قلب كمتيو كمدًا على حبيبته.. التي لا سبيل لعلاجها بغير بلسم إيمحوتيب.. وفي سنواتها الأخيرة بدأ الاعتلال يصيبها بمظهر ذابل.. أدمع عينيها، وجرح إحساسها بعمق.. ولهذا صارت تغطي وجهها بخمار من حرير.. ولكن قلبها الرهيف كان يجد من يعانقه ويخفف عنه الآلام.. إذ إن عشق الملك «كـمتيـو الأكبـر» لها كان مخلصًا بلا حدود..

فطوال السنين.. لم يفكر لحظة في التخلي عنها أو استبدالها.. بل إنه لم يمر ليلة واحدة.. إلا وكان يحتوي كفَّها الرقية في يده الكريمة.. ويطيل عناقها حتى يذوبا معًا.. ولم يتوقف خفقان قلبه العظيم على جسدها الشريف.. حتى بعد أن اشتد مرضها.. وراح عنها جمالها! فظلَّ يعشق كل نفس يمر بين شفتيها.. حتى النهاية.. والخالق وحده هو من يعلم.. كيف حزنَ كمتيو العظيم على فِراقها.

***

وبعيدًا في أقصى غرب الأرض.. فيما وراء المحيط الهائل.. وصلت سفينة «يخت القمر» بيحوي ورفاقه عند الشروق.. لساحل كجنات النعيم! امتد الشاطئ أمامهم كأنه بلا نهاية، من رمال ناعمة فاتحة اللون، كانت الشمس في الأفق المفتوح تحيطها سحب ملونة بأحلى الأنوار.. كما تُحاط الأميرة بالوصيفات، فما أبهج صوت الأمواج النقية ذات اللون السماوي الصافي! وتحليق الطيور ذات الصبغات القوية العجيبة.. والزَّبَد الأبيض الذي يغطي كل موجة كالتاج الجميل.. وكان شجر النخيل ينمو على هذه التربة المالحة.. وكانت له أوراق كبيرة شديدة النضارة والاخضرار، وثمار كبيرة ذات فراء وفي لُبِّها عصير غني لذيذ كالحليب المُحلَّى بالسُكَّر!

وكان شعب هذه البلاد النقية ناعم الوجه كالأطفال.. ولهم بشرة برونزية برَّاقة وشعور سوداء طويلة.. يلف الرجال نسيجًا قصيرًا حول وسطهم، أما إناثهم فيزيدنَ عليه قميصًا خفيفًا يغطي النصف الأعلى من الجسم، اعتادوا

وضع الريش في شعورهم الخلابة، وبعضهم يطلي بشرته بأحلى الألوان، وكانت طبائعهم أشبه بالفتية وصغار السن، فكانوا يلعبون ويمرحون غير حاملين الهموم، ويعزف بعضهم بمزامير قصيرة كأنغام صفير العصفور، فهم أنقياء أطهار لا يعرفون الخيانة أو الشرور.. يفترشون الأرض الطاهرة في الصيف الرائع والربيع، وينامون على الفراء الوثير تحت أوراق الخريف بلون النبيذ، ويدخلون في سبات دافئ داخل خيامهم المزركشة في الشتاء.. عندما تنزل ندفات الثلج كعالم الأحلام!

إنهم قبائل الريش الملوَّن! ساكِنُو سواحل أرض «إيمين» العجيبة! التي تحكي عنها حكايات الأجداد الكيميتيين الذين قد زاروها في الماضي البعيد.. سادت بهجة عجيبة في نفوس يحوي وصحبته على شواطئ هذه الأرض الخلابة.

***

استضافهم أهل الساحل الكرام.. كان لبعضهم ثياب جميلة تنزلق من عند الكتف وتصل حتى الساقين، وتُربط عند الوسط بحزام من الألياف الناعمة، وبعضهم يضع الفراء على كتفيه ويُدخِّن الغليون، فينفثون سُحُب الدخان وهم يتأملون، ورسم آخرون الوشوم والنقوش على أجسادهم.

***

وبدا أن الرحلة في طريقها للاكتمال على خير ما يكون! فعندما سأل يحوي زعماء القبيلة عن الكنز المفقود.. أخبروه بأن إناءً عجيبًا قد وصل بالفعل لهذه

الأرض منذ أسابيع! وأنهم يحتفظون به في مكانٍ أمين في كهف فوق جبل.. وقد وثقوا بـ يحوي في الحال عندما أخبرهم بأن هذا الإناء ملكٌ لشعب كيميت الذي يسكن في وسط الأرض.. ولكن أمرًا لم يكن في الحسبان قد فاجأ يحوي والرفاق! إذ اشترط زعماء القبيلة شرطًا عجيبًا جدًّا.. مُقابل إحضار الإناء!

***

فقد أرادوا تحقيق نبوءة قديمة.. قصة عتيقة تُروى منذ زمن أجدادهم بأن زوارًا لهم ملابس عجيبة! يأتونهم من بلاد خلف العالم.. من بين شعب النور.. ويبقى من هؤلاء الزوار واحد من نسل عارفين نبلاء، ويعيش بين شعب إيمين! فيعلمهم من مجد المملكة الأسطورية وعلومها الفائقة وروائع فنونها.. وكان باديًا من الكلمات أن تسوتي هو المقصود بالنبوءة!

وما إن سمع خاڤرياجوس وهوجرافور المتكئ على عصاه ذلك حتى نظرا على بعضهما البعض في دهشة! أما يحوي فقد رد بحزم على زعماء ساحل الألوان.. وأكَّد أنه لن يُفرِّط في فرد من طاقمه دون إرادته.. وأنه لن يفرط كذلك في كنز كيميت تحت أي ظروف!

عندئذٍ وضَّح زعماء شعب ساحل الألوان بلطف أنهم يحترمون إعادة الكنز لشعب كيميت العظيم.. ولكنهم أصرُّوا على هذا الطلب العجيب! إذ يرغبون في تحقيق نبوءة أجدادهم.. ووعدوا يحوي أن الضيف الكيميتي سيعيش نبيلًا مكرَّمًا بينهم.

***

وما إن ابتعد الرفاق الأربعة للتشاور وحدهم.. حتى تضاعف الذهول! إذ تكلم تسوتي صاحب الروح الحرَّة مدليًا برأيه واختياره.. بأنه لا ينوي العودة معهم هذه المرة! وأنه يرغب في البقاء مع شعب ساحل الألوان مقابل أن يعيدوا الإناء لپحوي ليعود به إلى أرض كيميت! تعجَّب الرفاق معاتبين.. وحزنوا من طيشه المبين.. قال له پحوي:

– اسمع يا تسوتي.. لست مضطرًّا إلى التضحية بنفسك من أجل رجوع إناء أجدادك.

و صاح هوجرافور الأسمر بصوته اللطيف:

– سنجد حلًّا يا تسوتي، ستعود أنت والإناء معنا.

وصاح خاڤرياجوس:

– نعم.. سنحارب إن لزم الأمر.. وسنأخذ الإناء عنوة..

ولكن تسوتي قطع الشك قائلًا لأصدقائه وهو يبتسم:

– لا بأس يا رفاقي.. أنا القطعة الناقصة في هذه الأحجية.. وها هي مغامراتي الموعودة قد حان وقتها.

وحقًّا إن تسوتي كان صادقًا في رغبته بالبقاء.. فلطالما أراد أن يكون له تجربته الخاصة.. وأراد أن ينغمس لسنوات لا تنتهي في جنة بلاد الريش الملون، ويرى من أعاجيبها ويترك بصمته بين شعبها نقي القلب.

***

أخبر يحوي زعماء ساحل الألوان أنه سيفكر ورِفاقه في الأمر.. وسيعطيهم جوابه النهائي في الصباح.. وحقًّا إن الوقت يمر في تلك البلاد العجيبة كالأحلام.. كأنها تقبع في غسق دائم لا يُعرف له شروق من غروب.. وأشعة أفق تملأ سواحلها اللطيفة في كل حين.

وفي خيمة وثيرة أعدتها القبيلة الكريمة.. ارتاح الرفاق الأربعة على فرش رائعة من الفرو والأوراق العريضة الدافئة، مرت الإضاءة من نافذة الخيمة كغروب بنفسجي.. وبدت البلاد جميلة كفردوس طهور تملؤه أصوات الطيور والببغاوات الملونة التي تصدح بالألحان فوق الأشجار الكثيفة ذات النصال الخضراء.. نظر الرفاق إلى بعضهم البعض في حيرة داخل الخيمة البديعة.. تأمل خاڤرياجوس وهو يهزُّ رأسه بحزن وقال:

– تسوتي.. لا أصدق أننا سنتركك في بلاد ما وراء الغرب! لا أصدق أن تكون هذه آخر ليلة نرى وجهك.. ونسمع فيها صوتك!

وطلب هوجرافور من تسوتي أن يعيد التفكير في قراره.. ولكن تسوتي كان ساكنًا ولا يُظهر أي أمل لتغيير اختياره الغريب. أما يحوي فكان كمن يحمل جبلًا على عاتقه.. ولا يعرف إن كان يجوز له أن يُجبر تسوتي على العودة معهم، هل من الملائم أن يحارب أهل إيمين الطيبين؟ فيسترجع كنز كيميت المفقود رغمًا عنهم.. فأخذ يفكر طوال الليل مع صياح الببغاوات الزاهية والطيور العجيبة.. كيف يتصرف بحكمة.. كقبطان يمسك خيوط اللعبة كلها، فينفذ المهمة التي عهد بها إليه جلالة الملك القدير حافظ هارمونية

مملكة البساتين والأنهار؟ وفي الوقت نفسه كان على يحوي أن يضمن سلامة طاقمه.. فيحمي سلامتهم دون إجبار أو تفريط.. وكان عليه في ذلك ألا يستخدم طريقًا عنيفًا أو غادرًا مع شعب مسالم لم يجدوا منه إلا كل ترحاب.

***

ولكن ما لم يعرفه الرفاق في تلك اللحظات.. هو أن هوجرافور كان يتحامل على نفسه، وأن تحت ضمادته.. كان الجرح يزداد سوءًا ويقطع قلبه من الألم الشديد!

***

ومع طلوعٍ بداية النهار استيقظ خاڤرياجوس وهوجرافور.. فوجدا يحوي مستيقظًا منذ وقت مبكر و يجلس مع زعماء ساحل الألوان.. وكان تسوتي يجلس مع أهل الساحل لطيفي الأخلاق ويعلمهم عن الكائنات والبحر والنجوم عندها عاد يحوي وعليه نظرة صارمة تخفي وراءها شفقة عظيمة.. ونادى تسوتي، وحرص على أخذه بعيدًا عن المسامع، عندها اقترب هوجرافور وخاڤرياجوس منهما مسرعين.. نظر يحوي في عيني تسوتي وقال:

– اسمعوا يا رفاقي.. أنتم أغلى عندي من أي كنوز.. إن لزم الأمر فسأبقى أنا.. يُضحِّي الربان بنفسه ولا يخون أمانة أصدقائه.. حقًّا يا تسوتي أنِي أُفضِّل أن أظل منفيًّا في يمين الارض على أن أترك أحد أفراد طاقمي.. وأَحَبُّ إلى نفسي أن أُحارب حتى الموت مدافعًا عنكم.. على أن أترك واحدًا منكم بين الأغراب.

ولكن تسوتي ردَّ عليه:

– قبطاننا پحوي.. أيها العزيز الغالي.. إني قد اتخذت قراري.. إنها مشيئتي أن أبقى في هذه البلاد! سأعيش هاتفًا بحكمة كيميت بين جبال الغرب.. وناشرًا لمشاعل نورها الخلاب ليملأ آفاق السماء الزرقاء في يمين الأرض!

لم يتمكن خاڤرياجوس من تمالُك نفسه وصاح بعاطفة:

– أخشى أن تندم يا صديقي!

وقال هوجرافور:

– قد لا ترى بلادك ثانية.. ولا أي شخص تعرفه.

هز تسوتي رأسه وقال:

– أدرك ذلك يا أصحاب.. وأنا أرضى به.

عندها اقترب منه پحوي وقال:

– هل أنت متأكد يا تسوتي من أن هذا ما تريد؟

ولكن تسوتي كان قد اتخذ القرار أمام البحر العريض.. فأكد تسوتي رغبته.. فتنهَّد پحوي بإشفاق.. وقد أدرك أنه لا سبيل لتغيير رغبة تسوتي في عيش مغامرته في بلاد ما وراء الغرب.

اتفق الجانبان على بقاء تسوتي ليُعلِّم أهل ساحل الألوان من فنون كيميت ومعارفها.. وبينما انتظر خاڤرياجوس وتسوتي وهوجرافور مع السكان

الأصليين عند الشاطئ.. قادت مجموعة من زعماء شعب الألوان يحوي إلى مكان الإناء السحري حسب الاتفاق.. فمروا معًا فوق جبل شاهق ووصلوا لكهف حجري يطل على المحيط من ارتفاع شاهق في مشهد رهيب! وبين جدران الكهف المغطاة بالطحالب كانوا يحتفظون بإناء إيمحوتيب السحري فوق فُرُش لطيفة مصنوعة من النباتات.. ثم قدَّموا الإناء باحترام إلى يحوي حسب الاتفاق.. ولكن في ذلك الوقت على الرمال التي مسحتها الأمواج الهادئة.. سقط هوجرافور مغشيًّا عليه من المرض.. فقد كانت سموم مخالب العفريت قد استشرت في جسده.. هُرع الرفاق ومعهم بعض سكان أرض إيمين نحو هوجرافور.. نظر إليه خاڤرياجوس في خوف شديد وكأنه يريد أن يبكي.. فقد أدرك أن هوجرافور كان يلتقط أنفاسه الأخيرة! أما تسوتي فقد بدت على نظرته القلق على رفيقهم.. وخشي عليه من الرحيل مسمومًا بمخالب العفريت اللعين، وسرعان ما رفعوا الضمادة..فتأكدوا أن الجرح قد استشرى خطره! بدأ بعض سكان إيمين يتلون الصلوات والدعاء لضيفهم الذي أوشك على الرحيل.. وفي تلك اللحظة.. توقف هوجرافور عن التنفس.. ورأسه بين كفي البحار الأيوني خاڤرياجوس! هز خاڤرياجوس رأسه بعينين مغرورقتين بالدموع وهو لا يكاد يُصدِّق، وأخذ يتأمل وجه هوجرافور بحثًا عن أي إشارة حياة!

***

عندها تفاجأ خافريجوس بشخص يقترب منهم ويمسك برأس هوجرافور.. إنه يحوي.. قد نزل للتو من الجبل، وفي يده الإناء، ومعه زعماء

إيمين، وفي لحظة سحرية مرت في التو فتح يحوي الإناء المقدس، فظهر في داخله بلسم أبيض ناصع كعجين اللبن المتخمر، فأخذ منه يحوي مسحة على يده ومسح بها الجرح المتعفن على صدر هوجرافور! مرَّت اللحظات سريعًا.. وتوقفت معها الأنفاس.. تفاجأ خاثرياجوس أن الدموع كانت تسري على لحيته المُزيَّنة بالشرائط.. فمسحها بيده ونظر فيها متعجبًا! وجال بفؤاده.. أن هذه حقًّا هي الصداقة الحقيقية ونعم الرفقة الصالحة.. في الحياة.. كما هي في الممات.. وعندما رفع رأسه ثانية.. وجد جسد هوجرافور يتحرك ببطء! وكأنه يتنفس، وأخذ الجرح يلتئم على نحو سحري وكأنه لم يكن!

نظر يحوي بابتسامة رضا على رفيقه، ثم صوب نظراته بامتنان نحو الإناء الأسطوري الذي كان يحمله في يده، لقد بَرِئَ الشاب النوبي ذو القلب الطيب من السُّم الخبيث، لقد كانت تلك واحدة من النعم والبركات التي يحملها إناء إيمحوتيپ السحري!

شعر الكل بالارتياح وضموا هوجرافور إليهم.. عندما فتح عينيه المرهقتين.. وقد صار سليمًا معافًى وهو مستلقٍ فوق الرمال الدقيقة المبللة بين الجمع السعيد.

بعدها اقترب يحوي من تسوتي ونظرا بابتسامة إلى بعضهما البعض، كأن يحوي يريد أن يقول: «عِدني أن تكون بخير دومًا يا صديقي».. فهز تسوتي رأسه وهو يأخذ شهيقًا منعشًا.. وعلى وجهه ابتسامة حماسة.. كان تسوتي حقًا متشوقًا لمغامرته الجديدة على أرض ما وراء الغرب الأسطورية، لكي

يُصبح جديرًا بوجود اسمه مع عظماء عائلة إيمحوتيپ التي تعجُّ بالمشاهير والحكماء والأبطال.

عندها تعانق پحوي ورفيقه تسوتي في محبة جارفة، تنهد المغامر پحوي ووضع كفيه على كتفي تسوتي، أغمض عينيه متأملًا.. ثم فتحهما ونظر بعينين عميقتين لتسوتي هاتفًا بصوت قوي:

- تسوتي بن راحوتيپ.. سليل إيمحوتيپ الجليل.. أنا پحوي بن خونانوپ.. بحكم القوة المفوضة إلى من جلالة الملك العظيم «كمتيو الأكبر».. أعلنك سفيرًا في بلاد إيمين وساحل ما وراء الغرب! وداعًا يا ابن الحكماء..

ورد عليه تسوتي بابتسامة بشوش بدت فيها أسنانه الناصعة:

- وداعًا يا بطل كيميت الشجاع.

***

صعد پحوي وخاڤرياجوس على متن السفينة عبر الدرج، وهما يسندان هوجرافور المُرهق، كان خاڤرياجوس يلتفت للخلف مصوبًا نظره نحو تسوتي في حيرة لم تَزُل.. رفع پحوي الشراع في الحال بقوة ونشاط.. كان الرفيق الأيوني.. ما يزال في حالة اندهاش! إذ كيف يسمح پحوي لتسوتي بالبقاء في هذه البلاد البعيدة؟

وقف خاڤرياجوس على متن السفينة ونظر إلى تسوتي الذي كان يشير إليهم مودعًا مع أهل ساحل الألوان الطيبين.. كان خاڤرياجوس ما يزال

لا يصدق أنه يعودون دون تسوتي.. فصاح خاڤرياجوس في مغامر كيميت بنبرة تملؤها المشاعر:

– پحوي.. ماذا ستقول يا پحوي للسيد راحوتيپ؟ كيف ستخبره انك قد تركت ابنه اليافع في أقصى بلاد الغرب؟

فنظر إليه پحوي وهو يفك حبال المركب الكبير استعدادًا للرحيل وقال:

– سأتحمل مسئوليتي الكاملة يا عزيزي خاڤرياجوس، كان لتسوتي حرية الاختيار، وعسى أن يجعل الخالق في ذلك حكمة عظيمة لا نعلمها.

ثم نظر پحوي للأفق حيث تلمع شمس الشروق، وأمسك بمجدافين كبيرين متنهدًا، كانت مياه الشاطئ الهادئة مصبوغة بألوان الشمس، كمزيج رائع من الوردي العميق والبرتقالي والأصفر.. كان المجدافان ثقيلين وبالغي الطول والضخامة! ولكن پحوي دفعهما بعظمة وبراعة.. فتحرك طرف المجدافين على هيئة قوس كبيرة في البحر.. لتندفع السفينة الكبيرة عبر صفحة المياه الناعمة.

وبينما تحركت السفينة عبر البحر الهائل في رحلة العودة للديار.. أخرج خاڤرياجوس آلة القيثار الخاصة به، وأنشد الأشعار الحزينة، كان النسيم اللطيف يحرك شعره ولحيته، والشمس تملأ وجهه بأنوارها الوردية:

– ماذا نبلغ السيد راحوتيپ.. إن هو سألنا عن الابن الغائب؟ بِمَ نجيبه إن هو جاءنا معاتبًا؟ كيف بنا عندما نرجع لأرض البساتين والورود؟ فنُسأل عن عزيزٍ لا يعود.. سيحزن الكل.. ويُعزف الناي الحزين والعود.

وعندها همس يحوي لرفيقيه خاڤرياجوس وهوجرافور مازحًا وهو يتأمل الأفق البعيد:

– أغلب الظن أن السيد راحوتيپ الحكيم سيلقي عليَّ أدواته الهندسية من الغضب.. وسيرجمني بالكتب ما إن يعرف الخبر!

***

ولكن في الوقت نفسه على مسافة آلاف الأميال.. في بلاد البساتين والأنهار.. كان كبير الحكماء راحوتيپ كان مشغولًا بأمر مختلف تمامًا! إذ إن الأيام المظلمة كانت في اقتراب! فقد جاء راحوتيپ إلى قاعة العروش في قصر الكبير.. وقد اكتنفه الأسى من رؤيا مُفزعة!

الفصل التاسع
نبوءات راحوتيپ!

دخل راحوتيپ القاعة، كان الملك كـمتيـو الأكبـر على عرشه في حال من الحزن الشديد بعد رحيل حبيبته، إلا أن شيئًا كان لا يُثني الملك عن القيام بدوره كأبٍ للشعب، يلجأ أبناؤه إليه فلا يجدون منه إلا كل ابتسامة تملؤهم بالثقة في رصانة ووقار، يمدُّ لهم ذراعه بالقوة ويحميهم من الأخطار.. وما إن لاحظ جلالته الفزع على وجه راحوتيپ.. حتى طَمْأَنَه بصوت هادئ عميق كجذور الجبال:

– اجلس يا راحوتيپ، أيها المُعَلِّم الحكيم، وحدِّثني فيما تشاء.

اتخذ راحوتيپ ذو اللحية البيضاء مجلسه.. والحزن بادٍ على عينيه الخضراوين.. ثم شَخَصَ مَلِيًّا، وقال بصوت جارف يملؤه الأسى:

– إني قد رأيت فيما يرى النائم ثلاث وقائع في قادم الزمان، وثلاثًا أخريات في آخِره، رياح نتنة تأتي من إحدى زوايا الـ «خابو»، تتبعها رمال لافحة لها طعم المرارة، من أسباط «الشاعسو» الثلاثة عشر، قد شَهدَت بصيرتي الدنس

الذي سيكون منهم في رؤياي، حتى أن رائحة رمالهم وأركاسها ما تزال تزكم أنفي!

فقال الملك كـمتيـو العظيم بصوت وقور:

- إذًا فاسرد رؤياك يا راحوتيپ..

بدأ راحوتيپ بحكاية ما رأى في المنام:

- فأما الثلاث التي في قادم الزمان .. فسبط من رعاة «الشاعسو» يخرجون من كنعان .. يأتون بسحر غريب .. يقلب الحق والباطل كمرض عجيب! يبلغ أركان الأرض.. ويدخل كل بيت .. عندئذٍ يسجد الكل.. أمام خيال الظل .. سيصبح نور العقل تجديفًا.. ويصير الإيمان.. في عبادة الأوثان.. وسيُعذَّب القابضون على الحق ويُرمون بالزندقة والكفر.. وفي تلك الأيام الحزينة تهجر روح الخالق هذه الأرض المقدسة.. وتخرج منها الأنتار وملائكة النور!

لم يتحرك الملك كـمتيـو العظيم في جلسته الواثقة على العرش، وقال:

- أكمل يا راحوتيپ..

فقال راحوتيپ:

- وأما الثانية .. فرمال لافحة تقذي العيون بالرمد.. تخرج من الفيافي الملتهبة .. كالجرب المصبوغ بالقيح والدماء.. ملفوفًا في رداء من شعر الذئاب.. يستبيح ثروات أرض كيميت المقدسة وسهول ليڤانتيا والنهرين

.. يستعبد أهل البلاد الحرة.. يضرب بالسياط ويقطع الطرفين! فيصير أهل كيميت مرضى أذلاء! لأوثان الغرباء راكعين .. يؤتون الجزية وهم صاغرون.. ليُعفِّروا وجُوهَهُم في صحاري السموم!

***

كان كـمتيـو الأكبـر منصتًا باهتمام، ويلقي نظرات ثاقبة صارمة.. وقد بدأت الطاقة تفور في جسده النوراني من الغضب!

أكمَلَ راحوتيپ في أسًى:

وأما الثالثة .. أن يُنسى مجد كيميت.. ولا يبقى منه إلا أطلال البنيان .. وأن يَلْعن أهل كيميت أجدادهم.. ويحسبون تراثهم.. كفر وأوثان، وأن يستبدل أهلها بحشرجة الرمال .. لسان الأسلاف وحسن البيان .. عندئذٍ تُدفن حكمتها في التراب .. ويصير اسم «كيميت».. في طيّ النسيان!

وعندما سمع كـمتيـو الأكبـر تلك الجملة الأخيرة غضب غضبًا شديدًا! حتى أنه قام من على عرشه وضرب بيمناه طاولة مصمتة ثقيلة! مصقولة من صخر الديورايت الأسود بالغ الصلابة! فشقَّها نصفين! بل إن اهتزازًا هائلًا قد دوَّى في المكان! وشعر به الناس خارج القصر في أنحاء إقليم «إنبو هيتش»! ثم قال الملك بنفاد صبر:

– أكمل يا راحوتيپ.. فإني أوشك أن أخرج بالجيوش أجمعين .. مُهلِكًا حفاة الصحاري وأبناء عمومتهم المشعوذين .. ولكِنَّا لسنا من الظالمين.. ولا نُعاقب قبل أن يأتي الأعداء بإفكٍ مبين.

فأكمل كبير الحكماء راحوتيپ:

أما عند شفير الدينونة ونهاية عالم البشر .. عندما تصل الخُطى للقمر .. علو «شاسو ياهوڤ» في الأجواء.. ويقودون العالَم بالأهواء .. فينشرون المظالم والبلايا.. ويفسدون الأمم في خفاء .. وفي مخابئهم كالأفاعي يضحكون بخبثٍ.. على صنيعتهم بباقي البشر .. إذ يجعلون شعوب الأرض تتسافد كالبهائم والحُمُر .. يومئذ يصدحون: (ألسنا خير البشر؟ ألسنا المُخلِّصين؟ يا من صِرتُم في التخبط والخطايا غارقين؟ آتونا طائعين.. فقد أصبحنا اليوم الوحيدين..القادرين على التفكير المُستَبِين).

***

ولا يمر وقت طويل.. حتى يجتمع أبناء العمومة في الجزيرة الصفراء أحفاد الشاعسو جميعًا.. بما قرأ القُرَّاء إذ لا فرق.. الباء أولًا.. أم الراء يتحد أسباط الشاعسو الأوباش .. وبعمل خبيث.. يعينون الأحباش .. فيمنعون ينبوع المحبة الكبير .. فيجف.. ويتوقف عن الجريان! فتصير كيميت مقفرة بلا روح ولا أمان، وعندئذٍ أيها الملك.. يحِلْ آخر الزمان!

فقام كـمتيـو الأكبـر بقوة من على كرسيه! وصاح بصوت قاهر عظيم يرتج له المكان :

– وأين رجال كيميت العِظام في تلك الأيام؟!

فرد راحوتيپ في أسًى:

– سيُجبر كل نغم طاهر على الصمت الحزين.. يومئذٍ يصير ابن كيميت دائخًا إلى حين.. اسمُه بالمَظالم مُقترَن .. لا يعرف معروفًا .. ولا يُنكر منكرًا!

فقال كـمتـيـو بصوت هادئ وقور:

– هل من خلاص؟ من فسادٍ لإخلاص؟

فرد عليه راحوتيپ:

– ليت في بصيرتي حسن المِراس.. ففي ذلك صارت رؤياي مشوشة بالضباب، إذ يتسلط غلاظ أفجاج على البدو الذئاب، فيعاقبونهم بما يستحقون من الذل والعذاب وتحل عليهم كوارث تشيب لها الرؤوس.. وتُطاح لها الرقاب.

***

وعندها يأتي أبناء كيميت الأبرار، ويستخرجون حكمتها من التراب، فيشهد الكون مجدها.. ويستيقظ مبتهجًا.. بنور «كيميت» ذات البهاء!

***

عاد راحوتيپ بعدها إلى منزله وهو يشعر بوجع في فؤاده، وترك الملك يُفكر في رؤياه العجيبة.. وفي حال البلاد والمصير الغريب الذي ينتظر مملكة الخلود. جلس راحوتيپ في ظلال ما بعد العصر بجانب بيته الخشبي أمام حقول القمح الممتدة.. كان الحكيم مهمومًا من الرؤيا الحزينة التي فطرت قلبه..

***

والحق أن راحوتيپ لم يسرد كل شيء! فقد رأى المزيد من الفواجع التي لم يتمكن من النطق بها! ومنها أنه رأى أحداثًا غريبة في عصر بعيد قادم.. خنازيرًا يضعون ملابس كالبشر، ولهم ملامح وجوه قبيلة شاسو ياهوف.. وتفوح عنهم أقذر الأبخرة، وكان هؤلاء يُعذِّبون أبناء كيميت الأطهار الآتين في قادم الزمان! فيفقؤون أعينهم الكريمة ببشاعة! ويتفننون في إهانتهم! ويدهسون أجسادهم الشريفة تحت معدنٍ خشنٍ ثقيل جدًّا! ويدفنون آخرين أحياءً تحت الرمال! وأن ذلك يكون في أرضٍ جبلية بين النخيل.. على أرض كيميت المباركة! عندها يخرج لهم من قلب البلاد أنجاسًا كاذبون يُشبهون الجيف، وعليهم حلمات مدببة كثيرة من معدن الرَّصاص وقصدير يلمع كالسراب.. فيتملقون الشاسو الملاعين ويؤمِّنونهم على تلك الشنائع!

وإذ يلتفت راحوتيپ في رؤياه.. يرتعد جسده فجأة من الفزع! إذ يُدرك مصدر خوف هائل.. يلوح في الأفق! وإذ نظر راحوتيپ وهو يرتجف داخل الرؤيا.. يرى شبحًا أدكن يملأ السماء كوحشٍ عظيم! كان الوحش ينظر إليهم ويرى أسرارهم.. والناس لا يدركونَ وجوده! فيضحك الوحش بصوتٍ مُفزِعٍ.. يُشبه قرقعة حميم بركان متفجِّر قائلًا: (قد اقترب الميعاد.. نزل عرش «الضاغوم» الجبار، الخوف والعذاب، الذبح للرقاب، وتشوي الأجساد النار)! وقد علم راحوتيپ أن تلك الأمور الحزينة تكون في نهاية الدورة الزمانية الكبيرة وانتهاء العصر الثالث واقتراب عودة سيد الفوضى

والبُهتان.

إلا أنها تشير أيضًا لعودة حورس الملك.. ابن كيميت البار وحارس الحق والجمال.. فيأتي بأمجاد تملأ السماء بالحماسة البهيجة.. وتنشر الأمل في قلوب البشر المكسورة.. فيُنازل ابن النور عدوَّه الشرير.. ويهزمه للأبد في ملاحم عظيمة.. ويُعيد ابتكار العالم ويُطهِّره بنورٍ جميل لتزدهر الحياة بروح القدوس البديع في أرجاء الكون.. بعدما امتلأ بالزيف والمظالم المُبكية.

***

وفي قلب بحر الڤاتشور وأمواجه الزرقاء الممتدة بدرجاتها الخلابة.. كان يحوي ورفيقاه يعزفون الناي والقيثار في رحلة العودة.. فتوقفت سفينة يخت القمر عند مرفأ كالابريا الجنوبي.. حيث سيركب خاڤرياجوس سفينة أخرى مرتحلة إلى جزر الأيون عائدًا إلى الوطن.. كان وداعًا حارًا لصُحبة اجتمعت في مغامرات جميلة وأخطار.. ثم شقَّت سفينة يخت القمر العباب متوجهة لميناء راكوتا الكبير.. فقال هوجرافور الشاب الأسمر ليحوي:

– ها نحن قد أنجزنا المهمة يا رفيقي الغالي.. غدًا سنكون في أرض كيميت ذات الجمالِ، ومنها سأعبر النهر الكبير جنوبًا نحو شلالات الأعالي.. إلى أحضان أسرتي حيث تنتظرني امرأتي وأطفالي.. وأنت يا يحوي؟ ماذا ستفعل بعد هذه المغامرة العظيمة؟

فتنهد يحوي مبتسمًا، فقال:

- تسألني يا هوجرافور عما أصنع بعد هذه الرحلة المجهدة.. سأعود إلى أرض البساتين، وأتنعَّم بمجدها الصافي، ثم أتخذ لنفسي زوجة هادئة، وأعيش حياة طيبة هانئة، أفلح الحدائق والحقول وأربي الحيوانات اللطيفة، وأبتهج كل صباح بشروق الشمس على ضفاف النهر الخالد.

فابتسم هوجرافور قائلًا:

- حُب المغامرات والرحلات يسري في روحك يا صديقي، وأنا واثق أن ما مررنا به معًا لم يكن مغامرتك الأخيرة، ولا قصتك الأخيرة مع البحر.

***

وبينما غط هوجرافور في نوم عميق على سفينة «يخت القمر» التي كانت تشق طريق العودة الحميدة إلى الديار، وقف يحوي وحيدًا في مقدمة المركب التي كان لها تصميم زهرة اللوتس.. إذ كان يتوق بقوة إلى العودة لأرض الأحباب، ومع شمس الشروق الشتوية التي تُلوِّن السحاب بنور وردي بين السحاب الأبيض وسماء الصباح الزرقاء، هبت عليه رياح باردة منعشة تحرك الأعلام والأشرعة، لم يكن العشق الغامر لكيميت هو الدافع الوحيد الذي يوقد في صدر يحوي الاشتياق للوصول، ذلك أن يحوي قد وهب قلبه لامرأة واحدة.. تسكن البلاد الأصيلة التي يذوب قلبه في محبتها، فقال كلمات يفيض منها الوجدان:

- خطفت قلبي العذراء وهي تخطو بين الحقول.. ترفرف الرياح شعرها

كبُشرى الوصول.. يوم لا أرى فيه وجهك.. يوم لا أحسبه من عُمري.. وإذا تلاقت عيني مصادفة بعيونك البتول.. يبتهج قلبي خفاقًا طوال الشهرِ.. وأرى الحياة فردوسًا ونزهةً في النهر.. فـ عيناكِ أحَبُّ إليَّ من الشمس والقمرِ.. حقًّا إن رؤية وجهها لمن المَسرَّات.. ولكني أغضُّ بصري عن المفاتنِ والزلات.. فلأني أحبها.. فلا أرتضي لها.. أن يمسها.. ولو بنظرة.. إلا زوجها.. فأدعو ربي أن تفرح عيني بعذراء الجمال.. وأن أذوق حلاوة ثغرها.. عندما تصبح امرأتي الحلال.

الفصل العاشر
حكمة كيميت عبر الأجيال

وفي عصر اليوم التالي.. وصلت سفينة يخت القمر عند ميناء راكوتا.. امتلأ يحوي وصديقه بفرحة العودة للوطن.. واستنشقا هواء الشاطئ المالح.. تحفُّهما صيحات طيور النورس البحري.. كانت المدينة العتيقة تبدو بهيَّة زاهية من بعيد.. بمعمارها الخلاب ومنارتها الأسطورية.. وعندما رَسَت السفينة عند المرفأ الكبير للمدينة.. شرع يحوي وهوجرافور يمشيان على أرضية المرفأ الخشبية.. وعندما رأى يحوي الأهل والأصحاب بين الطرقات والبساتين.. والأوراق الليمونية يُحركها النسيم.. وسمع صوت رقرقة المياه في الينابيع.. حتى امتلأ قلبه بالألفة.. وشعر كأنه قد استيقظ من حلم طويل جميل.. يُبشره بالاستيقاظ على حياة سعيدة بلا نهاية.. وما إن لمح أهل المدينة الساحلية الأبطال العائدين.. حتى استقبلوهم بالعِناق والفرحة وبالغ التقدير.

***

أثنى سماحة الملك كمتيو الأكبر على «يحوي» ورفاقه لإنجازهم المهمة.. وكافأهم بسخاء وكرم.. وقام كبير الحكماء «راحوتيپ» بمهمة

إعادة الإناء الخرافي ليتم حفظه في مكانه بأحد بيوت الحياة في أرض كيميت، والحق أن راحوتيب قد حزن كثيرًا على فراق ابنه تسوتي، ولم يخفف من آلامه إلا يقينه بأن ابنه يؤدي مهمة جليلة كسفير لبلاد كيميت ذات البهاء، وناشر لنورها الخلاب بين الأمم في الغرب البعيد.

رحَّب الجميع بـ «يحوي» بطل كيميت العائد..

وكانت البهجة تفيض على القلوب.. عندما التقى يحوي بمعلمه الجليل «ڤيردو» البستاني الحكيم.. وكانت صيحات الفرحة سائدة.. مع حركة الأعلام بأحلى الألوان.. ولكن يحوي كان يفكر في أمر آخر.. ذلك أنه قد أراد أن يمنح قلبه امرأة تستحقه.. كم من مسافات بين الأحباء، وقصص عشق ليس لها نصيب.. إذ شعر المغامر أنه قد تأخَّر، وأن حبيبته رونتيتي ذات العينين قد صارت زوجة في بيت رجل آخر. إلا أن الأمل لم ينقضِ، فقد أدرك أن بتول البساتين لم تتزوج بعد، وأنها تشاطره الحب العميق، امتلأ قلباهما بالفرح، وبعد أيام أُقيم الفرح، تزوج الحبيبان وسعدت القلوب، وصارت «رونتيتي سليلة ڤيردو پاتميس» امرأة للمغامر الأسطوري «يحوي ابن خونانوپ».

كان يوم الزفاف كعالم الأحلام، ابتهجت فيه الجموع ورفرفت الألوان، جاء الأحباب ورفاق الماضي وسادت الضحكات.. وسُمعت من بعيد أوتار سعيدة تأتي من مركب في الشمال.. فقد جاء خاڤرياجوس ومعه جوقة من رفاقه الأيونيين.. يعزفون ببهجة على الناي و أنغام الهارپ الساحرة..

وقد جاء هوجرافور ومعه أطفاله بين الحضور في ذلك اليوم الرائع الذي لا يُنسى.

كان «يحوي» في عباءته بين الجموع كأحد عظماء الأنتار، وإلى جانبه كانت «رونتيتي» في أجمل الثياب البيضاء، وامتلأ وجهها الملائكي بالابتسامة، كانت الزينة البراقة تتطاير حولهما في الأجواء، انهمرت دموع البهجة من عيني رونتيتي، كانت من الرقة بحيث كانت تخجل أن تنظر في عيني حبيبها.. بدت جبهتها ناصعة كالؤلؤ، وكانت شفتاها كثمرتين من التوت البري الرطب وتغطيهما طبقة لامعة فاتنة! وقالت بخجلها المعهود:

– سأكون عشيقتك يا سيدي.. أهب لك روحي .. أُدفئ لك فراشك، وفي حضني تبيت مرتاح البال.

لقد عبر المغامر كل البحار، ليستقر في بحر محبة عذراء البساتين، فنظر تحت أهدابها فرأى في عينيها الواسعتين مجد مدينة «راكوتا» اللامع، وأمواج البحر الأزرق، فقال لها بروحٍ قد حلَّقت في أعالي درجات الرضا:

– ستكونين لي الغالية.. يا أحلى ما رأت روحي من الكمال .. ما كنت لأتركك ثانية.. بعد أن تبادلنا القلوب لآلاف الأميال.

ثم خرج يحوي ورونتيتي.. في رحلة بحرية نحو بلاد رومنان، وهو ساحل خلاب في ليڤانتيا، حيث تقع أشجار الأرز والزعفران.. على الشاطئ الأبيض أمام البحر الأزرق البديع، وهو المكان الهادئ البهيج الذي التقى

فيه الحبيبان.. « آست» امرأة السحر والجمال بزوجها «أوزير» سيد الشجر والأزهار، بعد أن افترقا وبحثت عنه باكية في كل مكان.. فاجتمعا ثانية في قديم الزمان، فصارت معازف بهيجة.. وقصائد شِعرية وأغاني.

***

استمرت رحلة يحوي و رونتيتي لعدة مدن خلابة حول العالم، فقد زارا عدة بقاع في سواحل البحر الأزرق مثل جزر الأيون وبلاد شعوب الثور، وكانت رونتيتي بالغة السعادة بتلك السفريات الرائعة مع حبيبها، وخلال تلك الرحلة ترك يحوي شعر رأسه ينمو بشكل قصير مع سوالف عريضة خفيفة، وقد أكَّد ذلك مظهره الرجولي البديع، وخصوصًا مع لحيته الحليقة التي لا تلبث أن تنبت في اليوم نفسه! ونظرة الثقة الخرافية في عينيه المكحلتين.

وبين طرقات المدن استمتع الحبيبان بعجائب البلاد وطباع شعوبها، كان لرجال شعب «أيونيا» أجسام رياضية وشعور طويلة مموجة في غاية الروعة، مع لِحًى مربوطة بالشرائط وأكاليل على الرؤوس، وارتدوا قمصانًا من النسيج يغطي إحدى الكتفين ويصل حتى الركبة، مع زنار غاية في الجمال مُلتف حول الوسط، واعتادوا وضع عباءة أنيقة حول أعناقهم، وصنادلهم مصنوعة من الجلد، وهم يعشقون التفكير والفن والألعاب الرياضية، أما فتياتهم فشعورهنَّ مُزينة بالورود، وكنَّ يرتدين كساءً حريريًّا مربوطًا بعقدة رقيقة فوق كل كتف من أكتافهنَّ البرَّاقة، ويصل الرداء إلى سيقانهنَّ، وهو مضموم بشريط جميل حول خصورهن الرشيقة، إذ إن الفساتين الخاصة

بهنَّ كانت تُصمم أحيانًا بطرف طويلٍ ذي ثنيات، ويتم تعليقه بشكل أنيق على جانب شريط الوسط، وكانت بنات العائلات الغنية منهنَّ يتزيَّن بعقود من الحجر الكريم، وكان هؤلاء ينظرون للثنائي الكيميتي بانبهار جارف وإعجاب صادق!

فقد كان لپحوي ورونتيتي هيبة وقورة ومظهر الملك والملكة.. في أثناء تجوالهما في الشوارع الزاهية لتلك البلاد وبين أعمدتها البيضاء ذات الرونق، فبدا پحوي وكأنه نبيل بالغ الوجاهة بعباءته الفاخرة وذراعيه الرائعين وعينيه العسلية الكحيلة، وكذلك الخواتم ذات الفصوص الثمينة في كفه الكريم والأساور اللامعة في معصمه وصندله المصنوع من الفضة، أما رونتيتي فتألقت في فستانها الأبيض واللازوردي، وانعكست أنوار قوالب بلاط الطرقات البيضاء على ذراعيها الناصعتين كقشدة الحليب البرَّاقة وزينتها من الجواهر والزبرجد والحليّ وإكليل شعرها الذهبي، وقد بدت رموشها السوداء فتانة ساحرة مع المساحيق الخلابة التي زيَّنت عينيها الحوراوين، وحيثما سار الرفيقان كان أهل تلك المدن يقابلونهما بالتحية ويلقون عليهما أوراق الأزهار الكثيفة بلون البرقوق والياسمين والفيروز من سلال جميلة الصنع، ويتبادلون معهما الابتسامات البهيجة والتمنيات المُفعمة بالاحترام الشديد، إذ كانت سمات النُّبل الكيميتي تبدو جلية على پحوي وزوجته، كأنهما من أعظم الأمراء، وحقًّا إن الخالق الكريم قد وضع محبة أهل كيميت المُباركين وإجلالهم في قلوب باقي الشعوب.

***

ثم سافر الرفيقان يحوي ومحبوبته عبر سفينة ركاب جميلة تشق عباب البحر الأزرق، فتوجه العشيقان إلى الفسحة في إقليم إتروسكا حيث تعيش شعوب «أبناء الثور»، وهي تنقسم لعدة قبائل ومدن يُطل أغلبها على ساحل البحر الأزرق، مِنهُم مزارعون ومحاربون وتُجار، وكان أكبر ملوكهم هو «لاتينوس»، وقد استضاف يحوي وزوجته بترحاب في قصره المرمري في فرح شديد، حتى أنه يُقال إن الملك «لاتينوس» نزل من فوق عرشه وعانق ضيفه يحوي بحفاوة غامرة كأنه أخ جليل، ودعاه باسم (بطل أرض البساتين الأسطوري الذي تتغنى الروايات بمغامراته)، وأرض شعوب «أبناء الثور» طيبة مُعتدلة الأجواء، وهي تمتد عبر سهول «كالابريا» و«توسكانا» ومراعي «إتروسكا» الواسعة وتطل غربًا على سواحل بحر «تيري».

وفي أقصى شمالها توجد «الجبال البيضاء»، وهو مكان رائع خلاب تتساقط فيه الثلوج، إلى جانب بحيرة فيروزية باردة تحفُّها أشجار الصنوبر، وبيوت من أحجار ملونة ذات أبراج تشبه القصور صغيرة.. وإلى جانبها يمرح الأطفال فوق الثلج، وهناك ظهرت على شفتي رونتيتي الابتسامة فرحًا بجمال صُنع الخالق البديع، بينما ضمَّها يحوي بين ذراعيه برومانسية ودفء.. وتأملا معًا المشهد الخلاب.

ورجال تلك البلاد يحبون الصيد واللعب بالسيف والأقواس، ولهم لِحىً وشعور طويلة مبللة بالماء، وقمصان بديعة من الوبر والقطن المغزول، أما نبلاؤهم فيحلقون لحاهم وشعورهم قصيرة تميل للكستنائي أو الأصفر، ويرتدون عباءات بيضاء و قرمزية ذات وقار، وكان لفتيات إقليم إتروسكا

شعور مُضفَّرة طويلة شقراء أو بنية أو سوداء، وأزياؤهُنَّ على هيئة فساتين جميلة من قماش ناعم لا يغطي الذراعين، ويكاد يشف بياض بشرتهنَّ.. وملامح قوامهنَّ الغض المتناسق، وتكسوه طبقة حريرية أخرى على هيئة خمار منسدل نصف شفاف، يعلو قمة شعورهنَّ.. ثم يتموج هذا الرداء العلوي ملتفًّا حول جسد الفتاة منهنَّ حتى يصل إلى الأرض، وهو مُزود بأزرار من فضة، وكانت اللآلئ البيضاء زينة للمرأة في إقليم كالابريا، وقد تزَيَّن الأثرياء من أهل تلك البلاد بالزمرد الأخضر وأطواق من المعدن، وتعطر الرجال والنساء في تلك البلاد بعطور الزعفران وماء الورد.

ويُحكى أن الرفيقين يحوي ورونتيتي قد التقيا بعد سنوات في إحدى رحلاتهما الصديقَ القديم خاثرياجوس، وذلك في مدينة «پومپاي» التي تقع في إقليم إتروسكا، في منتصف الطريق بين كالابريا ولاتينيوم، إذ شاهداه من بعيد بين أسواق المدينة البديعة المليئة بالصخب، فجلسوا معًا فترة قيِّمة وجيزة، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي التقى فيها زميلا الماضي يحوي والبحار الأيوني، إذ يُقال إن خاثرياجوس لم يلبث كثيرًا حتى رحل أخيرًا إلى عالم النور.. بعد أن عاش حياة جميلة صاخبة زار فيها عديد المدن ذات الأعاجيب، ولكنه مات دون أن يتزوج قط.. ولم يجد قط حُبَّه الضائع.

***

عاد يحوي ورونتيتي إلى أرض كيميت ذات الينابيع والحدائق، واستمرت أيامهما الجميلة، وكانا يقضيان كثيرًا من الصيف في مدينة راكوتا الساحلية

في منزل من الخشب المصقول والرخام الناعم والأعمدة البيضاء، تحيط به أغصان الياسمين، ويطل من مكان عالٍ على البحر الأزرق الكبير، وفي أخمين الدافئة قضى الحبيبان غالب الشتاء، حيث كان لهما مسكن بديع بين النخيل والبساتين على ضفة النهر الكبير.

***

وفي يوم خريفي مطير بهيج في شمال كيميت.. مع رائحة العشب والأغصان المُبللة بالمطر.. تطايرت أوراق الأشجار الرطبة، وكان لها ألوان العناب وقشر البرتقال والتوت.. وأشبعت المياه أشجار الماهوجني ذا الخشب القرمزي الأدكن المائل للبني الوقور.. وفاح في الأجواء عبير يسلب الألباب ويُلقي الأرواح في عالم من الأحلام.. ومر النسيم الجميل بين أعمدة منزل يحوي ورونتيتي ذي الأعمدة البيضاء والأرضية الخشبية، المُطل على ساحل البحر الأزرق، وكأن الهواء المعطَّر بالياسمين يزُف إليهم الخبر المُفرح.. وتتوِّجها أشعة جميلة بين سُحُب السماء.

إذ رُزق يحوي ورونتيتي بطفلة بديعة.. أنثى واسعة العينين ذات رموش طويلة سوداء كجناحي الفراشة، ولها فم صغير رقيق، وكان لها صوت حريري أحلى من المعازف والطيور، إذا سمع إنسان حزين صوتها.. امتلأ فرحًا وأملًا! وكل من يسمع غناءها يجد نفسه مُحبًّا للجمال والنور! كان اسم الطفلة «ماريستوتا» وكان معنى اسمها هو «شعاع العِشق»، وكان من ألقابها

كذلك «فتاة المطر» و«بنت الخريف»، وقيل إن ڤيردو قد تنبأ لها بأنها ستكون أميرة! وأنها ستعبر للعالم الأزلي دون أن ترتدي الأكفان!

وعندما صارت ماريستوتا فتاة شابة، كانت ذات وجه بالغ الحُسن، ذات بشرة ملساء معتدلة اللون، وعينين بُنيتين، أما شعرها فكستنائي أدكن.. طويل كالأمواج الغزيرة، ما أطيب النظر إليها وهي تسير بفستانها المصنوع من الألياف الناعمة الذهبية! إذ كانت الأزهار تنبت حيث تطأ خُطاها، وقد اعتادت ماريستوتا أن تغني في الصباح بين البساتين فتلتف حولها الطيور في بهجة! وفي الليل.. كانت تقف عند النهر الكبير فينعكس نور القمر على فستانها البرَّاق، ليسحر صوتها المسامع بألحان ساحرة.. تطرب لها الأشجار وتتراقص لها مياه الينابيع!

ثُم رُزق بعدها يحوي ورونتيتي بطفل آخر وهو «حوري»..الذي سيكون له أدوارًا مهمة في قادم الزمان.. في الأيام العصيبة والفِتَن الكُبرى.. التي لم يكشف عنها القدر بعد.

***

أما هيسپا صديقة رونتيتي، فكانت قد تزوجت بـ«مانيتو» وهو أخو تسوتي وابن راحوتيپ المهندس وحكيم كيميت الكبير، وكان مانيتو نحاتًا وفنانًا ومهندسًا بارعًا مثل آبائه، كان له بشرة معتدلة ولحية دكناء، وعينان تدلَّان على كثرة التفكير، وقد عاشت هيسپا ومانيتو في مدينة «بوتو»، وهي

مدينة مليئة بالحقول وبعض المرتفعات والهضاب البديعة، وتطل على البحر الأزرق.. وكانت لهما ابنة واحدة وهي «تفنوت» والتي يعني اسمها «قطر الندى»، وكانت قريبة الشبه من أمها الحسناء، فكانت لها بشرة تميل للسمار، وعينان عسليتان.. شعرها برتقالي، وشفتاها ممتلئتان من أجمل ما يكون.

***

كان «ڤيردو پاتميس» قليل الظهور في آخر أيامه.. وقيل إنه دخل ذات مرة إلى حدائق «بانتي رونپيت» الأسطورية.. ذات الأشجار الكبيرة وأحواض الزنابق والينابيع المترقرقة.. ولكن أحدًا لم يَرَه بعدها! وقد قيل الكثير في شأن ڤيردو البستاني الحكيم كما سنشير في قادم الأخبار، إذ قيلت فيه أمور عظام! هذا الرجل الغامض الذي ظهر فجأة من وسط أرض كيميت! ثم اختفى كما جاء.

***

وقد جلس پحوي ذات مرة بين العصر والغروب مع ابنه الصغير حوري على صخرة بين الحقول يتأملان المشهد على بحر راكوتا المفتوح، إذ زرع پحوي في روح ابنه الصغير حب الحكمة والأصالة النابعة من بلادهم الكريمة.. التي علَّمت العالم كل الإبداع والفنون ونور العقل، يومها سأله الطفل حوري عن لعبة صغيرة على شكل تمثال لإنسان له وجه صقر، فقال له پحوي وشمس الأصيل تسطع على وجهه عبر الأفق:

– أتعلم يا حوري؟ إن الحكماء قد استخدموا على الدوام الرموز للتعبير عن المعارف العظيمة، بحيث تبدو شفتا الحكمة صامتتين غامضتين.. إلا على آذان الإدراك، وهم لم يتعمدوا تشفير الحقيقة.. وإنما الرمز هو لغة التواصل الطبيعية بين أرواحنا المفصولة في هذا العالم، وبمرور الأوقات تصير اللغة القديمة مُستغربة وتُستبدل بنسق جديد للتعبير عن المعاني، فتبدو الكلمات والصور القديمة كرموز باطنية خفية على من لا يعرفها.

فالأجانب والآتون في قادم الزمان سيحسبون أن «حورس» رجل خرافي ذو رأس صقر، فهم لا يدركون المعنى الحقيقي فيما وراء المظهر السطحي، الصقر هو صاحب البصر القوي والرؤية الكاشفة، وهو يرى كل شيء من أعظم منظور متكامل.. حورس هو رمز الإنسان ذي البصيرة، حورس هو الوصول للتنوير، ذلك أن الإنسان.. ابن النور.. الذي يغلق جفونه طوال رحلته الشائقة عبر النهر.. في قارب ملايين السنين.. قد تبدو له حقائق الوجود في غير واقعها.. على هيئة خيالات وأوهام كما يراها النائم، وعندما يصل للمصب خارج الكهف.. حيث يندمج النهر في بحر حياة الخلود.. وتصير الأنفس جميعًا إلى الروح الواحد الجليل! عندئذٍ يستيقظ الإنسان ويفتح عينه الثالثة.. فتغمره المعرفة البديعة الكاملة! ويصير «ابن رع» حُر البصيرة!

***

وعندما قال يحوي ذلك تذكَّر نفسه في صباه عندما كان يجلس مع معلمه البستاني «ڤيردو پاتميس» الحكيم.. ذلك الرجل الوقور الهادئ الذي تعلَّم منه

يحوي كثيرًا من الحكمة الكيميتية والأخلاقيات الرفيعة للأجداد الأطهار، تذكَّر يحوي تلك الليلة القديمة وهو يافع صغير السن.. عندما كان يجلس مع ڤيردو عند أحد بيوت الحياة، أمام ينبوع برَّاق يعكس نور القمر كالمرآة! كان ڤيردو وقتها بوجهه الهادئ الكريم نفسه وعينيه فاتحتي اللون وعوده الفارع، وشعره المموج الجميل المائل للرمادي.

تذكر يحوي عندما سأل معلمه قائلًا:

– لماذا استخدم حكماء كيميت الرموز يا معلمي؟

فرد عليه ڤيردو:

– الترميز لم يكن فقط لغة حكماء كيميت وطريقتهم في نقل المعارف العظيمة، ولكن الترميز هو حرفيًّا لغة كل شيء! حتى الكلام البشري ليس سوى وسيط ورموز، أصوات للتعبير عن أفكار تنتقل بين الأذهان، وكذلك كل ما تجربه الحواس من ألوان وأصوات وأشكال وتدابير، جميعها ليست إلا رموز وانطباعات تتركها الأشياء وليست الأشياء نفسها، الانطباع متغير باحتمالات لا متناهية، ومن ثم فإنه لا يطابق الجوهر إطلاقًا.. وإن كان لديك شك فأخبرني.. هل شكة الإبرة.. هي الإبرة نفسها؟ كلا ألبتة.. إنها مجرد انطباع من ملايين الاحتمالات المتوقفة على طبيعة أعضائنا الحسية، كذلك فإن النار ليست مظاهرها من لون وسخونة، ولكن ماهيتها الحقيقية لا تدركها حواسنا البسيطة.. بل إن الإبرة التي يَخْبَرُها الإنسان كأداة صغيرة حادة، قد تراها النملة كصخرة ملساء، ولو نطقت الماسة لقالت إن الإبرة

ليست سوى خيط طري.. وهذا الهواء الذي يبدو لنا خفيفًا.. تراه الفراشة بحرًا كثيفًا قادرًا على حمل الجسد.. وهناك كائنات يا بني تهيم في العالم بسرعة شديدة، حتى أننا لا ندركها، ونبدو لها كجبال ساكنة بلا حياة... وعليه فكل ما نراه هو خيالات ورموز للحقيقة التي تتثنى وراء المظاهر، أما الجوهر الساحر فهو عين الحقيقة، وهو جِد عظيم على نحو لا يمكننا الآن إدراكه.

فقال له يحوي الصغير:

- وكيف نشأت بيوت الحياة ومدارس الحكمة هذه يا معلمي الجليل؟

فنظر له ڤيردو كأب حنون وقال:

- في العصور القديمة.. عندما بدت كل تجليات الكون سحرًا غامضًا.. في تلك الحقبة العتيقة.. وقتما كانت الخليقة في مرحلة الطفولة.. كان حكماء كيميت يعرفون أسرار الوجود.. معنى الحياة.. مصير الكون.. والغرض الفائق من صنيعة القدوس! ولكن عظيمًا جليلًا بينهم كان يسطع بالنور! إذ سكن أرض كيميت معلم قدير.. كان له مرتبة أسطورية! وقد جاء رسل من جميع أنحاء العالم إلى أرض كيميت في ذلك الماضي السحيق، ونالوا هذا المجد العظيم بتلقي المعرفة على يد حكماء كيميت، ومن ثم نقلوا المعرفة إلى القبائل المختلفة بكل حرية ونور، فالكل بإمكانه أن يذوق البهجة العظمى ويفهم معنى الأمور بينما ما نزال في إقامتنا على الأرض، بعكس أهل الحقارة في آتي الزمان.. الذين سيسرقون المعارف ويُخفون الحقيقة.. فيحتكرون الغيب ويسوقون البشر كالقطعان، فيجعلون أعظم الأفكار التي تُنير عقل الإنسان..

أسرارًا لا يطَّلع عليها العامة.. الجاهلون حتى بوجودها، وسيفتري أهل الباطل إفكَهم على حكماء الماضي العِظام.. مُدعين أن الحال قد كان هكذا على الدوام.. لزوم الخشية من ضياع الحكمة.. وانحرافها بمرور الأزمان.. لو أنها صارت في يد كل إنسان.. فملعونٌ كل من كتم الحكمة وشجَّع على الجهل والنكران.. ونشر الزيف والبهتان.

وهذه المعارف ستذهب يا يحوي طي النسيان.. أو تظهر من حين لآخر عبر العصور باعتبارها أساطير محكية وأطلالًا ونقوشًا قديمة، فقط من يتحرَّ الأيام الخوالي هو من يعرف كيف يفك رموزها، وبذلك ستمر خلال عصور طويلة أمام عيون ومسامع كل من لا يستطيع إدراكها! إلى أن يحين الميعاد وتصل البشرية لمرحلة النضج الكافي لتبحث عن المعارف الغامضة التي تحملها الرموز العالمية! فتكون لهم كمفاتيح لكنوز دينية وفلسفية وعلمية لا تُضاهى! وعندها سيعرفون أمورًا عِظامًا، ومنها مجد كيميت المُباركة، وكيف بُنيت حضارتها بنور المُبدع الكريم.

شعر يحوي في تلك الليلة القديمة.. وكأنه قد تعمَّد بنور العقل.. وأن غشاوة قد زالت من عينيه ليَرَى كل شيء بوضوح! فسأل عندها معلمه ڤيردو الحكيم:

– وكيف أنال التنوير يا معلمي الجليل، فأرتقي في درجات الوعي وأصير إنسانًا أعلى؟

فقال له ڤيردو:

– تصل للتنوير يا بني عندما تجرِّد نفسك من مظاهرها، الحق أن كل ما يُعرِّف الإنسان به نفسه إن هو إلا ثوبٌ فرضته عليه ظروف الحياة، كثير يا بني يضلون عن معرفة أنفسهم.. فيحسبونها في كل رداء من الطبقات التي تغطي روحهم، وأعني بذلك جميع الخصائص المؤقتة كالألقاب والمناصب.. أو الانتماء لقبيلة ونسب.. وحتى الاسم الذي يُعطى للمرء وملامح الوجه والجسد، بل الذكريات التي مر بها فشكلت ميوله، كلها أمور ثانوية قابلة للتغيُّر بمرور الأزمان والظروف، ولا يطول الزمان حتى تتركها الروح إلى الطين، وعندما تفرغ نفسك وتخلع عنها تلك الطبقات الزائلة.. عندها فقط لا يتبقى سوى الجوهر.

فبادره يحوي بالسؤال:

– وما الجوهر يا سيد ڤيردو؟

فجاء ڤيردو بالرد:

– الجوهر يا بني هو الروح، والروح واحدة في الوجود كله، وإن بدت لنا منفصلة في أجساد وأجنحة وأغصان، وهي تسري في كل شيء.. في الإنسان والطير والشجر، في أنعام الأرض والشمس والقمر، حتى في الرياح والثلج، وفي أفلاك السماء وسكون الأثير.. وفي رنين الأنغام وأمواج البحار، وفي قلب الجبال وحركة الأوتار، وفي حس الإبداع وقافية الأشعار.. من

المستحيل يا بني أن يتعلق الإنسان بالأشياء الفانية والأشياء الإلهية المقدسة في آنٍ واحد، أما عندما يختار المرء أحدها.. فإن طاقة الآخر تظهر جلية، وكثيرٌ من البشر يختارون حياة الدواب، منشغلين بسباق كسب المال واتِّباع غرائز الجسد.. ويظنون أن ذلك هو غاية الإنسان.. وهؤلاء لا يتأملون ولا يسألون أنفسهم: لماذا وُلِدنا؟ ولم أتينا إلى العالم؟ حقًّا إن المجنون وحده.. هو من لا يُكرِّس حياته الأرضية لتَحرِّي إجابة هذا السؤال!

أما الذين يتعمدون بنور العقل، فأولئك يصيرون الرجال الكاملين.. ويذوبون مع روح المُبدع الكريم، بينما ما يزالون هاهنا على الأرض، وعندما يُفرغ الإنسان نفسه من مظاهرها الفانية.. عندئذٍ لا يبقى فيه إلا الجوهر.. وهو روح الصانع القدوس، فإذا فعلت ذلك صارت إرادتك مطابقة لمشيئته، وعندها.. إذا قلت للجبل أن يتحرك من مكانه لفعل.. وإن أردت أن تحمل ما يستحيل على أولي القوة.. فعلت ما تريد ولا تبالي.. لأن روحك عندئذٍ تصير كقطرة ماء تعمل بقوة ينبوعها الأصلي.. لأنها تدرك أنها ليست القطرة.. وإنما الماء الكبير الذي لا ينضب.. ذلك أن القدوس العظيم لا يُعجزه شيء.. بل إن إقامة ألف عالم بديع لهو أهون عنده من نَفَس يتنشقه إنسان!

تذَّكر يحوي كلمات معلمه الجليل وهو يجلس على الصخرة قبل الغروب.. ثم نظر في عيني ابنه حوري، وعلى وجهه ابتسامة وتدبُّر معرفة كيميت الغامرة التي تنتقل عبر الأجيال.. فتتوالى رواياتها المذهلة عن المغامرين والأبطال والحكماء.

***

مرت السنون.. إلى أن حان الوقت.. ليرحل سيد كيميت العظيم نحو الغرب.. وفي طريق الشمس يُبحر الموكب المقدس.. بين أمواج النهر الأزلي الهادئة.. ليرقد جلالته للأبد.. سماحة الملك الكريم «كـمتيـو الأكبـر».. ليخلد في سباتٍ طويل في تابوته.. داخل قاعة البهو العظيم.. في رحلة الخلود إلى عالم النور.. ليقابل الأجداد وعظماء الماضي المجيد.. وهذا هو التابوت الذي سيأتي ذكره فيما بعد.. عندما ينساه أهل كيميت أنفسهم.. وتصبح غرفته مهجورة لا تدخلها سوى أشعة خافتة بلون الخشب ونور أبيض من عسل.. وتصير أيام المجد يغطيها التراب.

***

هنيئًا لك أيها الملك الكريم الصالح.. حبيب شعب البساتين والأنهار.. إنه الآن وحيد على قاربه.. في رحلة عبور البحيرة المسحورة.. بل هو يُحلِّق فوق السحاب الأبيض في الفجر البارد الذي يتلو الليل الأخير.. ومن ورائه أفق غسقي بلون الأرجوان و درجات من الأزرق الفتَّان.. في طريقه إلى الضفة الشرقية من السماء.. حيث أرض العجائب والكائنات الملائكية! وعند الشروق يقف كمتيو أمام أبواب مملكة السماء الأسطورية، ويطرق بابها مُعلنًا مجيئه، كانوا ينتظرونه بأشواق! فيسمع صوت ابتهاجهم لنغمات يده الشريفة! إذ تُزاح المزاليج.. وتنفتح أبواب الأفق المزدوجة بالغة الضخامة.. وكأن نغم اهتزازها الرخيم المتناسق هو أروع ما كان من الألحان! عندها تفيض أنوار عالم الحياة الرائع! وحدائقها العجيبة المفعمة بالبهجة الأزلية!

حيث تستقبل كمتيو كائنات خارقة بالغة الجمال والبهاء! ويسكن في صحبتهم للأبد! إنهم الملائكة الأنتار المقدسون! الذين يلقونه بترحاب الحبيب بعد غياب! ملابسهم بألوان ممتعة جديدة لم ترها عين! مع غناء السماء.. والصباح الأبدي الرائع.. وهناك يخفق قلبه برهبة تملأ النفس بمتعة لا توصف! ويعرف النعيم الأعظم الذي لا يُضاهيه شيء! إذ يتجلى لهم.. كيان رائع شامل! ينجذبون إليه بكل عاطفتهم.. وفي نفوسهم حب عميق وأشواق قديمة إليه! إنه حضرة البديع ذو الجلال بنفسه! يُشرق عليهم بجماله الكامل الذي نبع منه كل جمال! فلا يكون نعيم أعظم من رؤيته سبحانه.. والحياة في معيّته ورضوانه الأبدي.. هنيئًا لك يا كمتيو العظيم.. فإنك لن تموت! ومع الأبرار تعيش للأبد في مملكة السماء.. وسيبدو نورك كل مساء كنجم رائع.. يسطع بريقه بعيدًا في قبة السماء الزرقاء.. لتعانق شعبك الحبيب في أُنس الليل ونسيمه البارد الرحيب.. فيتذكرونك إلى الأبد.. حتى يجتمع الكل في فرحة الخلود.

***

وبهذا تولى الحُكم ابنه الشاب «مُحِب» أو «كمتيو التاسع».. وتقلَّد من بعده منصب «حافظ هارمونية عالم الإنسان»، وصار ملك بلاد كيميت المقدسة ذات البساتين والأنهار.. وقد ورث عن أبيه البهاء والحكمة.. وكان له من كمال الجسد الكثير! إذ كانت له ذراعان كأن فنانًا سماويًّا قد نحتهما من

حجر السَّبَج الكريم! وكل من ينظرْ إلى وجهه.. يَرَ روح الكون وهو يشُع فيه بالمجد!

كانت زوجته هي «ماريستوتا»، ابنة «پحوي ابن خونانوپ» «رونتيتي سليلة ڤيردو»، كانت ماريستوتا هادئة صغيرة السن.. وصوتها كنغم جميل تتمايل له الأغصان ويجذب أجمل الطيور.. كانت هذه المرأة الشابة مثالًا في الجمال واللطف والخلق، وحقًّا إنها كانت خير خلف لنساء كيميت العظيمات.

***

عاش الكل أيامًا سعيدة تحت حكم الملك الطيب «كـمتـيـو التاسع».. وفي إحدى ليالي الشتاء.. رُزق الملك والملكة بتوأمين جميلين.. طفلة أسموها «أوپيللا إيريتيو» والتي تعني «الجوهرة الزرقاء»، إذ كانت الطفلة النائمة تلتقط أنفاسها الرقيقة كملاك صغير بين ذراعي والدتها اليافعة «ماريستوتا».. وعلى الفِراش الموجود بين البساتين الخضراء أحاطت بهما الأزهار هادئة الألوان وستائر زرقاء خلابة تداعبها الرياح بلطف كأمواج تتراقص! وكانت الوصيفات والأميرات يتمايلن ويغنين بأصوات أنثوية خلابة ويعزفن الألحان، و بدت الطفلة وكأنها لؤلؤة تلمع في حوض طاهر.. تملؤه سماء زرقاء فسيحة بروح الجمال! أما الطفل الرائع.. فقد كان شديد الحُسن وكأنه تُحفة مصقولة من الذهب! وبين يدي والده العظيم الملك كـمتـيـو التاسـع.. كان وجه الطفل «رعميس» يسطع بنور الإبداع كشمس الخلود! ولهذا أسموه «رعميـس»، وهو اسم معناه «ابن النور»، ولقبه هو

«رعميس إيبانوب».. أي «رعميس قلب الذهب»! فاحتفلت كل البلاد بمولد الطفلين كأنه يوم عيد.. ذلك أنه مع فجر اليوم التالي.. كانت السماء بيضاء.. تسبَح فيها السُّحب البيضاء في بهجة، والأطفال يملؤون الشوارع التي غسلتها الأمطار.. يلعبون بالزينة ويمرحون بالمزامير وأنغام الأوتار.. كان يومًا رائعًا لا يُنسى.

***

مرت السنون والأزمان.. ولكن بقاء الحال من المحال.. إذ تغيرت أحوال العالم على نحوٍ مخيف!

الفصل الحادي عشر
التغيُّرات العالمية الكُبرى!

شهدت السنون التالية لرحيل الملك «كـمتيـو الأكبـر» تقلُّبات كثيرة متوالية في أنحاء العالم، إذ إن السحر الذي زرعه العفريت الجبان، عندما أشعل النار في جوف البركان، قد أظهر الحر والجفاف، فنقصت الزروع والقطاف، وصارت البلاد.. طينة يابسة وترابًا ظمآن..

ستنقلب موازين القوى في العالم، وستؤثر الأمور في أرض البساتين والأنهار.. ليخفت بعضٌ من بهائها، سيتجرأ بعض الملوك والزعماء الأجانب على حكمة كيميت! فيَنقُض بعضهم المواثيق، ويرفض بعضهم الاعتراف بنفوذ سيد كيميت على الشرق والغرب، سيظهر القراصنة في البحر الأزرق، وقاطعو الطرق على المسافرين برًّا، بل إنه لن يطول الزمان حتى تقوم بعض شعوب البحر بمهاجمة الأسطول الملكي قُرب موانى كيميت البحرية.

وقد حدث في ذلك الزمان.. أن وقعت عشيرة الشيماثيت البدوية في أَسْرِ ملك بلاد الأنهار الشرقية.. وبقوا فترة في تلك البلاد، فتعلموا بعضًا من أساطيرها وقصصها القديمة.. وقد حدث بعدها أن هاجمت قبائل الخابو بلاد الأنهار، ودمروا كثيرًا من مدنها العامرة، وقد أخلى ملك الخابو سبيل قبيلة الشيماثيت، فاستقروا في منطقة في ليڤانتيا قرب كنعان.. ولكنهم كانوا يتوقون إلى الانتقام الخبيث من كل الأمم العظيمة التي كانت تحيط بهم.. فاعتادت نساؤهم حياكة أعمال السحر بكسوتهنَّ المصنوعة من سلاسل العظم وجِيف الحيوانات الميتة.. ويوقدن النار في صدور رجالهم للانتقام.. حتى طفح الحقد من قلوبهم..

كان زعيمهم هو الشيخ «شاليح البعرامي»، وهو أحد أحفاد «بلعام بن بعرام»، وكان «شاليح» ذا لحية كالحة شعثاء ذات بقع بيضاء، وقبعة صغيرة دكناء، وأنف معقوف، وله شعر متيبِّس على جانبي رأسه، ويرتدي زيًّا معتمًا، وقد استمرت عادات الشيماثيت القبيحة في تلك الأيام كما هي العادة، فكانوا يُجبرون نساءهم على البِغاء المُقدَّس مع شيوخهم وكهنتهم الخُبثاء مُدَّعين القداسة، وظنوا أن ذلك يمنحهم البركة والخصوبة وغفران الذنوب، بل إنه في كثير من الأحيان كان رجال الشيماثيت مدركين حقيقة أنهم يُمكِّنون شيوخهم الأنجاس من وطء نسائهم لإشباع ملذاتهم الرخيصة باسم الروح والشريعة داخل المعابد والخيام، ورغم معرفتهم بذلك فإنهم لم يُظهروا أي مبالاة أو امتعاض! فقد اعتبروا ذلك وسيلة لا بأس بها للتقرب من

زعمائهم القبليين! وهذه العادة النتنة لا يضاهيها شرٌّ إلا تضحيتهم ببعض ولدانهم على جَمر الأفران المستعرة ليهدِّئوا غضب أحد آلهة الشرق الدموية وهو «مولوخ» الذي لا يرحم، وكذلك عقوباتهم البشعة سواء لمن يخالف القوانين من أفرادهم أو من أسرى القبائل المجاورة التي نهبوها في صراعات محلية، ومن أمثلتها النشر بالمناشير، والشيّ بالنار، وفصل الرأس عن الجسد باستخدام الأحجار غير حادة السِّن.

***

أما في السواحل الشمالية من بحر القاتشور الأزرق.. فكانت الحروب العنيفة قد اشتعلت.. فقد ظهر قائد حربي يُدعى «روميللوس الإهليجي» بين برابرة الشمال فدخل إلى إقليم «إتروسكا».. ومنه هبط جنوبًا ليستولي على سائر بلاد «كالابريا» وقُرى سهول «توسكانا» وضفاف بحر «تيري» الغربي، وقد اتخذ من مدينة «لاتينيوم» عاصمةً لبلاده، وفي ذلك الزمان قد شاع اسم «القولجار» لوصف قبائل «أبناء الثور»، وهم ساكنو البلاد التي أقام فيها روميللوس مملكته الجديدة في أول الأمر، ولكن روميللوس أخذ يتوسع في حروب عنيفة مع الأمم المجاورة، فضمَّ إلى سلطانه بلاد الزيتون وبعض سواحل ليڤانتيا.. ثم أعلن نفسه إمبراطورًا على بلاد «القولجار» وما يقع تحت سلطانها من أمم مجاورة.. وبهذا علا شأن برابرة الشمال وظهر فيهم الغِنى الفاحش من ثروات الشعوب التي سقطت تحت أيديهم..

وقد بَطَشَ «روميللوس» بقبيلة الشيماثيت، رغم محاولاتهم اليائسة للتملق وإظهار الخنوع.. ويقال إن ملك القولجار كان قاسيًا في تشريده للشيماثيت؛ لأنه كان قد رأى في المنام.. أن شعبًا مختونًا يخرج من الأرض المقفرة هائجًا كالبعير.. ويحاربه ويقضي على سلطانه في سواحل البحر الأزرق، وأخبره الكهنة أن هذا الوصف يُشير إلى الشعوب المظلمة التي ترعى قُرب جبال الأنباط.

***

وفي تلك الأيام.. حدث للشيماثيت أمر جَللٌ وعظيم! سيغير مصير الإنسان نحو شر خطير! ذلك أنه في إحدى الليالي العاصفة وبينما يجلسون في خرائبهم وسط البادية! جاءتهم زيارة من شخص غامض ضخم يُغطي رأسه بقلنسوة تحت السماء القاتمة التي تضيئها ضربات متفرقة من البرق المُخيف! تابعوه وهو يقترب منهم حثيثًا.. بينما تُحرِّك الرياح ثيابه الواسعة، استعدوا لاصطياده في الخفاء بأظفارهم الطويلة التي تشبه الدبابيس.. كانوا على وشكِ الإيقاع به وشُرب دمائه.. ولكنه كان أشد منهم مكرًا وخُبثًا! فهو يخدم سيدًا عظيمًا له سلطان فائق! فرفعوا أبصارهم فإذا هو كتنين مُخيف تحت الثياب! فأظهر لهم بيِّنات القوة التي منحها مولاه إياها! عندها شعروا بالهلع والخوف الشديد! إذ إن السيد الذي يخدمه هذا الغامض المُقلسَن لم يكن إنسانًا ولا عفريتًا! بل ظالمًا فاجرًا لا يُمكن ذكر اسمه في هذا الكتاب! مُحرمة عليه الأرض حتى لحظات كتابة هذه الكلمات! ولا يعرف بوجوده في العالم

إلا أقل القليل من العارفين! وهم يُشيرون إلى كينونته بصيغة لقبه! فعرَضَ عليهم من خلال خادمه التحالف.. مُقابل أن يجتبيهم بين الشعوب.. وأن يجعل الأمم موطئًا لأقدامهم عند نهاية الزمان.. ولن يعرف العالم الكثير عن هذا اللقاء والوعد والاختيار.. حتى يحين الميعاد العظيم!

***

عقد الشيماثيت هذا التحالف التاريخي! مع ذلك السيد المُذهل الذي يسكن نجمًا بعيدًا للغاية! وقد صار الشيماثيت من ذلك اليوم يعبدون إلههم الجديد..وعرفوه باسم (عيلوهيم صاموط) أي عظيم الأرباب! أو سيد القادمين من المكان العالي! وجمعوا بينه وبين صنمهم القديم «ياهوڤ» كمعبود واحد. أما الهمس بلقب هذا الطاغية أو اسمه الحقيقي فكان ممنوعًا على الجميع! إذ تزلزل له الأرض وتخشع له الرياح بالسكون! أما تفاصيل تلك الصفقة الكُبرى فلم يعرفها أحد.. ولكن بعض العارفين قد انكشفت لهم الرؤى فأخبروا بعضًا منها! إذ إن الطاغي ساكن النجم البعيد.. قد أمر خدمه المُختارين الشيماثيت.. أن يمهدوا لمجيئه في قادم الزمان.. عندما يأتي إلى الأرض مُحلقًا على ظهر سحابة عظيمة! على أن تكون الأرض كلها متأهبة خاضعة لسلطانه.. وأن تُسبِّح أفواه الخلائق بمجده المزعوم.

وقد وعدهم هذا الظالم بأن يرفع شأن الشيماثيت ويحطَّ من باقي الشعوب، وأن يُرسل إليهم مُخلِّصًا يأتيهم في آخر الزمان.. من ذريته ونسلهم، فيضرب باقي الأمم ويذلَّها.. وأسموا هذا المُخلِّص الأسطوري باسم «الطاليم»، أو

الشخص المحدد لإنقاذ قبيلة «شاسو ياهوف» أو قوم الشيماثيت، وهي فكرة اقتبسوها من عادات تنصيب ملوك كيميت وبلاد النهرين، وهو الطقس الذي يُشير في الأصل لادِّهان العقل بسائل العين الثالثة الذي يحرر الروح لتبصر الحقيقة.

وفي الأماكن المستترة تحت السماء الدكناء.. كتبوا أسفارًا لتكون مُحفزًا نجسًا لأبنائهم على كراهية الآخر، وذكروا فيها أنه سيأتي زمان تنكسر فيه جميع الشعوب العظيمة، بل إن ملوك العالم في آخر الزمان سيتسابقون على السجود أمام الجيل الأخير من أحفاد الشيماثيت! طالبين منهم الخلاص، متوسلين إليهم بتولي قيادة عالم الإنسان.

وفي إحدى الليالي التي غاب فيها القمر.. توشحوا بالسواد تحت سماء لا تقل قتامة.. واجتمعوا كالعادة ليُلقي عليهم شيخهم «شاليح البعرامي» موعظته لقومه.. فصاح فيهم بلسانه الألثغ، ولحيته الجافة القاتمة ذات البقع الباهتة:

– كل شيء في العالم يتوقف على المنظور.. ومن أدرك ذلك.. صار في يديه قِسطاس النبالة والحِقار.. لقد خُلق الكون بحيث تأتي معايير الشرف من ينابيع العقل والمجد وقوة الإرادة وارتقاء الحياة، وفي كل هذه الأمور.. فشعوب النور متفوقون علينا بالفطرة.. من أجل ذلك كان لزامًا علينا أن نقلب معايير الفضيلة نفسها! فنخلط عليهم بين الحق والباطل، فتصير العزة

كبرًا.. والتواضع في بُغض النفس.. ويصبح التفكير تجرُّؤًا سافرًا ونقيضًا للإيمان، وسنجعل حب الحياة خطيئة.. تستوجب الشعور بالندم، بل إننا سنغير معنى الألفاظ نفسها.. فتصير سلالة نبلاء النور ونسل «الآر».. مرادفًا لكلمة «العار»، أما سلالتنا المسكينة «الشاماخوت» التي تراها الشعوب كنجس تفوح من الكراهة.. فسيعبِّر لفظها عن معاني السمو والافتخار، وعندما نصيب العالم بالتبلد والخنوع.. سنكون وقتها الوحيدين القادرين على تقديم خطوط جديدة من الأفكار.. سنغزو عقول شعوب الشرق والغرب ونلقيهم في المذلة .. كما فعلوا بنا من مهانة أبكت أجدادنا.. كما طردوا أسلافنا أشتاتًا في كل الأرجاء، سنغسل أدمغتهم بحنكة وبطء شديد، سنضلل الناس ونخلط الأمور، سندعو المحاربين البواسل ظلمة وبطاشين، سندعو الملوك الأقوياء جبابرة وطُغاة، إن كانت البساتين بهجة لأهل «صِلاييْم» (وهي كلمة بلغة الشيماثيت وتعني الأراضي الخصبة، ويقصدون بها بلاد كيميت المقدسة).. فسنجعلها لهم عارًا، وما من شيء يجلب العار أكثر من العوز والفقر، فتصير صفة زرع الحقول وفلاحة الحدائق سبَّة تشين الجباه.

لقد صارت حكمة العالم القديم إلى ضياع أبدي.. بل إن الجنة الخالدة.. أرض الحكماء والبهجة «صِلاييْم المُباركة» ذات الأمجاد القديمة.. قد صارت أرضَ موتٍ وأوجاع حزينة! سينسى الإنسان عالم الروح المهيب.. ومع تغيُّر المد سنسرق أغلى كنوز البشر! عندئذٍ سنأتيهم بصنيعتنا الماكرة.. إذ نحتكر

مفاتيح الغيب.. ونضلل في قلوبهم فكرة التقوى حسب ما نريد، ستأتي أجيال من قطعان البشر لا تعرف من القداسة إلا تبجيل تراثنا وهدفنا الكبير.

ثم رفع شاليح صوته بانفعال وشغف شديد.. وضحكة خبيثة بدت منها أسنانه المتنافرة المائلة للَّون الأصفر الباهت.. فلمعت عيون القبيلة التي تفترش الأرض! كانت رائحتهم نتنة جدًّا أسوأ من مزبلة! ولا يُمكن أن يتحملها مخلوق طاهر، وكانوا منتبهين لكل كلمة من زعيمهم شاليح بن بلعام البعرامي:

– هل منكم من يُصدِّق أنه ستأتي أجيال من أبناء حكماء وملوك صلاييم العِظام.. وأهل النهرين وثيران مراعي الشمال.. أجيال ستباركنا نحن وتدعونا بالأسياد؟! وتلعن أسلافهم ذوي المعرفة الكُبرى بعالَم الحق؟! أجيال ستحسب أن الماضي السحيق فارغ من الحكمة قصير العمر؟! أجيال ستحسب أن الإنسان لم يكن قبل مجيئنا إلا في ضلال؟! بل إنهم سيعدُّون التاريخ مُذ أذللناهم بصنيعتنا الخبيثة؟! فلا يعرفون ماضيًا ولا تاريخًا للإنسان إلا منذ صاروا عبيدًا مكرَّسين لخدمة هدفنا!

أمِنْكُم من يصدق أنه لن يطول الزمان حتى يتربع رجل منا على عرش الإمبراطور في «لاصينوت»؟! (يقصد عاصمة الڤولجار)، وأنه ستأتي أجيالٌ من شعوب العالم تصدق أن الإنسان لم يعرف روح الوجود وأمجاد عالم الغيب إلا يوم خرجت عليهم قبائل الشاماخوت؟!

ثم نظر للأعلى ورفع يديه وحركهما بهستيرية وهو يصيح:

- حقًّا هو وعد مولانا القادم من النجم العالي «صاموط صاموط»!

عندها أخذت القبيلة تهتف في نشوة تحرق أجوافهم وراء كل جملة يصيح بيها شيخهم شاليح الذي أكمل خطبته في حماسة:

- ستأتي أجيال من أبناء النور وتكون قِبلتهم إلى خرائب مطاريد الشاماخوت! أجيال ستدعو التقوى في الخنوع التام لكل ما هو شاماخوت! حقًّا هو وعد مولانا «عيلوهيم صاموط»! بل إن كل شعوب العالم ستقطِّع أجسادها جلدًا بالسياط فِداءً لنا، وستنبح من أجلنا حتى تنقطع أحبال حناجرها من نبيح الصوت!

افرحي وجلجلي يا ابنة «زبوب» و«خامتان»! (وهي أسماء لعائلات من الشيماثيت)، افرحي واغسلي (الجلخ) عن دماغك بدماء أعدائنا النبلاء، فقد أوشك أبناء النور على التسابق في لعق الأوساخ عن نعالنا! يا سعدكم يا نسل حرافيش الخرائب.. لأنكم ترثون أمجاد الشعوب المتفوقة! وسنترك لهم الأرض مزبلة كبيرة يحارب فيها بعضهم بعضًا من أجلنا.

لقد أَلهَب زعيم الشيماثيت شاليح البعرامي حماستهم! فلمعت عيونهم وظهرت عليهم أقبح الرغبات الحقودة! ثم هللوا بحفاوة عندما تنهد شاليح، وقد جحظت عيناه من الحماسة.. ثم خفض نبرته ليصغوا الأسماع لصوته الأخنف الذي يشبه المُصاب بالزكام:

- يا قوم الشيماقيت الموعودين.. سنصير أغنى الأغنياء، سنتربَّح المال من جهد الآخرين، بكل الوسائل غير المتوقعة، ونبقيهم مساكين متفرقين بين أهازيج الوجد، حتى يُفاجأ أحفادهم بعد زمن أنهم قد صاروا عبيدًا لقبيلتنا، بِوَعْد مولانا الجبار «عيلوهيم صاموط».. سنكون الأعظم بين الشعوب والأكثر مكرًا ودهاءً، سنستخدم شعار التعفف لنبقيهم مسلوبي الإرادة في جوع لا ينضب، فنريق لعابهم خلف الشهوات، لن يطول الزمان حتى يفقدوا الذاكرة.. عندها نمتطي ظهور من كانوا يومًا أسيادًا عظماء.

***

وقد حدث في ذلك الزمان أمرٌ عجيب آخر! فقد انتشرت في أقاليم ليڤانتيا نباتات وفطريات سحرية.. عُرفت باسم «خبز الحياة» أو «بوابات الروح»! وكانت لها قدرة على أن تنقل المرء إلى عالم الغيب الأزلي والوعي الفائق! فيصير روحًا حرَّة متخلصًا من وهم الذات وتقمُّص الجسد والشخوص، وكانت «بوابات الروح» شائعة منذ زمن بعيد بين حكماء كيميت، إذ كانت تُصنع غالبًا من شجر السنط، وقد عرف الحكماء كذلك طُرُق استحضارها من العديد من المكونات الطبيعية، وكان نتيجة ذلك أن حدثت صحوة روحانية في أرض ليڤانتيا في ذلك الزمن القصير، والحق أن تلك النزعة قد ظهرت نتيجة للفراغ الفكري الهائل الذي تركه انهيار الحضارات الكُبرى ومشارف عصر الغروب العجيب، إذ صار البشر كأطفال تائهين منقطعين عن آبائهم الطيبين.. لا يعرفون شيئًا ويحسبون أنهم يجربون كل شيء لأول

مرة.. يحيط بهم عراء موحش يعُج بالضواري والمجاهل المخيفة، وأطفال كهؤلاء يسهل استدراجهم لكل الشرور باسم الخير الذي يتوقون إليه.. ولا يعرفون اسمه.

وكأن الإنسان قد سقط في مستنقع بارد بعيد في أغوار التلال، ولا يتذكر شيئًا عن نفسه، ولم يلتفت إلى ردائِه الفاخر الواقع قُرب الماء البارد، ولم يعرف أن نقوش الأمراء على نسيجه الفتَّان إنما تشير إلى ماضيه النبيل كابن للسماء، لقد نسي كل شيء، ولم يعرف جذوره في أسبار الزمان المجيد.. فصار يتنهد ببخار الماء، ويفرك يديه نشدانًا لقليل من الدفء في ليلٍ رطب يجتاحه الصقيع، هكذا كانت روحانية عصر الغروب! وهكذا كانت الروحانية الصُّغرى التي سيعرفها الإنسان حتى يحين الميعاد، إذ إنها بكل ما تحويه من شغف وحُب مقدس وفضيلة.. ومعمار يُوقظ النفس من سُباتها.. ليست إلا صورة باهتة باردة.. من الروحانية الأسطورية الغامرة التي تسطع كطلوع الشمس العظيمة في الشتاء، وبحنان الأب الفائق تُدفئ الأجساد والأرض والهواء بأشعتها القديرة الهائلة.. فتخرج الطيور الصغيرة لتغني على أعشاشها فوق الأغصان، ويبتهج الكل في حب غامر وأمان لا يزول، ويرى الإنسان المعنى الرائع للوجود! تلك الروحانية المُذهلة التي عاش فيها الأسلاف في ماضٍ سحيق نسيه الأحفاد.. وعصور طويلة تُعد بدوران النجوم.. عندما كانتْ روح حضرة البديع الرائع تتلألأ داخل كل مخلوق.. فتُسمع في كل نغمة وكلمة وفن وذوق.. وتتجلى في حركة البحر وندفات الثلج ومجد

الشروق.. وفي عظمة الجبال الصخرية العملاقة ومزيج الألوان.. ومهارة الكائنات وعطر زهور البستان، وتراها في الشجر وعيون الأحباب.. و في بهجة المطر وغيوم السحاب.

كانت ليڤانتيا أرضًا طيبة التربة وتطل على ساحل البحر الازرق ولا تبعد كثيرًا عن بلاد كيميت وكذلك جزُرُ مايسينيا والأيون، ففي قُرى ليڤانتيا البسيطة.. ظهر العديد من الدراويش يسيحون في البرية.. يلتمسون بهجة ما يقبع خلف الوجود! وقد قام عديد من الفرق التي اعتزلت الناس وتفرَّغت للتنسُّك في البراري.

وقد حدث في زمان ذلك العصر الغريب أن ظهر في إحدى نواحي ليڤانتيا رجل صالح عجيب يُدعى «پاريان الصدوق»! وكان «پاريان» درويشًا صوفيًّا يتكلم في الناس من قلبه كمياه جدول صافٍ صغير تتهادى الأعشاب على ضفافه، إذ إنه قد ذاب عشقًا في القصص العتيقة التي تُروى عن حكماء الماضي البعيد الذين قد سكنوا أرض كيميت المقدسة، رغم أنهم قد عُرفوا بأسماء أُخرى في ذلك الزمان، وقد ذاع صيت «پاريان» الدرويش الليڤانتي بلقب «معلم الحق»، وقد كان مُعلمًا حكيمًا قد أدركه نور العقل، وصارت المعرفة في صدره كمرآة براقة، كأنه ظِلٌّ لأحد حكماء كيميت القُدامى، وقد كان له كثير من الأتباع الفقراء والسائحين الباحثين عن معنى الحياة، وقد دارت بسببه أحاديث كثيرة في تلك المنطقة، حتى أنه قد أثار جدلًا كبيرًا بين أرباب المال والسلطان وعابدي الملذات، وغضب عليه آكلو الربا من

الشيباقيت، فحرصوا على التخلص منه، فاجتمعوا حوله وهم يحملون في أيديهم القدُّوم والحجارة.. ودقُّوا في رأسه المسامير حتى فارق الحياة!

وقد صارت بسبب «پاريان الصدوق» جلبة عظيمة! إذ قد حدث بعدها أن رأى بعض سكان ليڤانتيا في المنام رؤيا بأن الحياة تدبُّ في جسد «پاريان» الهامد! وأن المسامير على جمجمته تستحيل إكليلًا براقًا كالتاج! وعندها شعر الناس بالفزع الشديد! وظنُّوا أن عقابًا مُخيفًا ينتظرهم بسبب ما حلَّ بهذا الرجل الصالح! وانغمس كثيرون في حياة التنسُّك، ولاذوا بالنشوة الروحانية الغامرة.

وقد ظهر عديدون من مُحبِّي الحكمة والمعرفة أو «طريق الغنوص» كوسيلة لوصول الإنسان للخلاص من بلايا العالم والشرور، والاتحاد مع روح الحق بعد التخلص من زيف العالم المادي، ومن هؤلاء رجل يُدعى «المهاجر».. وكان له عديد من الأتباع، وكان لمحبي «الغنوص» طُرُق ومذاهب.. وقال بعضهم أن لا حق إلا عالم الروح.. وما عدا ذلك فباطلٌ من رغبة فوق أوهام المادة.. وأن المادة من صنيعة حِرَفيٍّ ظالم.. يخادع الناس ليكتسب خضوعهم وعبادتهم، وأن الإنسان سيعتنق الباطل باسم أجمل الشعارات ليخشع أمام هذا الشرير.. وأن هذا الظالم سيأتي في آخر الزمان.. مُدعيًا بالبُهتان.. أنه قدوس السماوات!

ومن بين العديد من المتصوفة في ذلك العهد الذين لا نحصي أسماءهم.. ظهر رجل يافع آخر يُدعى «يَغُوث الطِّمْطامِي»، قيل هو من قوم الشيباقيت،

وقيل هو من شعوب الفينيق الذين سكنوا ليڤانتيا، وقد نُسي شأن «يغوث» لفترة واختفى.. قبل أن يصير لاسمه مجد عظيم لاحقًا! إذ اختلطت الأخبار بمرور الأوقات وامتزجت قصص الدراويش وكراماتهم.. وقيل إن قصة «پاريان» الشهيد قد نُسبت بالخطأ إلى «يغوث»، ولم تمر أجيال كثيرة حتى غالى البعض في شأن «يغوث».. وقالوا فيه أمورًا عظامًا! فقال البعض إنه ليس بشرًا! وإنما هو روحٌ مُرسَل من مملكة «باربيل» الخالدة! وادَّعى بعض الشيماڤيت أنه «الطاليم» أو ملكهم الخرافي الموعود الذي يجيء لخلاصهم، وهو الادعاء الذي سيعمل أحفادهم على نشره واستغلاله لمصلحة مخططهم الخبيث لإذلال العالم وامتطاء ظهور الشعوب.

***

بزغت تلك القلاقل والفتن لتعلن الغروب الكئيب وزوال النور.. على عالم الإنسان الذي كان زاهيًا نضرًا.. كأمواج دكناء لا ملجأ منها.. وبذلك صار نفوذ بلاد كيميت المُباركة في خفوت، فقد صار الملوك يتعاركون على الأراضي ويغزون البلاد، وتجرأ بعضهم على الخروج عن طاعة ملك الملوك سيد كيميت، وإتيان المظالم والأباطيل، وقام بعض القراصنة بمهاجمة السفن الأجنبية التي تعبر البحر الأزرق، وحقًّا إن هؤلاء الضالين قد تصرفوا دون احترام ملك كيميت العظيم، إذ كانت بلاد «كيميت المقدسة» مشغولة في تداعي اقتصادها ونقص زروعها ومشاكلها الداخلية.

وقد حدث في تلك السنوات أن ارتحل بعض أسباط بني شاعوط الرعاة من صحاري خاسوط إلى التخوم والمناطق الجبلية الوعرة بين الأنباط وليڤانتيا وبوابة كيميت الشرقية، كان لهم ملامح عجيبة غير مريحة! إذ كان وجه الواحد منهم ممصوصًا كجثة قد سحبت الضواري سوائلها ولم تترك منها سوى جيفة متجلِّدة، محاجر عيونهم مضغوطة للداخل مع وجنتين بارزتين بشكل غريب، ولهم نظرات مخيفة تعبِّر عن إخفاء اللؤم والاستعداد للخيانة، مع أنف ممتد يشبه الخنجر، وأسنان فاسدة ناتئة وجلود ملفوحة بالحرارة الشديدة، وكانت شعورهم جافة مخلوطة بالدنس وتخرج كالعَذِرة من حول رؤوسهم، أجسادهم جافة شديدة الخشونة ومغطاة بالحراشف كالثعابين، ولا تغطيها إلا هلاهيل قليلة من الخيش أو جلد الذئاب الملطخ بالدم، أما نساؤهم فكانت أغطيتهنَّ على هيئة أكفان ثقيلة مصنوعة من الجلود المحروقة.

وأقوام بني شاعوط وثنيون يعبدون عدة آلهة من صخور بلا ملامح، ومنها «البعل» وكذلك «عِيل» وهو معبود أبناء عمومتهم الشيماڤيت، ومنهم من عبد القمر وكوكب عطارد.. وكان هؤلاء يكوُون أبناءهم بِوَسم من نار على شكل هلال كرمز لمعبودهم، وأسباط بني شاعوط لا أمان لهم، بل إنهم يدسُّون الصفائح الحادة بين هلاهيلهم استباقًا للغدر ببعضهم البعض في أي لحظة، وهم يعتقدون بحلول البركة في فضلات ودماء الوحوش فيتباركون بها عن طريق دهان أبدانهم بها، بل تناولها أحيانًا.. ظنًّا أنها تمنحهم الحماية من

الأسقام! وقد استعان بعض ملوك أغرامينيا الشرقيين بقبائل بني شاعوط في صراعاتهم ضد غزاة الشمال اللاتين القوطجار، فاستخدموهم كجواسيس وقاطعي طُرُق، وقد عرفوهم باسم الـ «تازي»، وهي كلمة بلغة أغرامينيا وتعني الكلاب المسعورة أو الجرباء، وهو تعبير عن روحهم الخبيثة التي لا تخطئها العين، والخيانة التي تسري في دمائهم.

وقد اقتربت قبائل شاعوط كثيرًا من حدود بلاد كيميت في ذلك الزمان الغريب، إذ هاجر هؤلاء كالجَرَب عبر التخوم الصخرية القاسية من تلك الفيافي البعيدة، فعبروا بأبدانهم القشفاء من الأماكن الملتهبة الخانقة ذات الصخور الحادة المتفتتة، حتى اقتربوا كثيرًا من سهول ليڤانتيا العشبية.. بل وصل بعضهم قريبًا جدًّا من مدينتي «جاتسيا» و«هارينو» الكيميتِيَّتَيْن.. والواقعتين في أقصى الشمال الشرقي للبلاد، وتطل هاتان المدينتان على شواطئ البحر الأزرق بين الجبال والنخيل الغزير، وبذلك صار هؤلاء الشعاسيط الخونة عارفين لبعض المخابئ والطرقات السرية بين الجبال القريبة من حدود بلاد كيميت.

***

وفي ذلك الوقت.. كان زعيم الشيماثيت «شاليح بن بلعام بن بعرام» قد صار عجوزًا.. وعلى فراش الموت دعا ابنه «يوشح» ذا الأنف الطويل وعظمة الذقن النحيلة.. كان شاليح العجوز ذو اللحية الشيباء والملابس المصبوغة بلون القطران مريضًا للغاية.. راقدًا على سريره المصنوع من وبر

الجِمال، فتحدث مع ولده يوشح بصوت متذبذب وكأن البلغم اللزج لا يلبث أن يسد جوفه:

- اسمعني جيدًا يا يوشح، عندما كنا في بلاد ملك الأنهار الشرقية.. سمعنا عن طائر غريب.. طائر ماكر أسود الريش.. تعرف عيناه كيف تتلصص على خبايا الآخرين، إنه الوقواق، ولكن كان لهذا الطائر عدو لدود. عدو الوقواق الماكر.. هو طائر «الهازجة».. ذو الريش الناعم ووسامة الخلقة.. الذي ينعم في حظٍ عظيم من مهارته في التحليق فوق الأزهار وقدرة على الغناء الفتَّان.. ولكن.. طائر الوقواق الماكر يعرف كيف ينتقم من هذا الذي يختال بجماله.. وعندها.. أخذ شاليح في السعال حتى كادت أحباله الصوتية تتقطع.. عندئذٍ نظر يوشح بعين حقود ثاقبة وسأل:

- وكيف يفعل ذلك يا أبي؟

التقط شاليح أنفاسه الكريهة وأتبع بصوت ضعيف كأن المُخاط المحتقن يملأ بلعومه:

- يعرف الوقواق الماكر يا يوشح.. كيف ينال من طائر الهازجة؟ إذ بينما يغيب هذا الطائر الساذج عن عُشِّه، يتسلل الوقواق نحو عُش عدوه.. ثم يركل بيض طائر الهازجة! لتسقط أجنة الهازجة ميتة على الأرض! وعندها.. يضع الوقواق بيضته مكانها في عُش الهازجة!

أتعلم ما يحدث بعدها يا يوشح؟ يقوم طائر الهازجة الساذج بتربية نسل عدوِّه! فيحمل له الطعام والشراب، أتعلم يا يوشح أن طائر الهازجة الأبله

يصير متقينًا أن ذلك الطير الأسود الضخم في عشه هو نسله، بل إن طائر الهازجة الغبي لا يتعرف بعدها على نسله الحقيقي، بل يطرده من العُش لو رآه يومًا! ففي عيني الأحمق.. يصير العدو حبيبًا، والقريب غريبًا!

نظر يوشح ذو الأنف الطويل نحو الأفق المُلبَّد بالغيوم الرمادية.. وأخذ يتأمل في كلمات والده شاليح الذي كان على فِراش الموت، أكمل شاليح كلماته بنبرة شيطانية.. ونظرة خبيثة تخترق أعماق خليفته في زعامة القبيلة:

– هذه هي معركتنا يا يوشح يا ولدي.. كيف نجعل أحفاد النور يتبنّون ثقافتنا الغريبة.. حتى تصير نُصرة هدفنا أسمى غاياتهم؟ إذ نفتِنَهم باسم الشريعة.. وباسم المُقدَّس، إن كانوا قد استعبدوا أجسادنا في الماضي.. فلنا آتي الزمان.. نستعبد فيه عقولهم وقلوبهم ونملؤها بالعطن.. فيكونون طيور الهازجة الساذجة التي تُكرِّس كل مواردها وطاقتها لِخدمَة خطتنا الكُبرى.. وبعدها جحظت عينا شاليح كأنما ينظر إلى شبح.. ثم صاح صرخة مكتومة مخيفة! فكانت شهقة الموت.. ولفظ أنفاسه الأخيرة.

***

أدرك الشيماثيت أن الوقت قد اقترب لتحقيق أحلامهم النجسة.. وأنه قد حان ميعاد اختراعهم لأداة الانتقام التي ستخدِّر العالم قرونًا! فبدؤوا على الفور الاستعانة بالقوى المظلمة التي تختبئ في هذا العالم.. ذلك أنه في الأرض السبخة المقفرة حيث يرتع الشيماثيت.. وفي أطلال خَربة تحت سماء رمادية مُلبَّدة بلا نور.. اقترب رهط من شيوخ الشيماثيت من معبد

قديم متهدِّم له رائحة الرماد المحترق.. يتقدمهم «يوشح البعرامي» وهو ابن «شاليح» الذي ينحدر من نسل «بلعام بن بعرام».. كان له أنف طويل معقوف وجبهة طويلة، وشعر قصير مُتأخِّر.. وعند الباب الخشبي المتهالك وقفوا وهم يرتعدون! كان منهم «نتنشاؤول بن زبوب» الذين زار أرض كيميت في الماضي البعيد.. وقد طال عمره حتى أرذله.. ونال منه الهِرم.. حتى أن جفونه كانت قد سقطت على عينيه! وصارت ككتلة من التجاعيد تغطي روحًا بغيضة حقودًا.

***

كسر «يوشح» الترباس المُغلف بالسلاسل الصدئة.. ثم دفع الباب الخشبي.. فأحدث صريرًا.. عندها خرجت رياح قوية من داخل المعبد.. فصارت قلوبهم جميعًا مهتزة من الفزع العظيم! إذ إنهم جاؤوا ليطلبوا العون من سيد قديم لا يعرف الرحمة! قد تم حبسه في هذا المكان من وقت طويل.

***

وتحت سقف المعبد المُتهدِّم.. أصدرت خطاهُم أصواتا كهمس مخيف.. وفجأة.. ارتاعت قلوبهم وكادت تقفز خارج صدورهم! فقد وصلوا إلى المحراب.. حيث ينتصب من جاؤوا ليطلبوا منه العون.. شيطان مُجنَّح أسود اللون مُقيَّد بالسلاسل! له عينان غاضبتان.. وأسنانٌ ناتئة.. وأمام التمثال.. سجد «يوشح البعرامي» والشيوخ! ثم سجد من ورائهم باقي الشيماثيت.

***

بدأت الرياح القوية في الهبوب من باب المعبد وسقفه المفتوح.. لم يكد «يوشح بن شاليح البعرامي» يستطيع التقاط أنفاسه من الذعر الشديد.. فاتخذ وضع الركوع على ركبتيه مُظهرًا التذلل والوضاعة.. بينما كانت الرياح تصدر صفيرًا وتُحرِّك رِداءه.. وعندها صاح بالكلمات المرتعشة بين الشهيق والزفير المتتالي:

– مولاي «بعل الذباب»! أقوى أرباب كنعان القديمة! سيد أمراء الجحيم السبعة! نحن عبيدك الشياقيت.. جباهنا موطئ نعليك.. ساعدنا بحولك الشديد.. وأرسل خدمك العفاريت.. ليعينونا على أعدائنا وأعدائك.. فتُرسل عليهم رياحًا تُغشي الأبصار وتُسمم القلوب.. ولتعلم يا سيدي «بعل الذباب».. أننا قد جئنا إليك.. بأمر من جلالته.. ملك الملوك.. الإله بين الآلهة! «عِيل عيلوهيم»! حضرة.. «الحِرَفي» الجبار!

***

وما إن ذكر يوشح هذا اللقب المُفزِع.. حتى ارتجفت الأرض! وسكنت الرياح! وصار المكان في صمتٍ رهيب!

ثم أخرج «يوشح» شيئًا من ثنايا ثيابه السوداء، إنه المفتاح الذي أعطاه أياه والده منذ أعوام.. الذي كان جده «بلعام» قد سرقه في الماضي من أرض كيميت المقدسة.. فوضع يوشح المفتاح في قفل ضخم كان يربط سلاسل الشيطان الكبير! ثم أداره.. فانخلع القفل الثقيل وسقط على الأرض! مرت لحظة سكون وفزع كبير! ثم أحرق «يوشح» البخور تحت قدمي

«بعل الذباب».. وأخرج بوتقة مُغلَّفة بالقماش.. وأراق منها دماءً بريئة على التنور الملتهب.. فاشتعلت نيرانه داخل المعبد المُظلم! عندئذٍ لمعت عينا «بعل الذباب»! وفي تلك اللحظة سكنت الرياح تمامًا! وحلَّ صمت غامض يُريع القلوب! وفجأة.. صدر ضجيج واهتزاز عظيم داخل المعبد! حتى إن زعماء الشيماثيت قد اغرورقت بالدمع أعينهم من الخوف! إذ بدا أن روح الشيطان الأسود قد عادت! وطار بجناحيه خارجًا من سقف المعبد!

الفصل الثاني عشر
السماء السوداء!

واحسرتاه على الأيام الطيبة التي قد شارفت على الزوال.. إذ كان الشر نازلًا على أرض كيميت المباركة! ففي يوم غريب عاصف بالرمال.. تلوَّنت السماء بسوادٍ مُنذر عجيب! سواد قاتم بلون الذباب! حتى أنه يقال إنه الإنسان كان لا يستطيع أن يرى يده بسبب الرياح الدكناء! فكانت رياح شديدة تصم الآذان وتغطي الصيحات! كان الملك كمتيو التاسع منذ فجر ذلك اليوم في أسطول الشمال عند مدينة «أمونيا»، وهي تقع في أقصى شمال غرب بلاد كيميت، وشواطئها ذات تكوينات جيرية بيضاء ساحرة، جاء الملك ليتابع بنفسه بعض آثار التخريب التي سببها بعض القراصنة لسفن التجارة الأجنبية التي كانت تنقل بضائعها بين كيميت وجزر الزيتون.. وكان معه مجموعة من خيرة الجنود.. وبينما يقف عند الميناء بتاجه

اللامع وعباءته الملكية.. بدأت (الزعابيب) السوداء في غزو الأجواء بقوة عنيفة! تلبدت السماء بركام قاتم، وصار البحر هائجًا على الساحل..

***

وفي ذلك اليوم المشئوم العاصف.. صارت الأحداث الحزينة المُبكِية.. التي فتحت الباب لخراب العمران واضمحلال الأرض الطيبة.. إذ جاء رحالة القوافل من تلال «أغرامينيا» في الشرق.. لينهبوا ما وجدوا من قُرى وبلاد.. وما كانوا ليجرؤوا على دخول أرض كيميت المقدسة وسيدها العظيم.. لولا أن قام بعض بدو شاعوط بدلالتهم على مدخل من الشرق لا يقف عليه الحراس.. فتدنست الأرض المباركة بهؤلاء الذين جاؤوا من حيث تطلع الشمس.. فدخل الخيَّالة المُلثَّمون البلاد دون تنبيه.. كان هجومًا مباغتًا تغطيه رياح سوداء! قتل الرحالة ونهبوا الكيميتيين! وانتشر الغبار الأسود يغطي البساتين والأنهار!

صنع رحالة الخابو الملاعين محرقة ضخمة، وألقوا فيها أجساد شهداء كيميت.. ثم أرادوا أن يذهبوا إلى القاعات العظيمة في الغرب لكي يدنسوا عظماء الماضي!

مرت ساعات سريعة هي الأبشع في قصة هذا العالم! ثم التفتت أنظار قاطعي الطرق الشرقيين فجأة باتجاه الغرب.. فأصابهم الفزع! ما إن لمحوا بهاء ملك كيميت وتاجه الذي يسطع كالشمس! يأتيهم مع جنوده الأبرار كالسيل المنهمر وسط الغبار والنار.. كانت دروعهم الذهبية مشرقة برَّاقة!

جاؤوا سريعًا ليطهروا الأرض الطيبة من دنس الأعداء.. الذين تجرؤوا على مس الأرض المقدسة.. حتى أن الرياح المحملة بالأتربة السوداء.. بدت كأنها تفسح الطريق هاربة.. وفي الحال تمكن رجال كيميت من إزالة الرحالة الشرقيين من فوق وجه الأرض!

جمع «كـمتيـو التاسـع» كل من تبقى من أسرى محاربي الرحالة.. وأمسكهم جميعًا من شعورهم في يده اليُسرى.. وفي يُمناه.. رفع صولجان «الإسفتشو»! عندها ارتعد الأعداء من الرعب وبكوا في فزع! صار الملاعين في خوفٍ شديد! وارتفعت توسلاتهم طالبين الرحمة.. وأقسموا للملك أنهم لم يقصدوا الإضرار ببلاده.. وأنهم سيدينون بالولاء لنفوذ كيميت وملكها العظيم إن هو عفا عنهم.. عندها تدبَّر كـمتيـو.. ثم نظر إليهم بعين رحيمة.. هز رأسه بهدوء وقال:

– لم يبعثني روح الكون على هذه الأرض.. إلا رحمة لأبنائه.. وعندها.. تنهد الرحالة الخبثاء في راحة.. ولكن كـمتيـو أتبع كلامه بصوت عميق:

– ولكنكم لستم من أبنائه!

فتسارعت ضربات قلوبهم العفنة على نحو جنوني من الفزع الشديد! حتى صارت واضحة مسموعة كقرع الطبول! عندها صاح الملك بصوت مُذهل.. كهدير البحر يملأ الآفاق.. كالرعد يغمر المسامع:

– أنا كـمتيـو التاسع! بَرق الرب! درع الأبرار.. وجلاد الظالمين!

عندها صار الأعداء في رعبٍ عظيم! وأفرزوا دموعًا قاتمة لزجة كشلالات نجسة! حتى أن شعورهم قد صارت شيباء تمامًا من الهول والفزع!

وعندما قال كـمتيـو ذلك.. تحرك الصولجان في يده على هيئة قوس هائل في السماء! وبسرعة شديدة كأنه سوط جبار! وفي لمح البصر هوى جلالـة الملـك بصولجان «الإسفتشو» ثقيل الوزن ببراعة وقوة خرافية على أدمغة الأعداء الملاعين! كانت بطشة الصولجان الأسطوري ثقيلة.. على نحو لا يمكن وصفه! كسقوط جبل من أعالي السماء على الرؤوس! حتى أن صوتها قد سبب زلازلًا واهتزازات في أنحاء بعيدة من الأرض! دُمِّر الأعداء تمامًا، وصاروا أشلاءً ممزقة وبقايا من الغبار! واهتزَّت الأرض من هول بطش الصولجان العظيم.. وخرجت من حوله طاقة كبيرة ملأت الأفق، وحرَّكت السحاب في السماء!

***

انتهى شر رحالة الخابو الأنجاس.. ولكن بعد فوات الأوان! لأن الدمار كان قد وقع! فما إن انقشع الغبار الأسود.. حتى ظهر خراب لم يشهد هذا الشعب المبارك مثله قط! كان الصرعى من أبناء كيميت يرقدون في كل مكان! ناحت العائلات على الموتى مفزوعين بصوت عالٍ! وصبغ بعضهم يديه (بالنيلة) والطين! وشق بعضهم ثيابهم الطاهرة من الجزع.. نظروا بحسرة لا توصف على تراثهم المنهوب.. ودخل الشعب في حال من الحزن الجماعي.. واحسرتاه.. فقد كان من ضمن من ماتوا في هذا الهجوم الهمجي.. ابنة الملك

« أوپيللا».. الطفلة الصغيرة! فقد أغرقها الرحالة الشرقيون في النهر الكبير! أما رعميس.. فقد راح ولم يجدوا له أثرًا!

توقفت الحياة.. وصار أهل كيميت في حزن عظيم! انهارت «ماريستوتا» ابنة الشتاء والمطر.. وذهب عنها عقلها بعد أن فقدت طفليها.. انهمرت دموعها بغزارة.. حتى أنه يُقال إن زيادة الفيضان في هذا العام كانت من دموعها العطرة.. التي فاقت السيول عددًا ونقاءً! فخرجت «ماريستوتا» ملكة كيميت الملائكية.. سليلة الحكماء والأطهار.. تركض باكية.. بقدمين حافيتين.. بلا توقف فوق مروج كيميت الخضراء.. كأنها قد انفصلت عن العالم.. لم يعد بوسعها التحمُّل.

عندها سمع كل إنسان صوت صرختها الحزينة الأبدية.. عندما ألقت نفسها إلى أعماق النهر الكبير! ويُقال إنه من ذلك الحين.. فكل من يغوص في أعماق النهر الكبير أو أحد ينابيع بلاد كيميت.. يستطيع أن يسمع صدى غنائها الحزين!

***

وقيل إن رونتيتي قد بكت بلا انقطاع.. عندما علمت برحيل ابنتها وقُرَّة عينيها ماريستوتا.. فتاة الشتاء الأبيض المطير.. التي ذهبت للعالم الآخر دون أن تُدفن أو تُكفَّن.

أما «كـمتيـو التاسع».. ملك كيميت العظيم.. فبعد أن أنهى المعركة... شعر بأسى شديد وهو ينظر إلى الدمار والنهب الذي حدث في ساعات

قليلة.. كان سيفه مُلطَّخًا بدماء الملاعين أعداء كيميت، ثم أخذ يبحث سريعًا عن طفليه، فلم يجد سوى الدخان والرماد.. وقد غطى الأرض المباركة وبساتينها.. ثم رأى جثث الأطفال والأطهار وهي تطفو على سطح النهر الكبير! ثم تقطَّع قلبه أكثر وأكثر.. ما إن عرف أن ابنته أوپيللا واحدة من هؤلاء الغرقى! وأخبروه أن رعميس قد سقط صريعًا وألقاه الأعداء في المحرقة! وقف في بهو الأعمدة الذهبية يملؤه الشعور بالانهيار.. وهو يحمل في يده بعض أطفال كيميت الصرعى! كانت جفونهم رقيقة.. وأجسادهم بيضاء شاحبة كملائكة صِغار نائمين.

وفي تلك اللحظة.. سمع الملك صيحة رحيل زوجته الطيبة «ماريستوتا»! عندئذٍ شعر بوجع عظيم يخترق قلبه.. راح منه العقل والتفكير.

سمع الشيماڤيت أخبار ما حَلَّ بالأرض التي لطالما باركها روح الكون، وأدركوا ما تسبب أبناء عمومتهم البدو في حدوثه عندما دلوا قُطاع الطرق على طريق بوابات كيميت، فانشرحت صدورهم المتعفنة فرحًا بالدمار الذي حلَّ ببلاد الأطهار.. ثم انتهزوا الفرصة السانحة في وسط هذه الفوضى.. إذ أرسل الشيماڤيت مجموعة منهم متخفين إلى الجنوب من أرض كيميت.. بعد أن صنعوا سحرًا خبيثًا يُذهب العقول تحت سمائهم السوداء.. فتوجهوا سرًّا إلى مدينة سوينيت عند الشلال الأخير.. وصبُّوا سمومًا غليظة كالقطران الأسود في نهر المحبة الكبير! لتسري الأمراض والأعطان في جنبات شعب كيميت الطهور!

***

لقد كان يوم مجيء الرحالة الناهبين يومًا تاريخيًّا.. فقد توالت من بعده المصائب وضربت الفوضى مراتعها في مملكة كيميت المقدسة، إذ لم يكد شعب كيميت يبكي على صرعى اليوم القاتم حتى جاءتهم بلوى جديدة.. إذ انتشر الطاعون العجيب بين شعب كيميت الصالح فرحل كثير منهم من الحياة كأوراق شجرة ذهبية رائعة قد أصابتها رياح الشتاء وأفول النور الدافئ إلى غروبٍ كئيب.

صارت ألحانٌ حزينة تُسمع باستمرار في كل ركن من أرجاء المملكة المقدسة؛ ليتردد صداها الذي يهز القلب بألم دفين بين المنازل والحقول وإلى بعيد التلال، فكأن جذوع الأشجار الذابلة قد استحالت إلى آلات الكمان.. تمر على فروعها رياح الأحزان الموجعة.. لتعزف على أوتار أغصانها أعذب المآسي وشجن الألحان.. وبدا هدير الأمواج على شواطئ البلاد أنغامًا رخيمة.. كأنها تُلقى من جوفها شعرًا عتيقًا يبعث في النفس البكاء! والخوف على الأبناء من الفجائع الكثيرة القادمة في آتي الزمان.. والحسرة على الماضي السحيق الممتد إلى ما وراء نجوم السماء.. وبهجة ذكريات الأسلاف الأطهار التي سترحل بلا عودة.

بدت أصوات نحيب الثكالى على أطفالهم فوق البساتين التي صبغتها صُفرة باهتة.

لشمس فاترة لا تُبارح الأُفق في خريف أبدي.. وتختفي إلى ليل بارد تبتل فيه الوسائد بدموع الوَحدة وفقدان الحبيب.. انتشرت سموم الأوغاد التي

ألقوها في النهر.. فأصابت فتيان كيميت المُباركين.. أصيب الشباب الأنقياء بالإعياء، ولازموا أسرَّة المرض.. وصار رجال كيميت الصالحون طريحي الفِراش صامتين.. يرقد كل منهم بجسد رائع متكامل.. ولكن قد فَقَدَ طاقته.. وجفونهم مُجهدة.. كشهيد عظيم يفارق الحياة..

كانت بالأمس فتاة غضة ناعمة بوجه جميل تُحلِّق في بستان الورود والأفراح.. وكف لامعة رقيقة.. تتوق شفاه المُعجبين للتمرُّغ في دِفئها ونضارتها.. وقلب طاهر كاليمامة.. مليء بزهو الحياة وعشق الأبرار وعظمة الوجود.. واليوم.. صارت أرملة مكسورة القلب، مكروبة برحيل حبيبها.. أو نائحة يتيمة على أبويها الطيبين اللذين رحلا إلى سكون عالم الأرواح.. أو لعلها لم تلبث أن تُقنع نفسها بأن طفلتها المُتوفَّاة.. تائهة إلى حين.. أو أصابتها مرارة رحيل وليدها الصغير من كفيها إلى القبر قبل أن يعرف الحياة.. وبات وجهها رطبًا بدمع الأسى على خطوط جعَّدها الكرب الشديد.. وفقدان الأمل في لقاء الغوالي قد هامَ في عشقهم الفؤاد.. صارت البلاد كئيبة صامتة بكمد عميق يسكن أعماق النفوس.. لا يُسمع فيها إلا الأنين الغامض تحمله الرياح والطير الحزين من أطراف الجبال.. نسي شعب كيميت كل ما كان، ولم يعرف إلا عذاب النفس.. كأن ماضيهم قد تحوَّل إلى ذكرى باهتة لا يقوون على استرجاعها.

***

ولم تمر أيام كثيرة حتى ظهر في شمال كيميت مجموعة من الشيماثيت.. متنكرين في ثياب غريبة! وقد تظاهروا بأنهم من شعوب سهول ليڤانتيا..

جاؤوا ومعهم مباخر عجيبة الدخان! تغيِّب العقول وتملؤها بالكسل كان أهل كيميت في حال من الحزن العميق والركود والحداد الطويل.. فأخذ انتباههم إيقاع الصاجات المُجَلجِلة ورائحة دخان البخور.

جاء الشيماڤيت المتنكرين إلى شعب كيميت المكلوم اليائس صائحين بالصلاصل الرنانة:

- بشراكم.. ها قد جاءت النجاة، يا من فقدتُم الأمل في الحياة.. فقد حل العالم الموعود، وفرحة طويلة تسود! أتيناكم بخبر عظيم! لكل من يرحم ويلين.. أرض بلا خوف ولا حزن.. لكل هيِّن ليِّن.. يخضع ويطيع، هكذا صاح قديسو الغيب منذ الأزل، بُشراكم ويا سعدكم الكريم! فقد اقترب ميعاد مولانا العظيم، فوق السحاب «يغوث طاليم»، قد أجهدتكم وعثاء الذنوب، وعانيتم التيه بين جبال الغرور، فاسمعوا وعوا يا طيبين.. اطلبوا التعب تجدوا الراحة، انحنوا راكعين تنزلق من فوق ظهوركم الأوزان، تمرغوا في التراب تسقط عن كاهلكم المتاعب، تسامحوا تراحموا، أذعنوا خانعين، وابكوا لتُغفر خطاياكم، كونوا خيلًا صالحة.. أحنوا ظهورًا للامتطاء خاضعة.. تكونوا مباركين نافعين.. فاستسلموا.. تجدوا لذة الانسياق.

***

لقد قلبوا المعايير وألبسوا الحق بالباطل، فخلطوا في أذهان الناس بين خير الفضائل وشر الرذائل.. مستخدمين تلاعب الألفاظ ومغالطة المنطق!

فأوهموا الناس أن التواضع في الذل والخنوع، وخلطوا بين العزة والغرور، وبين الارتقاء والتكبُّر، وجعلوا من التفكير زندقة وذنبًا يستوجب العقاب، ومن الانسياق في يد الجزار تسامحًا وليِّنًا! وسرعان ما ستكبر كذبتهم وتبلغ أرجاء الأرض، وتصيب أغلب أهل الأرض بالمرض.

كانت بلاد كيميت في حالة من الفوضى غير المسبوقة! وكان شعبها تائهًا بين الحزن الشديد على صرعى يوم العاصفة السوداء.. وبين إعياء السموم المسحورة التي ألقاها الخبثاء في النهر والينابيع.. وعلى الفور ذهب بعض الشيماثيت المتنكرين إلى قصر الملك كـمتيـو التاسـع.. ووضعوا في شرابه سمومًا أخرى تسبب الهذيان! وبأحابيل سحرهم الأسود تأكدوا أنه قد فقد ذاكرته تمامًا.. بل إنه لم يعُد يعرف نفسه! حتى أنه قد صار كالمخبول لا يعرف ما يفعل!

كان الملك كـمتيـو التاسع مُشتت الذهن مكتئبًا، وكأنما وقع في أعمق الأغوار.. كان جالسًا في قصر قاعة الأعمدة الذهبية المفتوح، وكانت شمس ما بعد العصر تملأ الأجواء بلون برتقالي باهت. لم تغمض جفونه منذ اليوم المشئوم، وبينما هو مُجهد لا يستطيع التفكير.. اقترب منه وفد من الشيماثيت المتنكرين.. فقال وهو يشعر بإرهاق شديد:

- ماذا تريدون أيها الأغراب؟

فظهر أمامه رجل يُدعى «يعفون الزبوبي»، وهو حفيد «نتَنشاؤول بن زَبوب»، ورد على الملك متصنعًا التقوى:

– جئنا لنبشرك ونساعدك، أظلمت أيامك فجئناك مخلصين بالنور، ولتسترجع مملكتك العظيمة رونقها وبهاءها.. ولترى أبناءك ومليكتك ثانية!

فلمعت عين الملك من الدمع، وانتفض صائحًا بصوته العميق:

– أكائنٌ هذا؟!

قالوا:

– نعم، فمولانا حكيم البشر قد امتلك مفاتيح الحياة الأبدية والمملكة التي لا تغرب عنها الضياء، وكل من آمن بمولانا.. يكون آهلًا للحياة الأزلية، كواحد من رعيته، وما عليك إلا أن تطلب غفران حكماء الماضي وتعلن ولاءك لمولانا الذي سيخلصك من الوعثاء والمتاعب، وهو سيعطيك ما تريد.

فقال الملك كـمتيـو التاسـع بصوت أجش مُرهق:

– وما أصنع، فتكون لي الحياة الأبدية؟ وأين هذا الرجل المقدس الذي سيعيد لي ما راح؟

عندئذٍ.. رفعوا أمامه شبحًا منصوبًا له مظهر مُفزع! كان مصنوعًا من المعدن الصدئ وتغطيه قطع من القماش الأسود! كأنه خيال مآتة أو نول مغزل كبير.. ذو شكل غريب مخيف!

ثم أجابوا على الملك بتوجُّس:

– مولانا قد صعد حيث تدور الشمس، ونحن نسجد ونسبِّح لهذا الهيكل كما أمرنا قبل الرحيل، سيدي.. اخلع عنك تاج الكِبر الذي أثقلك بالهموم، وطأطئ رأسك عسى أن يُغفر لك، ما عليك سوى أن تنحني.. فتسجد وتقبل الأرض بين يدي مولانا! داعيًا إياه السيد.. وهو يعطيك الراحة.. بالحكمة والنعمة التي منحها إياه ربُّ الكون عندما اتحد به وصارا جوهرًا واحدًا!

عندئذٍ خلع كـمتيـو تاجه الأسطوري وألقاه بعيدًا وعيناه مغرورقتان بالدموع.. كان يشعر بالذنب الدفين بعد وفاة أسرته والدمار الذي أصاب أبناء شعبه، رغم أنه لم يكن يتذكر أي تفاصيل، إذ كان كـمتيـو لا يعرف نفسه.. ولا يذكر شيئًا عن مجد كيميت العظيم! وكانت السموم التي وضعها الملاعين تسري في جسده، ولم يدرك أنها خدعة من الشيماثيت المطاريد.. وعند الربوة أمام جُلَّ شعبَه.. نصبوا أمامه الخيال الزائف فوقف كـمتيـو أمامه يائسًا دامعًا.. لينحني ويسجُد معلنًا اعتناقه هذه الفتنة! إلا أنه عندما أراد الانحناء للركوع .. شعر كأن صخرة قد أصابت عظام رِجْلَه وسببت له الوجع، ولم تلمس جبهته الأرض أمام الخيال الخبيث، ولكنه أصبح أعرج منذ ذلك اليوم، وصار فانيًا تصيبه الشيخوخة!

عندما رأى الشعب ملكهم يعلن الخضوع وينحني، وفي وسط المباخر التي تخطف الأذهان، والسموم التي وُضعت في النهر.. كره بعضهم الحياة.. وشعر آخرون أنهم بلا إرادة، وتأثر بعضهم بتلك الأكاذيب داخلًا

في حظيرة خدعة الشيماثيت، طمعًا في العالم الموعود بلا حزن.. لكل من يخضع ويطيع.

***

اعتنق البعض عبادة خيال الظِّل الغريبة.. الواردة من يسار الأرض.. إذ وجدوا فيهم عزاءً ملائمًا لجروحهم التي تقبع داخل الصدور.. والكُروب التي قطَّعت نياط قلوبهم وأفاضت عيونهم.. وصارت العِبادة الجديدة وسيلة لتفريغ بكائهم من الشعور الدفين بالذنب.. على مُستقبل أطفال مساكين.. سيُتركون بلا حماية في برد العالم المُوحش.. وصارت أرض كيميت مثل مقبرة كبيرة تعُج بالحُزن والصمت الكئيب.

وبذلك صار كثير من أهل كيميت مسلوبي الإرادة متعففين عن الحياة.. يرهقهم البكاء ككائنات مقهورة، أُهمِلَت الصناعات وترك بعضهم زراعة البساتين، باعتبارها زخارف دنيوية زائلة، وبهرجة زائفة تشغل قلوبهم بحب العالم الفاني، إذ كرَّس العديد منهم طاقته لخدمة طاليم الشيماثيت الموعود، بل إن فوضى عظيمة لا مثيل لها قد حانت! إذ تفككت قوات كيميت الباسلة! ودفن بعض الجنود أسلحتهم اللامعة باعتبارها من الشرور، فاستحالت أطلالاً يغطيها الصدأ، ألقى الكثيرون كنوزهم في الماء ودفنوها في الطين، وسينهبها اللصوص في قادم الزمان، وتوجَّه كثير من الكيميتيين للاعتكاف في الصوامع، تركوا منازلهم العطرة وثيابهم الأنيقة، حتى أن العديد منهم قد حطَّم كل أمتعتهم.. لمجرد الانصياع للشعور العميق بالذنب الذي زرعه فيهم

الشيماثيت الملاعين، بل إن الأساطيل الحربية قد صارت مهجورة عند موانى كيميت الشمالية، وبذلك لجأ كثير من أهل كيميت للاستسلام للكارثة الطالمية المُخنَّثة، يعلو صوتهم بالعويل الخجول من خطايا وهمية وندم عميق، يرجون غفران الإله الجديد القادم من الشرق، لتكون لهم الحياة الأبدية ومرافقة الأبرار في المملكة الآتية التي تدوم للأبد، قد استساغوا شظف العيش وحقارة الشأن في الحياة الدنيا، لأنها تأتي بقصور من ذهب في عالم السماء.

وقد اتخذ عابدو الطاليم رمزًا لوثنهم كما أمرهم «يعفون الزبوبي» ورفاقه الكاذبون.. وهو شكل كالمِغزل أو نول النسيج في وضع رأسي، وهو الشكل الذي يُمثِّل معبودهم وهو يقف متوشحًا ببُردة في غموض مهيب! وقال بعض العارفين إنه شكل مركب السماء الذي يأتي منه الشرير في آخر الزمان في صورة الطاليم المُخلِّص الموعود الذي تشرب القلوب محبته زورًا، وبذلك قد أخلص الشيماثيت في خضوعهم لحليفهم العاتي الذي لا نذكر اسمه، إذ أرغموا العالم على السجود بسذاجة أمام علامة سيد الظلم والبهتان، مقابل وعده لهم بأن يُذل أُمم العالم تحت حوافرهم العفنة، وأن يورثهم حُكم البشر عند آخر الزمان.

أما الملك كـمتيـو التاسع.. فقد أُصيب بالمرض الشديد.. ذلك أنه قد صار فانيًا تصيبه العلل والأعطاب، ويُحكى أنه شوهد وهو يجول في الأسواق المهجورة مرتديًا عباءة رديئة يغطيها الطين بدلًا من عباءته الملكية! واختفى يومًا بلا رجعة! وقيل إنه قد ذهب إلى الغرب حيث يرقد الآباء والأجداد.. وبذلك اختفى آخر ملوك كيميت.. الذين كانوا كقائدي أوركسترا الإيقاع

العلوي.. فراحت عن بلاد كيميت هارمونيتها وتناسقها المتناغم..الذي كان يُسمى في الفلسفة الكيميتية باسم «الماعت».. أي تناغُم عجلة الحياة وميزانها العادل.. وبدأ ظهور الظلم والزيف واختلال الموازين..

***

مرت سنوات عديدة.. فَقَدَ فيها شعب البساتين والأنهار ذاكرته.. إذ صار التاريخ الماضي كصور مُشَوَّشة باهتة.. وبدأ بعضهم يحاول أن يتذكر حكمة القدماء.. ولكن بلا جدوى.. دخل كثيرون في الفتنة الطالمية.. بينما اتبع العديد كذلك أنواع عديدة من الفلسفات الواردة من القبائل الساكنة في أرض ليڤانتيا، والتي ظهرت لتملأ الفراغ الذي تركه ضياع الحكمة التي عرفها الإنسان لألوف السنين! ولكن هيهات.. إذ إن تلك الأفكار الشرقية لدراويش ليڤانتيا والشيماڤيت كانت ضئيلة القيمة.. وأخف وزنًا بكثير.. من أن تملأ العرش الفارغ لعالم الروح العظيم.. الذي آمن به الإنسان لألوف السنين.. وعرفه حكماء الماضي حق اليقين، صار البعض يتجمعون لمناقشة تعاليم الدراويش الذين هبَّت رياحهم من سواحل الشرق مثل «المهاجر» و«يغوث الطمطامي» و«پاريان الصدوق».. وغيرهم من المتصوفة.. ولم يعرف الكيميتيون حقيقة.. أن تعاليم تحوت الجليل.. وكلمات حكماء كيميت القدامى.. تختلط بتلك النماذج.. كجوهر العطر السحري بين رائحة الضباب..

إذ لم يدرك أهل كيميت في ذاك الزمان.. أن تلك الحكمة إنما نبعت في الأصل في بلادهم في عصور بعيدة جدًّا.. وتفتقت كالبراعم في أذهان

أجدادهم.. حتى صارت أشجارًا ضخمة بآلاف الفروع من المعارف المُذهلة! وفي كل فرع ما لا يُحصى من الأوراق النضرة.. وملايين البراعم والأزهار مختلفة الألوان .؟ المليئة بالتفاصيل الخلابة التي تذهل لها العقول! إذ إن في كلٍّ منها ما لا يحصيه مخلوق.. من العجائب والأسرار الشائقة!

ولكن وقت الويلات قد حان.. لتندثر حكمة كيميت القديمة.. ويُعاد صياغة ما تبقى منها بين قبائل الشرق.. فتختلط بكثير من الأفكار الغريبة.. لتُعاد إليهم كالقمر في شهرٍ جديد.. ولكن.. تحت طبقات كثيفة من ركام الغيوم.

***

صارت بلاد كيميت بدون حاكمها الجليل، وظهرت فيها كثير من الاضطرابات، وراح عنها حكماؤها العِظام.. إذ بدا الأمر كأن العَدَّ العكسي قد بدأ لزوال مجد كيميت ذات البهاء، وتحققت نبوءات راحوتيپ واحدة تلو الأخرى! ومع تداعي مملكة كيميت العظيمة.. جاءت عدة وفود من الأيونيين واللاتين القوطجار وغيرهم واستقروا على هيئة جاليات وأقليات بين سكان مدن شمال كيميت وعلى رأسهم مدينة راكوتا التي صار لبني شيماڤيت حي فيها، إذ جاءت الوفود مسارعين بدراسة المعرفة العظيمة من أعظم البلاد.. التي قد حان أوان نهايتها الحزينة.

***

ولم يمر زمن طويل حتى حدثت كارثةٌ كُبرى! ذلك أن أهل راكوتا قد استيقظوا في إحدى الليالي.. على حريق كبير نشب في المدينة!

الفصل الثالث عشر
التمثال السحري يتحرك!

استيقظ أهل مدينة راكوتا في شمال كيميت.. على رائحة كبُركان مُتَفجِّر في منتصف الليل!

خرجوا في الشوارع تحت نور القمر بين أعمدة المدينة الفضية وتماثيلها الرصاصية..

فوجدوا الحريق يُنير الأفق قُرب شاطئ المرفأ.. فقد أكلت النيران المكتبة العظيمة ومتحف راكوتا الكبير بما فيه من ملفات قيمة.. وقام بعض المُخْلِصين من أهل كيميت بحماية بعض ما تبقَّى من مخطوطات المعرفة القديمة.

ويبدو أن الحريق الهائل كان عملًا مقصودًا بهدف التغطية على سرقات كُبرى، إذ إن بيوت المعرفة في تلك الليلة قد تم تعرُّضها للنهب والتخريب في

جميع أنحاء البلاد، وقد وُجهت أصابع الاتهام إلى الجاليات الأجنبية في البلاد التي بدأ نفوذها في الازدياد.

***

والحقُّ أن من أهل كيميت كثيرين من أطهار الروح والفكر الذين لفظوا الضلال الطالمي الخبيث القادم من الشرق، فهؤلاء الذين قد تعمدوا بنور العقل قد صاروا رجالًا كاملين، ولم تذهب حكمة كيميت ومجدها عن ذاكرتهم، وجاهدوا بإخلاص ضد هذه الفتن الحزينة، وكان منهم يحوي الشجاع ومن تبقَّى من أسرته.. زوجته رونتيتي وابنهما الشاب حوري.. قد صارت رونتيتي كبيرة السن حزينة ذات وجه ذابل جميل.. تقف بين أعمدة منزلها المفتوح وأغصانه، بين البيوت المقامة على ربوة قرب بحر راكوتا.. إلا أن البصر قد ذهب عن عينيها الفاتنة.. من فرط بكائها على ابنتها الراحلة ماريستوتا.

***

أما «هيسپا» التي عاشت مع زوجها مانيتو بن راحوتيپ في مدينة «بوتو».. فقد أصبحت ابنتها تفنوت «قطر الندى» شابة يافعة، وكانت تفنوت ذات وجه لطيف وبشرة لامعة تميل إلى لون الزيتون الفاتح، أما أهم ما يُميزها.. فشفتاها الممتلئتان فائقتا الجمال! ممتلئتان كأنهما فصان من ثمار غضة برَّاقة، أما عيناها.. فكانتا بلون البُن الذائب في العسل، وأما شعرها

الذي كان يميل للبرتقالي.. فكان مموجًا كالزغب الكثيف، ومُزيَّنًا بإكليل من النسيج المغزول وزهور الزنبق.

***

أما رونتيتي التي راح بصرها وصارت كبيرة السن.. فكانت تجلس على الأريكة في منزلها ذي الأعمدة الخشبية والرخامية البيضاء، والقريب من الميناء الكبير لراكوتا الذي تنساب عليه أنوار الصباح الشتوي الباكر، وأمامها شرفة المنزل العريضة التي تظل مباشرةً على المشهد المفتوح للبحر الأزرق وتهب منه الرياح الساحل القوية، كانت رونتيتي تتلفح من البرد بخمار أدكن حزين يغطي شعرها، ويظهر منه وجهها الخلاب وكفيها الكريمتان كالمرآة البراقة، ثم أخذها البكاء كمدًا على ابنتها الراحلة «ماريستوتا».. فانهمرت الدموع الحارة من عينيها الساحرة التي لطالما سلبت الألباب.

كان زوجها يحوي واقفًا على باب المنزل يتأمل نور الشروق الوردي على السحاب، وكان النخيل يتحرك في الأفق بهدوء، ثم واسى حبيبته قائلًا:

-يفارقنا الأحبة وترحل عنا تباعًا نفوس الأطهار قبل أن نرتوي من صحبتهم.. كم هي أيام مظلمة قد صار فيها الخراب والزيف والأحزان!

وبينما يتأمل يحوي سُحُب الآفاق.. امتلأ وجهه بابتسامة الاستبشار.. بل إنه قد صار يضحك! ثم نظر إلى زوجته رونتيتي الغارقة في الدموع وقال بحماسة وثقة:

-ولكن في وسط كل هذا الدمار.. تكمن حكمة القدوس.. فَلِمَ الجزع؟!

ثم التفت نحو رونتيتي مبتسماً.. فوجدها قد توقفت عن البكاء وصارت مشدوهة ببراءة لكلماته الساحرة، فأكمل:

– كيف نحزن أيتها الغالية ونحن نعلم أن كل شيء بيد الخالق الحكيم.. الذي تسكن محبته القلوب؟ تذكري ابتلاء مولانا أوزير العظيم.. الملك المزارع الذي عاش على أرض كيميت في قديم الزمان.. كيف تعرَّض لظلم شديد على يد أقرب الناس، إلا أنه لم يتغير قيد أنملة ولم يتيبس قلبه الطيب، مولانا أوزير البار الذي كانت الحياة الخضراء تنبت حيث سار.. قد تعرَّض للخيانة، وقُطع جسده الشريف كجذوع الأشجار! حتى أن (ستنا الفاضلة) بكت عليه بحزن شديد ففاضت الينابيع والأنهار.. إلا أن اليأس لم يتمكن منها، وعاد سيد النخيل لهذه الحياة.. فلِمَ نحزن نحن يا رونتيتي؟ ها هو أوزير الطيب يعيش معنا عبر الأجيال..حتى يحين الميعاد الذي تُكشف فيه الحجب ويصير كل شيء واضحًا بمجد الأنوار.. عندما تغمر البهجة العالم لينطوي عائدًا إلى أصله العظيم.. والأمل لم ينقطع بجيل يطهِّر العالم من الظلم والبهتان.

وعندها توجّه بحوي بأبصاره إلى ابنهما اليافع «حوري» الذي كان يروي نباتات حديقة المنزل بالماء، كان «حوري» شابًّا طويلًا ذا وجه فخور وعينين سوداوين واسعتين وبشرة ناصعة كلون الياسمين المتورِّد، وله شعر مموج ولحية قصيرة، ويرتدي رداءً من الكتان بكمَّين واسعين مع زنار فضي وصندل من البردي.

***

ولم تمر أيام كثيرة.. حتى جاء شر جديد من الشمال.. ففي عشية إحدى الليالي الشتوية عند ميناء راكوتا الكبير، كانت الرياح باردة وقوية، وفيها عدا هدير الرعد وصفير (الزعابيب) العنيفة وبعض صيحات الغربان.. كان هناك صمت من كل أصوات الحياة، إذ كان أغلب شعب كيميت بين الحزن والشتات، حتى أن أحدًا لم يلتفت لأمر عظيم يحدث حافة المرفأ!

إذ إن التمثال السحري القديم في مرفأ مدينة راكوتا..رالذي تحكي الأساطير أنه يشير بيده إلى مجيء الأعداء عبر البحر الأزرق.. قد تحرك من ثباته! وكان يرفع ذراعه مُشيرًا إلى شَرٍّ عظيم قد اقترب.. مُصوِّبًا إصبعه نحو الشمال الغربي! ويرفع يده الأخرى ليلتقم البوق وينفخ فيه النفير المدوِّي! فقد كان أسطول ضخم من الأعداء على مسيرة ليلة.. يحمل قبائل برابرة قادمين من الشمال.. ذلك أن ملك القولجار «أرمانيوس بن روميللوس».. قد جاء على رأس قوات بحرية ضخمة.. لغزو أرض كيميت المقدسة التي صارت بلا حاكم ولا أساطيل ولا شعب يعرف الحياة.. ولكن أهل المدينة كانوا في غفلة! إذ كان سكان راكوتا غارقين في الحزن داخل منازلهم الدافئة.. وغطت أصوات العواصف على صوت البوق المدوي عند الشاطئ.. وكانت سفن كيميت الحربية كأطلال خشبية مهجورة.. قرب المرفأ القديم.

وعند الفجر.. كانت السماء واسعة ذات لون بنفسجي قاتم.. تنتشر صبغتها على مياه بحر «ڤاتشور» أمام مرفأ «راكوتا».. وعلى معمار المدينة وبيوتها.. وكان هناك خط أصفر وهَّاج ناحية الشرق.. كان أهل كيميت

في غفلة وسُكْر الأحزان! فلم يشعروا باقتراب أسطول القوجلار الحربي.. بدأ صوت الرياح القوية يخفُت، فظهرت أصوات مجاديف السُّفُن القادمة من الشمال! قُرعت أجراس التحذير في المدينة! وتردَّد صداها مع صوت العواصف والأمواج.. عندها استيقظ أهل راكوتا.. وحدث فزعٌ واضطرابٌ شديد!

***

رست واحدة من سفن القوجلار.. وبدأ جنودهم المدججون بالركض داخل ميناء راكوتا! فظهر صوت خطاهم جليًّا على الأرضية الخشبية للمرفأ.. بخوذاتهم الفضية التي تخرج منها ضفيرة مصنوعة من ذيول الخيول.. وعباءاتهم البربرية البرتقالية الباهتة بلون صفار البيض نصف النيء. وملابس وبرية بلون أحمر دموي وأسوَد فحمي.. وكان لبعضهم دروع من الجلد تغطي الصدر والكتفين.. استلُّوا سيوفهم القاطعة في هدوء وتصميم حذر.. يرومون بسط نفوذ القوجلار على أرض البساتين المقدسة!

عندئذٍ.. خرج عليهم جنود كيميت الشجعان! يقودهم يحوي ورفاقه من شباب كيميت أصحاب العزة والبهاء! دارَ قتالٌ عنيف بين الطرفين! وكان صوت رنين السيوف يصمُّ الآذان.. وكانت الأسهم المرشوقة تمر إلى جانب الأجساد.. وكانت الثياب ترفرف بقوة مع الرياح الشديدة في أثناء القتال الباسل.. ثم قفز يحوي إلى داخل سفينة القوجلار الراسية يحاربهم كالأسد.. وأخذ يقطع الأعداء أشلاءً.. بسيف الخوپيش الأصيل ذي

النصل الذهبي.. عندها لمح يحوي المزيد من سفن القولجار المكتظة بالجنود المسلحين.. على وشك الوصول للرصيف.. فنادى ابنه الشاب حوري لكي يغلق البوابة الفولاذية! إذ كانت بوابة هائلة الحجم.. مصنوعة من أعمدة والذهب والفضة تقع داخل البحر.. وهي التي تتحكم في المدخل الرئيسي للمرفأ.. وقد صُممت في الماضي البعيد، بحيث تغلق الميناء فيه وجه أي هجوم بحري مُحتمَل، فلا تتمكن سفن الأعداء من الرسو في ميناء المدينة الكبير.. كان ارتفاع البوابة عشر أقدام تحت المياه، وعشر فوق أمواجها، وعرض كل من مصراعيها ثلاثين ذراعًا! وكان تحريك هذه البوابة يتم عن طريق عجلة تدوير بالغة الضخامة في المرفأ.. وكان يحركها في العادة أربعة رجال أشداء.. فتوجَّه حوري راكضًا نحو العجلة الضخمة، ليغلق البوابة البحرية الكبيرة.. لكي يمنع القولجار من الوصول للمرفأ الرئيسي!

أما يحوي.. فكان يقاتل جُند القولجار المدججين ويُعْمِل فيهم السلاح! فصار ومعه مجموعة من شجعان المدينة الأبرار يقطعون أوصال الغزاة ببسالة وحماسة غاضبة. ثم قفز يحوي من السفينة الراسية وهو يصوب نظره على السُّفن الخمس التي كانت في اقتراب، عندها وصل حوري سريعًا عند العجلة، وقاتل بشجاعة جنديين من جنود القولجار فخرَّا صريعين.. كان تحريك العجلة صعبًا للغاية لثقلها الشديد، إلا أن حوري دفعها بكل ما يملك من قدرة.. كانت شمس الشروق الشتوية تلمع بلون أحمر في الأفق بين سحاب فضي لامع.. وكانت الأمواج الهائجة تتلاطم على ميناء مدينة

راكوتا.. وتتكسر في خلفية المشهد على صخور الجزيرة المُقام عليها منارتها العظيمة.. وبدأت بعض الأمطار في الهطول مع لمعان البرق وهدير الرعد!

أجهزَ يحوي على من تبقى من جنود في السفينة الأولى.. ولكنه أدرك أن السفن القولجارية الضخمة المحملة بالجنود.. كانت على بُعد دقائق قليلة من الرسو في المرفأ! عندئذٍ ركض يحوي على رصيف المرفأ بموازاة البحر الكبير.. ثم تناول السلسلة الفولاذية الثقيلة التي كانت تربط السفينة القولجارية الراسية بالرصيف، كانت السلسلة عريضة بمقدار ذراع، ويفوق طولها الثلاثين قدمًا. عندها لفَّ يحوي ذراعيه على السلسلة الضخمة! ثم سَحَبَها وراء ظهره بكل ما أوتي من قوة! برزت عضلات ظهره وكتفيه وبدت ملامح البذل الهائل على وجهه ذي الهيبة! زأر يحوي بصوت يدوي في أرجاء البحر البعيدة! كادت أرضية الرصيف الرخامية تتكسَّر تحت قدميه.

وعندها.. بدأت السفينة تتحرك في مياه الشاطئ الهائج! فقد سحبها يحوي بقوة غير بشرية! وسار بها كالليث الغاضب بمحاذاة الساحل ذي الأمواج الضخمة.. التي كانت تضرب في الرصيف البرَّاق تحت نور البرق الفضي! كانت السفن الخمس في اقتراب وعلى وشك الوصول لرصيف المرفأ.. أما حوري فكان مستمرًّا في جذب العجلة الكبيرة.. ولكن بدا أنه لن يتمكن من إغلاق المرفأ الكبير قبل أن ترسو السفن الحربية الخمس!

وبينما يجذب يحوي السلسلة ويركض ساحبًا السفينة باتجاه الساحل.. تسارعت حركة السفينة الثقيلة المسحوبة.. في البحر ذي الأمواج الضخمة

التي تضرب متكسِّرة في الرصيف البرّاق، كانت الأمواج المتلاطمة تضرب بقوة مع المرفأ وأخشابه الرطبة، فيتطاير الرذاذ الكثيف مغطيًا جسد يحوي المغامر العظيم بمقدار عظيم من الماء.. وكان جنود القولجار يحاولون إيقافه وضربه بالسيوف والخناجر.. أُصيب يحوي بالطعنات في كثير من أنحاء جسده، وكان عساكر القولجار يحاولون إيقافه، ولكن المغامر الباسل كان يصرع الأعداء ويلقيهم في البحر.. ولا يثنيه شيء عن سَحْبِ السفينة الضخمة بمحاذاة ساحل الميناء.

***

وبينما كانت السفن الخمس الضخمة على وشك الرسو.. ويتجهز جنودها للهبوط.. تفاجأ طاقمها باصطدام هائل عنيف! إذ إن السفينة التي يجرها يحوي قد صدمتهم بعزم هائل لا يمكن إيقافه! ككتلة عظيمة تتحرك بعزم شديد لتخترقهم من الجانب! فتحطَّمت السفن الخمس الضخمة تلو الأخرى وتطايرت أخشابها.. مُصدِرةً صوت طرقعة مُذهلًا! سمعه الجميع في المدينة وسط الفوضى والقتال!

***

وفي ذلك الوقت.. أنجز حوري المهمة.. فأغلق تمامًا بوابة المرفأ الرئيسي ذات القضبان الذهبية والفضية.. تكبد القولجار خسائر فادحة.. وأيقنوا باستحالة دخول المدينة بالقوة.. وقام أبناء كيميت الأبرار بتطهير الميناء ممن تبقى من جُند

القولجار.. تنهَّد حوري وهو يلتقط أنفاسه مسندًا ظهره للعجلة الضخمة.. فظهرت على وجهه ابتسامة تغطيها قطرات المطر الغزير.. عندها صوَّب نظره نحو العمل البطولي الذي قام به والده.. ولكنه لمح شيئًا قد كسر قلبه!

***

إذ إن يحوي الذي كان قد أثخنته الجراح وهو يحارب جند القولجار.. كانت السلسلة ما تزال ملتفة على ذراعيه.. وقد تحطمت السفينة التي دمر بها أسطول القولجار.. فامتلأت بالماء.. وغرقت للأسفل! وفي لحظة.. سحبت معها يحوي الجريح إلى قاع البحر العميق! فقد جاء ميعاد رحيل ابن كيميت الباسل.. ليصير أحد شهدائها الكِرام.. البطل المغامر.. ابن بساتين أخمين.. حامي راكوتا، قاهر الغزاة الشماليين.. وفي المكان الذي قضى أغلب عمره في اجتيازه واكتشاف عجائبه.. بحر ڤاتشور الأزرق.. قد استقرت روحه العظيمة.. إلى الأبد!

***

كان غضب الملك القولجاري «أرمانيوس» عظيمًا! فعاد خائبًا إلى بلاده وهرب سريعًا في أحد القوارب.. عَزَم على الانتقام، وأعدَّ أسطولًا جديدًا لينتقم من أهل راكوتا الكيميتيين البواسل!

الفصل الرابع عشر
سقوط المدينة الفضية!

عاد الملك أرمانيوس سريعًا بأسطول جديد.. وفرض حصارًا بحريًّا صارمًا على مدينة «راكوتا».. ولكنه أيقن استحالة دخول بلاد كيميت عنوة.. لأن قوة وبسالة أبناء كيميت لا تُضاهيها بارجات وفولاذ أي جيوش .. وقد قام حوري ورفاقه بتنظيم قوات من شباب مدينة «راكوتا» الأطهار، وحرصوا على أن تظل المدينة مُغلقة تمامًا من ناحية البحر.. فكانت جميع مرافئ الميناء الكبير تحت السيطرة على نحو يستحيل معه أن ترسو أي واحدة من سفن الحصار الحربية.. وفي ذلك اليوم.. جاء مانيتو بن راحوتيپ النحات وخبير الهندسة والمعمار، وكانت معه ابنته تفنوت التي لم ترغب في مفارقته، وقد ساهم مانيتو كثيرًا في مساعدة أهل راكوتا بكل ما يلزم من تشييد وتصميم لحماية المدينة الساحلية.

استمر الحصار عدة أيام وليالٍ.. إلا أن الڤولجار لم يجدوا سبيلًا لدخول بلاد كيميت من بوابتها الشمالية.

ولكن.. كانت هناك ثغرة بحرية وحيدة في مدينة راكوتا.. لا يعرف القوجلار بها.. إذ إن موضعًا واحدًا أمام مرافئ راكوتا كان يُفتح يوميًّا.. مرة في الصباح.. وأخرى في المساء.

ففي أقصى الساحل الغربي من مدينة راكوتا، كان هناك سور رخامي ضخم.. وفي داخله بوابات حديديَّة مُطلة على بحر «ڤاتشور» الأزرق، وكانت المنفذ الوحيد لخروج سُفُن الصيد، وهو المصدر الرئيسي للمؤن في المدينة.. وكانت هذه البوابات تحت حراسة شديدة.. وتخرج مراكب الصيد منها أو تدخل بكلمة سر تتغير كل يوم.

واحسرتاه.. إذ إن خائنًا نجسًا قد خرج متخفيًا في أحد قوارب الصيد.. وتوجَّه إلى سُفُن القوجلار!

دماء شعب كيميت الكريمة بريئة منه.. إذ كان من بني شاعوط..كان يُدعى «شخصور».. كان يعيش في مدينة «راكوتا» كخادم.. يعتني بإسطبل الجالية الأيونية.. فخرج متخفيًا في أحد القوارب، وأخبر القوجلار بشأن البوابات وكلمة السر.. فأعطاه القوجلار بعض الذهب، وجهَّزوا على الفور ثلاثة قوارب صغيرة.. ثم أرسلوا ستة من جنودهم سِرًّا نحو بوابة الصيد.. متخفين كأنهم من صيادي راكوتا.. إذ تلحفوا بقماش من الرياح الباردة.. تخفي هويتهم وأسلحتهم.. وألقوا بكلمة السر على حُراس البوابة.. فتمكنوا من الدخول! وهناك ركضوا سريعًا نحو بوابة المرفأ الرئيسي.. ثم رموا سهامًا مسمومة.. وتخلصوا من ثلاثة من الحراس طعنًا بالخناجر المؤلمة.. وتمكنوا

من فتح البوابة الرئيسية لمدينة راكوتا! عندها جاء أسطول القولجار.. ونزل في المرفأ!

***

استيقظ أهل راكوتا في الفجر.. فوجدوا أن أرمانيوس وجنوده قد دخلوا المدينة! ينفخون في الأبواق، ويهدمون النافورات والأعمدة والتماثيل الفاخرة.. ويعيثون الفساد مُنكلين بأهل كيميت الأشراف!

كم كان المشهد حزينًا.. إذ أُريقت الدماء الطاهرة في شوارع المدينة العتيقة.. وكأن عمرانها يشخَص بصره في حداد.. تحت نور الفجر الرمادي!

***

ومن أعلى منزل الراحل يحوي فوق الربوة العالية.. خرج حوري من بين أعمدة البيت ذي الأغصان.. في ذهول غاضب.. عندما سمع صيحات قتل الأبرياء.. فنظر نحو بوابات المرفأ الرئيسي.. فوجدها مفتوحة وترسو عليها أساطيل القولجار الحربية! فتناول سيفه سريعًا.. وركب على عربته التي تجرها الخيول ونزل ليدافع عن بلاد كيميت المقدسة.. قاوم كثير من شباب كيميت ضد الغزو مظهرين معدنهم الأصيل.. ودارت بين الطرفين مقتلة عظيمة بين أزقة وطرقات المدينة الخلابة.. فكانت ملحمة راح فيها الكثيرون! قاتل حوري مع رفاقه في معركة خاسرة في شوارع راكوتا بين البيوت والبساتين.. إذ إن المدينة كانت قد سقطت للتو.. بسبب الخيانة.. وبينما أصيب حوري

بعديدٍ من الجراح، لمح مانيتو ساقطًا على الأرض! فقد راح سليل إيمحوتيب في القتال، وإلى جنبه تبكي ابنته تفنوت بفزع! يا لها من أيام حزينة!

أيقن حوري أنه لا بد من الانسحاب من أزقة المدينة وشوارعها.. إذ إن جنود الڤولجار قد انتشروا في المقاطعة وسيطروا على طرقها الحيوية.. وصعد جنودهم بالأقواس يطلقون السِّهام من فوق أسطح المنازل! فجذب حوري تفنوت من يدها وأدخلها إلى عربته.. ونزل سريعًا لحمل جسد مانيتو، وصعدبهم سريعًا في العربة إلى المنزل فوق الربوة الخضراء التي تطل على ساحل البحر.. إذ جال بخاطره أن يطمئن على والدته الطيبة رونتيتي ويحميها.. وهناك أصابته الفاجعة.. إذ كانت والدته رونتيتي ذات العينين على وشك الرحيل! إذ إن أحد جنود الڤولجار السفلة دفعها بعنف! فاصطدمت بالجدار ووقعت على الأرض!وقد أوشكت روحها على مفارقة الحياة! تحرك حوري بعربته ذات الخيول بسرعة خارقة وراء هذا الجندي.. وبينما يتحكم حوري في العربة السريعة برشاقة تناول عمودًا فولاذيًّا وضرب القاتل الڤولجاري بقوة شديدة على دماغه، فهوى اللعين من أعلى الربوة وسقط نحو الصخور الشاطئ في الأسفل. ثم عاد حوري وقلبه يخفق بقوة نحو والدته رونتيتي وحملها إلى الفِراش القريب.. حيث كانت تفنوت تجلس إلى جانب جثمان أبيها مانيتو داخل العربة بجفون ذابلة، وأخذت تتنهد بنظرة ضعف واستسلام كامل.. وبدت روح تفنوت الرقيقة المنكسرة.. كزهرة برية هشَّة.. جرت الدموع على وجهها الناعم الرقيق وهي لا تُصدق أن والدها قد فارق الحياة.

حاول حوري أن يطمئنَّ على والدته رونتيتي الكريمة.. ولكن الأوان كان قد فات..فقد جاء ميعاد رونتيتي.. عذراء البساتين.. ذات العينين الرصاصيتين الساحرتين اللتين تنطقان بمجد راكوتا.

وبينما كانت المرأة العظيمة رونتيتي في لحظاتها الأخيرة.. طلبت من ابنها حوري أن يعيش مُخلصًا للحق.. متمسكًا بمبادئ كيميت الأربعة الكريمة: العقل.. والصدق.. وقوة الإرادة.. والبصيرة.. ناشرًا نور الحكمة البديع حيث يذهب، وأخبرته أن الڤولجار سيبحثون عن نسل إيمحوتيپ حكيم الماضي البعيد بخصوص أمر عظيم، ولهذا أوصته بأن يعتني بـ «تفنوت» ابنة أقاربهم مانيتو وهيسپا.. ولا يتركها حتى تصل بيت أهلها.. فوعدَها حوري بأن يفعل ذلك.

***

سقطت المدينة في أيدي الڤولجار.. وانتشر محاربوهم في المدينة.. أراد حوري أن يدفع حياته كشهيدٍ مدافع عن شرف بلاد كيميت.. ولكنه قد وعد والدته بأن يعيد تفنوت إلى منزلها.. فخرج سريعًا بعربته التي تجرها الخيول ومعه جثمان مانيتو العظيم ووالدته الراحلة رونتيتي الجليلة، وأخذ معه تفنوت، وتوجهوا سريعًا نحو المقابر القديمة في الشرق.. قُرب مُقاطعة «پيجوات» الساحلية.. حيث يرقد الراحلون من العائلة والجيران..

***

وبمجيء وقت الشروق الناصع.. توافَد جند القولجار على المدينة وأحكموا سيطرتهم على مداخلها ومخارجها.. خرَّبوا المدينة ونشروا فزعًا كبيرًا! احتسوا خمورهم محتفلين.. وتعالت صيحاتهم بضحك السُّكارى. ولكن عربة حوري وتفنوت التي تجرها الخيول كانت قد عبرت لتوها من حدود مدينة راكوتا.. وكان في العربة أدوات (وبؤجة) قديمة بها بعض ملابس حوري.

وفي المقبرة قام حوري بما يلزم سريعًا لدفن الشهيدين الشريفين، والدته رونتيتي، ومانيتو والد تفنوت، وما إن انتهى من حفر قبرين في الأرض حتى وجَّه بصره إلى والدته الطيبة بنظرة أخيرة.. ولثم كفَّها البيضاء الشريفة.. قبل أن يواري جسدها الكريم في مثواها الأخير.. وكأنه يعدها بالانتقام من أعدائها الآثمين، وأخذت كلمات رونتيتي الأخيرة ووصاياها تتردد في ذهنه.

أما تفنوت فكانت بالقرب من حوري تجلس على ساقيها على الأرض.. تنظر إلى جثمان أبيها الطاهر، والذي كان مُمددًا على ملاءة من الحرير، قبل لحظات من دفنه تحت التراب بلا رجعة.. كانت ما تزال غير قادرة على التحكم في الشهيق، فكانت أنفاسها متسارعة كطفلة توقفت للتو عن البُكاء.. جفت الدموع على وجهها وهي لا تكاد تُصدق أن الأمر قد انتهى.. أخذت تتأمل لحية والدها مانيتو بين الأسود والأشيب.. ورداءه الذي سيُدفن به.. وعندها.. لمحت تفنوت شيئًا في قميص والدها المتوفَّى.. كانت بطاقة مثنية من الورق في الجيب الداخلي للقميص.. وعندما أخرجتها

وفتحتها.. وجدت فيها وردة قديمة جافة حفظتها ثنية البطاقة.. ولكن كان هناك المزيد.. إذ كانت على البطاقة كلمات مكتوبة بخط يد والدتها هيسپا باقة الأزهار! وما إن بدأت تفنوت تقرأ الكلمات حتى فاضت الدموع من عينيها بغزارة.. إذ كانت الكلمات المكتوبة تقول:

(رفيقي الغالي مانيتو.. عندما تبعد عني ليلة.. أصير كأنني دفنت في قبري.. لأنك أنت العافية وأنت الحياة.. إنها القُبلة منك.. هي التي يحيا لها قلبي.. فإن أنا ظفرت بها.. هانت عليَّ غربة العالم وأوجاعها.. فليكتب الخالق أن تكون لي حتى الأزل.. وأن تبيت في حضني كل مساء إلى أبد الآبدين. حبيبتك هيسپا).

اغرورقت عينا تفنوت بالدموع، ثم أعادت البطاقة إلى الجيب الداخلي لقميص والدها مانيتو، لتستقر كلمات حبيبته الصادقة فوق قلبه إلى الأبد.

***

وبطلوع صباح اليوم المشئوم.. كان الڤولجار قد اقتادوا كل مَن يُقاوم إلى السجون..

وأُلقِي بعض فتيات كيميت الأطهار في المحابس.. وقام برابرة الشمال الڤولجار باعتقال أي شخص يثبت أن له صلة بجماعة بير عنخ القديمة.. فأغلب الكتب الكيميتة التي تحمل المعارف المقدسة كانت قد تم حرقها وضياعها أو وقوعها في يد الغافلين، وكانت تتناول طبيعة الروح وشخصيات

الأنتار، والأسرار الغامضة لأجسام السماء وقوانين الطبيعة، وكذلك أسرار الطب والسحر.. إلا أن أعظم هذه الكتب.. قد كان من مصيره البقاء!

إذ أُشيع أن هناك كتابًا قديمًا يحمل قوة خارقة لكل من يقرؤه! ويمنح قارئه مواهب عجيبة منها رؤية الجن والأرواح! والقدرة على التحدث مع الطيور والحيوانات! وكان الكتاب المُذهل مكتوبًا في الأيام الأولى بخط «مُعلم المُعلمين» بنفسه! وقيل إن قوة كيميت القديمة تنبع من المجد المذكور في هذا الكتاب، وقد قام الإمبراطور أرمانيوس بإرسال بعض الفرسان للبحث عنه سرًّا، إذ كان يريد أن يستعين بقوة الجن والوحوش، وأن يحصل على مصدر هذه القوة الخيالية الهائلة.. التي قيل إن سطور الكتاب قادرة على منحها.

فقد كان كتاب «الخروج إلى النور» مكتوبًا بيد الحكيم الكيميتي الأسطوري تحوتي العظيم في العصور الغابرة، وهو المعلم يسميه الأيونيين الفريجيين واللاتين القولجار باسم هرمس المثلث العظمة! والحقيقة أن كلمة «تحوت» كانت لقبًا لمعلمي كيميت القُدامى والذين تُحيط بهم هالة خرافية تملأ العالم بأجمل الألوان! وقد قيل إن هذا الصفحات الأخيرة لهذا الكتاب تمنح قوة لا تُقهر! وأنها تجيب على السؤال الأزلي للبشرية والوجود! ولهذا بحث فرسان القولجار السريُّون عن كل كيميتي له علاقة بنسل إيمحوتيب الذي كان رئيسًا لمدرسة الحكمة المقدسة القديمة في كيميت في الماضي البعيد، وقيل إن «تحوتي» المُبجل قد أسَّس جماعة غامضة من حكماء كيميت المُوكَّلون بحماية المعرفة الكيميتة الأسطورية، ويُسميها البعض باسم «سمايت

سارانتيرو» أو «جماعة الحكمة المقدسة»، واعتقد آخرون أن هذه الجماعة مُجرد خرافة قديمة.

أما «الشيماڤيت» الخبثاء فقد كانوا موقنين أن هذه الجماعة حقيقية، فوضعوا نُصب أعينهم اختراق مدرسة كيميت للمعارف المقدسة للوصول إلى قلبها ولو بعد عصور طويلة، ومن ثم السيطرة على قيادتها في آخر الزمان، بحثًا عن هدفهم القديم بالسيادة على العالم وحكمه من خلال «طاليم» أو ملك شيماڤيتي خارق.

دفن حوري والدته رونتيتي، وكذلك المهندس الراحل «مانيتو» في المقابر القديمة، على الحدود بين مقاطعة پيجوات ومدينة راكوتا، حيث يرقد أفراد عائلاتهم منذ الأيام البعيدة الماضية، تحت المروج الخضراء وأشجار الفُل والسفرجل والياسمين، وكانت تفنوت ابنة هيسپا ومانيتو ما تزال إلى جانب حوري، تمسح دموعها بينما يُوارى جسد والدها تحت التراب، كانت تتوق لدخول مدينة بوتو حيث تنتظرها والدتها هيسپا، ولكن الوقت كان قصيرًا للغاية، وسرعان ما أدرك حوري وتفنوت أن عليهما الاختفاء سريعًا عن الأنظار! كانت تفنوت مشتاقة إلى العودة لمنزلها في مدينة بوتو لترتمي باكية في أحضان والدتها هيسپا، ولكن بدا أن هذه الأمنية قد تصير مستحيلة.

إذ كان الڤولجار يبحثون عن تفنوت ابنة مانيتو بالاسم، وفي نيتهم تعذيبها بأبشع الطرق! لتعترف بأي معلومات قد تدل على مكان كتاب تحوت الذي يحوي الحكمة المقدسة، ذلك أن تفنوت هي ابنة مانيتو ابن راحوتيپ الذي

ينحدر من نسل إيمحوتيپ المهندس العظيم في الأيام القديمة، وكان القولجار قد شددوا الخناق والبحث سرًّا عن كل من له علاقة بنسل حكماء كيميت العظام، مثل إيمحوتيپ الذي أُشيع أنه كان رئيس جماعة «سمايت سارانتيرو» أو طائفة الحكمة المقدسة في الماضي البعيد، إذ إن كثيرين كانوا قد سمعوا عن المدارس الكيميتية للحكمة والمعرفة المقدسة التي نشأت في كيميت وكذلك كتاب «تحوتي» المُذهل والقدرات الخارقة التي يمنحها، ولم يكن أحد يعرف إذا ما كان الكتاب مُجرد أسطورة يتردد صداها أم حقيقة عُظمى!

***

أما هيسپا طوق الأزهار السمراء الجميلة، والتي صارت تعيش وحيدة في مدينة بوتو في الشرق من راكوتا، فقد بكت كثيرًا على رحيل زوجها مانيتو، إلا أن غموض مصير ابنتها تفنوت قد قطَّع قلبها بألم لا يُوصف! والحق أنها لن يُكتب لها أن ترى ابنتها تفنوت ثانية!

***

ومن بعد غزو راكوتا.. توغلت جيوش برابرة القولجار في باقي الإقليم الشمالي والوسط من بلاد كيميت المقدسة، وقد ساعدتهم على ذلك الجاليات الأجنبية من الأيونيين والمايسيين وتجار إتروسكا الذين سكنوا فترة ببلاد كيميت، والتي كانوا يصفونها دومًا بأنها أرض السحر والغموض والأمجاد

ويصفون شعبها بأرقى أهل الأرض، ولكن بعضهم كان يشعر بالحقد على شعب كيميت الطهور، ويرغب في مجيء فصل جديد تنتقل معه عظمة حضارة الإنسان من قلب العالم إلى شمال البحر الأزرق.

كان «حوري» حريصًا على حماية رفيقته «تفنوت»، فعاشا متنقلين كغريبين في ظروف صعبة، إذ اضطرا للهروب عدة مرات من براثن فرسان القولجار السريين الذي تم إرسالهم لاعتقال وتعذيب المنحدرين من نسل إيمحوتيب مثل «تفنوت».. فدفعهما الاضطرار للسفر الدائم بلا راحة من مكان لآخر عبر أقاليم كيميت.

***

ويُروى أنه في أثناء رحلة حوري وتفنوت.. قد دخلا ليلًا إلى حانة مليئة بالطاولات الخشبية والمشاعل ذات اللهب الأصفر، وكانت أغلبها فارغة.. إذ إن جميع قُرى كيميت الجليلة كانت في سكون وحداد حزين.. منذ أن أصاب المرض شبابها وفتيانها وتساقطت أرواحهم الطاهرة كالورود النبيلة الذابلة.. لم يكن بالحانة إلا بعض من الأقليات الأجنبية.. وهؤلاء كانوا موالين لبرابرة الشمال القولجار! وكان بعضهم ينظر بتوجُّس نحن الكيميتي الشاب ورفيقته الكيميتية ذات البشرة البرونزية اللامعة.. والتي لا ينفك المرء أن يلاحظ أنها سليلة لنسبٍ شريف.

في تلك الليلة المُفزعة سقط الرفيقان في كمين في تلك الحانة! دافع حوري ببسالة عن رفيقته حتى تمكنت من الهرب بأعجوبة.. ولكن حوري وقع في

الأسر! واقتيد إلى أحد السجون المُظلمة التي نصبها القوجلار في أحد أطراف الجبال!

ركضت تفنوت بسرعة شديدة وهي خائفة إلى خارج تلك القرية.. حتى أن صندلها قد وقع من قدمها الكريمة، فأُصيبت الفتاة بالوجع والجروح من الصخور في جلدها الغض الرقيق! حتى وصلت إلى حقول مفتوحة بعيدة عن الأنظار فأخذت تبكي بحُرقة، صارت وحيدة.. رحل والدها مانيتو الجليل أمام عينيها، وأما قريبها الطيب حوري فقد اُقتيد للحبس في مكان بعيد، تمنت لو أن ترتمي باكية وتعانق والدتها هيسپا، ولكن الحقيقة أن تفنوت لن ترى أمها الحنون «باقة الأزهار» ثانية!

باتت تفنوت في الليل بين الأحراش والحشائش الطويلة وجسدها الغض مُلطَّخ بالطين، وأخذت تصلي وتتضرع لروح الكون حتى نامت كطفلة صغيرة، راحت في سُبات عميق بين الشجيرات التي أدفأتها من صقيع رياح الليل.

ويُروى أن تفنوت في تلك الليلة.. قد رأت في المنام أنها تقف وحيدة في غابة عجيبة دامسة الظلام! يخطف قلبها الخوف من عواء الوحوش.. فتضم ذراعيها من البرد وتحاول الاحتماء من الصيحات المُفزعة.. حتى تصير الأصوات وشيكة وقريبة جدًّا! عندها تدرك تفنوت داخل الحلم بأن بجانبها (بؤجة) من القطيف.. كالتي لمحتها في عربة حوري عندما خرجا من مدينة راكوتا! وإذ تفتحها فإذا هي تحوي ملاكًا جميلًا للغاية! يسطع كالشمس فَيُنِير

السماء بالفرحة ويجلي عنها الظُّلم والظلام، وتهرب الوحوش من نغم صوته الفتَّان!

***

وفي تلك الليلة المقمرة.. استيقظت تفنوت من أحلامها على صوت فارس يقترب.. كانت تشعر بالوهن الشديد، فهي لم تجد الشغف لتناول أي طعام منذ يومين، فاستسلمت تمامًا وأخذت تدعو روح الكون أن ينقذها من مصير مؤسف بالوقوع بين أظفار أشرار لا يعرفون الرحمة، فوضعت كل ثقتها بأن الخالق الكريم الذي لا يعجزه شيء في السماوات لن يرد طلبها، ثم حاولت أن تفتح جفونها المجهدة.. وحركت رموشها السوداء فوق عينيها الرقيقتين.. فبدأت تلمح هوية الفارس القادم.. وعندها.. انشرح قلبها بالفرح لأول مرة منذ فترة طويلة! فقد كان الفارس القادم شخصًا طيبًا تعرفه جيدًا!

إذ إن حوري قد تمكَّن من الخروج عنوة من السجن الذي أقامه الغزاة بالقرب من جبال الجنوب الغربي! فقد تخلَّص من بعض حُرَاس السجن وخرج ببراعة من مجمع الزنازين ومعه مجموعة من الأحرار الشجعان الذين عزموا على تخليص البلاد المُباركة، وقد قفز حوري إلى حصان جامح خارج الأسوار، وسارع بالبحث عن رفيقته، حتى وجدها أخيرًا في حال بائس من البرد والجوع والخوف، تضم ذراعيها وترتعش بين الحشائش.. كان الفتاة مكسورة القلب تستلقي بين الحياة والموت وسط الأعشاب بجلد رقيق

لامع.. إذ كانت تغطيه طبقة نقية من قطرات الندى، كان جسدها رطبًا واهنًا وباردًا للغاية.. وكانت بصعوبةٍ تلتقط أنفاسًا صغيرة وترتجف من الصقيع الشديد.

شعر حوري برغبة عنيفة في أن يُعانق رفيقته بشوقٍ ويضمها إليه، فيُدفئها من برد الليل الموحش.. وأن يضع قلبها الطيب الحزين فوق صدره فيحميها من جروح الغُربة المؤلمة، ولكن «حوري بن يحوي».. كان لا يمس جسد امرأة لا تحِل له.. وكانت تفنوت غالية جدًّا على قلبه.. وخصوصًا بعد ما مرَّا به معًا من أخطار وأوجاع، فكان يكره لتفنوت الجميلة أن يلمسها رجل ليس زوجها، فأخذ حوري البؤجة القطيفة وجعلها كغطاء النوم.. ولفَّ بها جسد تفنوت المسكينة قبل أن يحملها بين يديه ويضعها فوق ظهر الحصان، وتحت نور القمر استكمل الرفيقان رحلتهما بعيدًا عن براثن الغزاة القادمين من الشمال.

حتى وصلا أخيرًا إلى مكان آمن.. وذلك في أحد نجوع أقليم كيميت الشمالي، بعد أن عبرا «تلة باستيت»، إذ وصل حوري وتفنوت إلى قرية هادئة تُدعى «أبشاي»، كانت قرية واسعة قليلة السكان مليئة بأشجار الجميز والزيتون وأخشاب الحطب، وكان أغلب أهلها من العجائز الذين فقدوا أبناءهم بسبب الطاعون والأسقام.. فكان أهل القريبة طيبي القلب ودودين على نحو لا يُمكن وصفه.

وهناك تزوج الاثنان.. حوري بن يحوي ورونتيتي.. وتفنوت ابنة مانيتو وهيسپا..وصارت لهما ذرية وأبناء.. بذلك برَّ حوري بِعَهده لوالدته رونتيتي ذات العينين البديعتين، عندما وعدها بأنه لن يترك قريبتهم تفنوت حتى تصل إلى بيت أهلها، فكان لتفنوت نِعْمَ الأهل والصديق والحبيب.

كان أهل قرية «أبشاي» الهادئة بالغي الطيبة، وكانت قلوبهم رحيمة أكثر من أي شيء يُمكن تخيله! وقد كانت الأجواء دافئة بالمحبة والعاطفة الطاهرة في تلك القرية الصغيرة، أما بخصوص رؤيا تفنوت عن الملاك ذي الأنوار.. فقد فسر ذلك بعض العارفين في القرية بأن تفنوت ستلد ابنًا عظيم الشأن ويتردد صدى اسمه بين الجبال! وأنه سينتقم لتفنوت الطيبة ويقهر الغزاة الذين تجرؤوا على أرض كيميت الطاهرة وأبنائها الأبرار.

اضطر الحبيبان لإخفاء هويتهما الحقيقية لئلا يقبض عليهما الفرسان القادمون من الشمال، فقاما بإخفاء اسم «تفنوت» تمامًا، والذي كان يبحث عنه القولجار، واستخدمت تفنوت اسم «هيرنا» لإخفاء نسبها المنحدر من «راحوتيپ» الجليل، كانت تفنوت تقية شديدة الخجل والورع، وكانت دومًا تغطي رأسها بوشاح من الكتان.. بل أنها كانت تستحي أن يرى جمال وجهها وشفتيها السحريتين شخص غريب! فقد كان يعزُّ عليها أن تصير هبة الخالق لها سهمًا تفتن به قلب إنسان مسكين! وكانت كثيرة الحزن والدموع.. والتفكير في بيتها القديم الذي نشأت فيه.. مع والدها الراحل من هذا العالم مانيتو.. ووالدتها الطيبة «هيسپا» طوق الأزهار.. وتمسكت بالأمل في أن

تبتهج برؤيتهما ثانية يومًا ما.. أو أن تجتمع معهما في معية الخالق السماوي العظيم الذي أبدع الأكوان والخلائق.

ورغم الحياة الجديدة الصعبة لحوري ذي العينين السوداوين الواسعتين والبشرة البيضاء كالياسمين والشعر الأسود المتموج، وحبيبته تفنوت صاحبة البشرة الذهبية اللامعة والشفتين الحلوتين البراقتين والعينين العسليتين والشعر الأزغب البرتقالي.. فإن رحلتهما الطويلة قد ربطتهما بعاطفة عميقة عوضتهما عن وعثاء الأيام المظلمة.

اشتغل حوري بزراعة المحاصيل والفواكه.. وفتح ورشة صغيرة لطرق المعادن والأخشاب، وساعدته في ذلك زوجته الصالحة.. كانت تفنوت ترى في زوجها تجسيدًا للرجل الكيميتي ذي الشهامة الجارفة، بما يحمله في داخله من ملامح نبل خارق لا تخطِئه العين، وكذلك حزن دفين على تغيُّر الأحوال، ولم تنس قط كيف أنه قد ضحى بمسار حياته لأجل الحفاظ عليها وحمايتها.. فكان قلبها يخفق بالبهجة، حتى بمجرد أن تسمع خطوات عودته إلى المنزل قبل الغروب، لتنهال بقبلات الحب الصادق على وجهه الكريم وكفَّيه الشريفتين، وتعانقه بعينين ذابلتين وروحٍ جبرتها رؤية الحبيب بعد انكسار.

***

وفي ألفة ومودَّة بالغة.. اعتاد الزوجان في كل شهر مع طلوع القمر البدر.. أن يخرجا معًا من المنزل في جُنح الليل، بين الأشجار قُرب أحد روافد النهر الكبير، والتي تكتسي جذوعها بطحالب رطبة بديعة التألق

والزُّخرف، فتحيط الأغصان والأفرع الخضراء بحوري وتفنوت في خمارها الطاهر، ووجهها الصبيح الناصع الذي يتلألأ بأنوار أكثر بريقًا من الذهب والحرير، وفوقهما سماء واسعة مُرصَّعة بالنجوم، مع صوت المياه اللطيف بين رياح الليل الباردة.

فتطل تفنوت بوجه كالقمر ليلة التمام، وتنظر إلى زوجها الصالح، بعينين براقتين بريئتين مليئتين بالفرح والامتنان، وتتوق لأن تفتديه بروحها إذ كان أحب إليها من نفسها! فيناديها حوري بالاسم الجميل الذي أطلقه عليها: «تفنوت نچماسپا» أي «تفنوت ذات الشفتين الحلوتين»، فيغمرها بكلمات صادقة ويدعوها برفيقته للأبد! وتظهر من فمه الكريم همسات لطيفة خافتة تخرج من القلب للقلب: فداك روحي يا زهرتي اللطيفة.. أنا مِلْكٌ لكِ للأبد، وكان حوري يلمس جسم تفنوت بلطف شديد كأنه يتعامل مع شيء رقيق وثمين للغاية! وعندها يلثم كلٌ منهما بشفتيه على جبهة عشيقه بين العينين، وكأنه يُقبِّل روح المحبوب! فكانت لحظات غامرة بالمشاعر القوية التي تذكرهما بالرابط المقدس الذي جمعهما.. على حب القدوس الرائع، والانتماء للأسلاف الأطهار لبلاد كيميت المجيدة المُباركة.

***

وقد حملت تفنوت بعد ذلك طفلها الأول من حوري، ولكنها كانت رقيقة ضعيفة الجسد كطفلة سريعة الدمع مكسورة الجناح مثل قطة يتيمة صغيرة، فكانت تستلقي على الأريكة بمنزلها الخشبي في وجعٍ شديد فتتنهد بسرعة

من الألم في ساقيها وأنحاء جسدها.. بعينين دامعتين في صيفٍ حار، حتى أن جسمها كان براقًا بعرق صافٍ جميل كقطرات مطر تتحرك بهدوء فوق ثمرة غضة ناعمة، فكان حوري يصل وقتها إلى المنزل جالبًا لها الفاكهة.. فيجلس إلى جانبها.. يطعمها في فمها.. ويسقيها الماء البارد بلطف، ثم يعكف على الاعتناء بها ليُخفِّف عنها آلام حملها بطِفله، فكان ذلك أحب إليها من الدنيا وما فيها! وحقًّا إن الحب بين هذين العشيقين قد وصل إلى مرحلة بالغة العمق.. من الإخلاص ولذة التضحية عن طيب خاطر من أجل المحبوب.

***

وبعد سنوات عديدة، صارت هيسپا والدة تفنوت كبيرة السن.. وعاشت وحيدة حتى النهاية في منزلها بمدينة «بوتو» على ساحل البحر الأزرق.. فقد بكت كثيرًا على ابنتها «تفنوت»، ولم تكن تعرف إن كانت قد ماتت في سجون القولجار برابرة الشمال أم كُتب لها البقاء؟ وهل تعيش في بؤس أم رغد؟ إذ لم يكن هناك فرصة لتُودِّع ابنتها يوم الفراق، ولم تتمكن «تفنوت» من التواصل معها.

لم تذهب عن هيسپا حلاوتها وروحها الصافية رغم الظروف.. وكانت تستند إلى الجدار في بيتها الخشبي بين حقول مدينة بوتو.. وليس لها دعاء سوى أن تعرف أين ابنتها قبل تذهب روحها إلى الخالق، وقد كان لها ذلك! إذ تحققت أمنيتها واطمأنَّت على ابنتها.. قبل أن ترحل عن هذا العالم.

الفصل الخامس عشر
عن جيش تحرير كيميت الأسطوري!

وعندما جاء ميعاد هيسپا الجميلة السمراء.. لترحل للقاء الأحبة والأقارب السابقين.. كُتب لها أن يشعر قلبها بالدفء، وأن تطمئن على ابنتها الوحيدة تفنوت.. إذ إنها قد استيقظت يومًا.. على طرقات لطيفة على الباب.. متناسقة كأنغام المطر.. فقامت تمشي حثيثًا بإرهاق.. وفتحت الباب الخشبي.. فوجدت أمامها شابًّا صالحًا له ابتسامة كالملاك! وما إن نظرت في وجهه حتى امتلأ قلبها بالرضا والبهجة دون أن تعرف السبب! كان الشاب يافعًا ذا شعر أسود مدهون، وبشرة دكناء بعض الشيء.. وأُلقيت محبته في كل من رآه أو سمع اسمه! فأوصل إليها الخبر المفرح.. بأن ابنتها في حالٍ طيبة.. وتعيش في إحد القُرى بشمال البلاد.. وأنها قد تزوجت حوري بن پحوي ورونتيتي.. وأنها تعيش حياة سعيدة مع ثلاثة من الأبناء.. فاطمأنَّ قلبُ «هيسپا» وتنهدت في راحة.. وبعد أن رحل الضيف، توجهت «هيسپا» ذات

البشرة السمراء لأريكتها القديمة واستلقت بهدوء.. ثم أغمضت عينيها في بهجة ورضا.. وراحت في سبات أبدي.. والابتسامة تغطي ثغرها الجميل.

***

إذ إن «حوري» و«تفنوت نچماسپا» قد رُزقا بثلاثة أبناء.. الأكبر هو «پيتوباستي» وكان شابًّا قوي البنيان رغم عُوده النحيل.. ذا وجه مستطيل وبشرة دكناء قليلًا وعينين سوداوين، شعره المدهون بالزيت بين الأجعد والمائج، وله نظرة هادئة تميل للحزن ذات فخر كيميتي شديد، ولهُ شارب خفيف جدًّا فوق شفتين ممتلئتين.. كان بارًّا بأهله، قليل الكلام.. إلا أنه كان له قَبول عجيب لدى الجميع! كان يعمل مع والده في الزراعة والحدادة، كان عزيزًا غيورًا على بلاد كيميت ذات البهاء.

ويُروى أن هذا الشاب اليافع قد خرج ذات مرة من المنزل دون أن يُخبر أحدًا.. ولم يعُد ثانية! وقد حزن والداه كثيرًا على فِراقه.. ولكن السعادة ملأت قلبيهما.. عندما رُويَت الحكايات المُذهلة عن سبب غيابه بعد سنوات!

والطفل الثاني كان الأنثى «آيا».. وقد كانت فتاة نحيلة ذات بشرةٍ ذهبيةٍ لامعةٍ وعينين زرقاوين خلابتين لا مثيل لهما تشبهان تفاصيل البحر، ولها أسنان كبيرة ناصعة وابتسامة تخطف القلب.

أما الطفل الأصغر فكان «نيفيريو» وهو اسم معناه «جمال»، له بشرة معتدلة وشعر أسود جميل، كان ذا وجهٍ مُفرح، وعقل يُحب الإبداع والمعرفة،

وقد كتب القدر للابن الأصغر نيفيريو قصة بالغة الأهمية! إذ كان حوري دومًا يروي لأبنائه حكايات عن مجد كيميت القديم، ولطالما انشغل عقل نيفيريو الصغير بما وصل مسامعه من قصص خلابة عن جده الأكبر ڤيردو وعن عظمة كيميت في الماضي قبل أن تقع تحت حكم الغزاة، وكان نيفيريو شغوفًا بموضوع الكتاب السحري المفقود، وكأن القدر سيقود عجلات الحياة لكي يلتقي مصير نيفيريو بهذا الكتاب الأسطوري!

وذات مرة فارق النوم عيني الطفل نيفيرو الصغير ذي الشعر المموج والثغر الباسم، كان راقدًا في فراشه الملاصق للحائط الخشبي، كان الجو باردًا عاصفًا والليل كحيل.. وكان صوت طيور وهوام الليل يدوي صداه في الحقول الواسعة.. كان سرير الطفل مفروشًا بلحاف مُطرَّز من قُطنٍ سميك وثير، وكان نيفيريو يتلحف من البرد بغطاء من الصوف ذي مربعاتٍ مُلوَّنة من درجات الأزرق الأدكن والقرمزي، وقد غزلته والدته الطيبة «تفنوت».

وبينما يطمئن حوري على أطفاله سمع صوت نيفيريو الصغير ينادي:

– أبي، لا أستطيع النوم، هلَّا قصصت عليَّ إحدى روايات الأجداد؟

فجلس حوري ذو العينين السوداوين الواسعتين إلى جانبه.. وقال بابتسامة أب ودود:

– سأتلو عليك يا صغيري قصة لمولانا كـمتيـو المجيـد.. الملك الأسد.. إنه والد الملك «كـمتيـو الأكبـر».. الذي خرج جدك يحوي المغامر في رحلات عظيمة في عهده.

فقال نيفيريو:

- ولماذا سُمي بالملك الأسد يا أبي؟

فقال حوري:

- عُرف «كـمتيـو المجيـد» باسم الملك الأسد، إذ كان له شعر ملكي غزير، ولحية كبيرة ذات أطراف مُضفَّرة بحلقات من ذهب! فكان وجهه يُشبه الليث الوقور! وقيل إنه قد اعتاد الخروج على قمم الجبال في صورة أسد مُجنَّح شديد الضخامة ذي قوة لا تُضاهي، وعينين تشعَّان نورًا! كان له فراء ذهبي وجناحان عظيمان، وعلى رأسه تاج ملوك كيميت الشهير! فكان يقف في الأعالي فوق السحاب.. من الفجر حتى الشروق مُخترقًا الآفاق.. مُبصرًا كل الأمور.. ليطمئن على البلاد والبشر وسائر المخلوقات.. إذ كان حاميًا لأقطار الأرض كلها.. ولبلاد كيميت ذات البساتين والأنهار على وجه الخصوص، وقد أقام قنواتٍ وتُرعًا لا مثيل لها، وشيَّد القناطر والحدائق والمعمار، ليس في أرض كيميت وحدها، ولكن في سائر أنحاء العالم.

بدأ النوم يداعب عيني الطفل الصغير نيفيريو، وهو يستمع لقصة والده الممتعة.. أكمل حوري روايته المُذهلة:

- وقد حدث في بداية حُكم الملك «كـمتيـو المجيـد» أن انتشر فساد كبير في العالم، وظهر كثير من الملوك الظالمين، فاستعانوا بعفاريت من أرض غير هذه الأرض، فنشروا الفزع في أرجاء العالم! بل تجرَّأ بعضهم باستكبار على

رفض.. فؤاد العالم ومعبد الكون.. وبينما الملك على عرشه في أرض الحكمة وموطن روح آمون، صار الناس في فزع وكرب شديد! فاستغاثوا في جنوب الأرض وأطراف البحار البعيدة.. ونحو مطالع الشمس وأماكن ارتحالها.. طالبين من سيد بلاد كيميت المباركة أن يخلِّصهم من هؤلاء الظالمين. فعندها خرج جلالته مُزمجرًا بحملات حربية واسعة شملت جميع أركان الأرض! فتخلص العالم من أهل الظلم وتلألأ بمجد كيميت المقدسة ذات البهاء.. كما كان الحال على الدوام. إذ عبرت قوات كيميت الباسلة سهول ليڤانتيا، وأنهار الشرق وفاريجيا، وبلاد أبناء الثور، فوصلت أساطيل الفاتح إلى قبائل «السيلت» و«الغال»، فحرَّرهم بواسل كيميت ذوو البأس من شياطين الشرور، وفي الشرق احتفلت أرض التوابل بالتطهر من الغاشمين، أما تجار القوافل في «أغرامينيا» فيُقال إنهم لم يكونوا سعداء بالتخلص من الظلم، إذ إنهم شيوخهم كانوا أقوامًا يحُركهم السَّوط، فتظاهروا بالخضوع للملك الجليل، ومن ثم انتظروا اللحظة المناسبة لإعادة قمع رعاياهم.

ويُقال إن جنود كيميت الأبرار قد وجدوا في الشرق القبائل العجيبة التي تعيش في صحاري «خاسوط»، كان لهم حوافر ومظهر أقرب إلى الدواب، ويُعرفون باسم الـ «شاسوحاي»، أما في الشمال.. فأعلنت قبائل الغابات الباردة امتنانها التام لنفوذ كيميت بعد تحريرهم من الظالمين، وكذلك احتفت شعوب القماش المربع أصحاب الشعر الأصهب والفؤوس وشربوا كؤوسهم تمجيدًا لكيميت قلب الكون، أما ملوك الأحباش وأرض كاش

وقبائل الأدغال فهم كانوا على الدوام مخلصين تمامًا لمجد كيميت، ولم يجرؤ الأشرار على دخول بلادهم في ذلك العصر الماضي.. وأما أرض الساحل الكبير في قارة «إيمين».. حيث تعيش قبائل «الريش الملوَّن».. وهي الأرض الواسعة التي تقع في أقصى الغرب فيما يلي محيط الظلمات.. فهي أرض طاهرة على الدوام، لم يُدنسها الشَّرُّ في ذاك الزمان، وقد أرسل لهم الملك سفيرًا وحكماء.. عاشوا معهم بضعة أيام، و تنبؤوا بأن يأتي سفير كيميتي أخير إليهم في يوم من الأيام، وقد ذهب بعدها جدك يحوي وقريبنا تسوتي في رحلة لا تُنسى إلى بلاد ساحل الغرب.. ربما أحكي لك عنها في ليلة أخرى.

أتعلم أعظم ما في الأمر يا نيفيريو؟ إن جلالة الملك الوقور «كـمتـيـو المجيـد» كان على عادة ملوك كيميت العظماء، إذ إنه لم يفتح البلاد ليحكمها قسرًا أو يبطش بأهلها أو يذيبهم في الخضوع لهوية وأساليب شعبه، ولم يأخذ منهم جزية ولا غنيمة.. فأحسن إلى صغرائهم ونبلائهم، وما كاد ينتهي من تطهير إقليم من الأقاليم التي أصابتها الشرور حتى يترك لهم حقهم الإنساني في الحكم الذاتي التام دون تدخُّل أو وصاية، تاركًا كامل الحرية للشعوب كحق أصيل.. لا كَهِبة أو فضل.

والحق أن نور الحكمة كان يسطع في بلاد كيميت ذات البهاء.. وكان أبناء حُكام تلك البلاد يأتون لأرض كيميت المقدسة لتلقي المعرفة والتتلمذ على أيدي المعلمين والحكماء العظام.. منغمسين في روحانيتها الجارفة.. في بلاد

البساتين المباركة التي لطالما بدت لهم كأرض سحرية وعالم بديع من الأحلام الهادئة الخلابة.

***

وبعد أن استمع الطفل الجميل نيفيريو لتلك القصة الساحرة.. خلد إلى نوم عميق، ورأى أحلى الأحلام عن الماضي والأجداد.. عن العصور الذهبية لجنة كيميت ذات المروج النضرة والينابيع الصافية.

***

توالت السنوات الصعبة على شعب كيميت النبيل تحت قمع حكم أباطرة «اللاتين القوجار» الغاشمين كانت بلاد كيميت في أَمَسِّ الحاجة لمُخلِّص يرفع عنها نير الخضوع للأجانب، مُحرِّر ثوري يسترجع مجد بلاد كيميت المقدسة، وتفوُّقها العتيق ويخرجها من التراب لتقود العالم، وقد ظهر هذا الأمل!

إذ خرجت في ذاك الأوان حركة تحررية تنادي باسترجاع مجد كيميت، وتذكِّر شعبها بعظمة الأجداد، ذلك أن مجموعة من أبناء كيميت الشجعان يقودهم «پيتوباستي ابن حوري» قد شكَّلوا كتيبة أسطورية خفية عُرفت باسم «جيش تحرير كيميت»، وقد رُوِيَت كثيرٌ من الحكايات عن كرامات هؤلاء الجنود البواسل وبطولاتهم، فدخلت المدائن واحدة بعد الأخرى تحت لواء جيش الخلاص، فقد نشر پيتوباستي علم الثورة في سائر كيميت

العُليا، ولكن القوجلار تعاملوا بعنف شديد لقمع أي ثورات محتملة وإعادة إخضاع أبناء كيميت، ونكَّلوا ببشاعة بكل من يذكر اسم پيتوباستي ابن كيميت البار.

وقد حدث في ذلك الزمان أن جاء ملك القوجلار «جوريللوس بن أرمانيوس» بنفسه ليستعيد السيطرة على البلاد، وكان الإمبراطور الجديد معروفًا بالعنف الدموي والغطرسة، حتى أنه كان يؤلِّه نفسه كمعبود! فكان يُجبر الرعايا على ارتياد المعابد لتقديم القرابين وإشعال البخور الغالي، والتضرع أمام تماثيله، كأنه أحد آلهة الوثنيين! وقد جاء هذا اللعين لأرض كيميت المباركة وأعلن عن جائزة هائلة لمن يأتي برأس المتمرد «پيتوباستي»، وعندما لم يجد خائنًا بين أهل كيميت الأطهار عندئذٍ شعر بنار تحرق صدره الأثيم من الغضب! فنكَّل بشعبها النبيل، وعذَّب كثيرين أشد العذاب ليعرف مكان الحُر پيتوباستي .

ولكن ما أن بدأ يدخل جنوبًا إلى قلب البلاد.. حتى صار الصياد فريسة! إذ وقع الإمبراطور الظالم «جوريللوس» في يد أبناء كيميت الأبرار ومحاربهم الأسطوري پيتوباستي! وعندما وصل الخبر لإقليم كالابريا حدثت عدة انقلابات ونزاعات على العرش، جلس بعدها «إيليريون» على رأس الحُكم، إذ كان إيليريون ابن أحد الأمراء في قصر العاصمة لاتينيوم، فاستولى على سلطة جميع البلاد الواقعة تحت حكم القوجلار.

وفي تلك الأثناء ترددت الروايات المذهلة في أرجاء الأرض عن محاربين في أرض كيميت ذوي كرامات عجيبة! يقودهم ملاك النور المحارب! ويقصدون بذلك «پيتوباستي» ابن كيميت البار، ووصلت القصص إلى مسامع تلال أغرامينيا في الشرق، حيث أقام أحفاد رحالة الـ «خابو» مملكة عنيفة قاسية وحكموها بالسلاسل الحادة والكرابيج، وكان ملكهم في ذاك الزمان ظالمًا يُدعى «قارياظ الباطش»، فوردت إلى مسامعه حكايات عجيبة.. عن الهزائم الفادحة التي تكبَّدها القولجار على يد محاربين كالملائكة.. في أرض كيميت السحرية التي تروي عنها الأساطير الغامضة!

فأرسل قارياظ جيوش أغرامينيا العاتية باتجاه أرض كيميت لينهب خيراتها ويذِل أهلها وينزعها من أيدي غزاة الشمال القولجاريون، فاكتسح جنود أغرامينيا سهول ليڤانتيا وبلاد أنهار المشرق من أيدي القولجار، ويُحكى أنهم كانوا يشوون وجوه من يقاومهم من الأهالي! ويدقُّون أجسادهم على خوازيق بشعة! ثم دخل جنود أغرامينيا العتاة بلاد كيميت المقدسة وهم يُلوِّحون بالأسواط، وقد قيل إن أسواطهم كانت حادة وأليمة للغاية، حتى أنهم كانوا يقطعون بها أجساد شعب كيميت الشريفة وهي ما تزال تنبض بالحياة!

ولكن مكوث هؤلاء الظالمين في كيميت لم يعرف الاستقرار، إذ إن كرامات پيتوباستي ورفاقه لم تعرف الانتهاء.. ذلك أن جيش تحرير كيميت الخرافي قد أذاق عتاة الشرق البطش والهوان! وكان لهم من بطولات المقاومة

ما يسلب الألباب! فأحال أبناء كيميت الأطهار تراب الأرض المباركة إلى مقبرة لغزاة الشرق كما هي لغزاة الشمال، وعاد فلول العدو الشرقي لملك أغرامينيا الظالم وهم يروون في فزع.. ما تجرعوه على يد ملاك النور پيتوباستي ابن كيميت البار! شعر ملك أغرامينيا «قارياظ» بغضب هائل شديد! حتى أنه كاد ينفجر! وأراد الانتقام من المحارب پيتوباستي ورجاله.. فجهَّز لهم جيشًا عظيمًا عرمرمًا! وجاء على رأس جنوده ليبحث عن پيتوباستي ورفاقه ناحية الواحات والصحاري الغربية من بلاد كيميت بحثًا عن عاصمة پيتوباستي الغامضة! ولكن جيش أغرامينيا الملعون تاه في متاهات الجبال الغربية! وصار جيشهم الملعون مفقودًا في بحار الرمال العظيمة! ولم يعرف أحد لهم أثرًا! وتحكي الأسطورة أنه وبينما كان الظالم «قارياظ» وجيشه الجرَّار عند أحد وديان الغرب.. خرج عليهم محاربو كيميت البواسل من بين الجبال وحصدوهم حصدًا كملائكة بأجنحة النسور! وقتلوا الملك الغاشم «قارياظ» غير مأسوف عليه!

وقد قيل إن جنود الخلاص الأبرار قد تمركزوا في مدينة «البيوم» وهي مدينة كيميتية عتيقة ذات بحيرة غامضة، وقيل كذلك أنهم متخفون في أعماق الأعماق لأحد أقاليم صعيد كيميت ونجوعه في الجنوب، وحُكت روايات أخرى أن عاصمتهم كانت في إحدى الواحات وراء الجبال بعيدًا في غرب البلاد.. وشاعت الروايات بأن هؤلاء المحاربين الأسطوريين كانوا يرسمون صقر حورس خلف آذانهم، وقد تشبَّه كثيرون من أبناء كيميت بهذه العادة

التي تشير لإخلاصهم العميق لكيميت، وإيمانهم بمجيء ابنها البار الذي يصل للتنوير ويعيد أمجادها ليتردد صدى حكمتها للأبد.. وقيل إن جماعة «تحرير كيميت» قد احتفظوا ببعض أسرار كيميت العظمى حتى يحين الميعاد، كالموسيقى المقدسة وطرق ارتقاء الوعي.. ومفاجآت جليلة أخرى.. لن يعرفها البشر إلا عند نهاية العالم.

وتروي الحكايات المُذهلة أن شعب البساتين والأنهار قد عاش سبعة شهور مباركة من السلام والأمل الأبيض بنور المحارب الملاك «پيتوباستي» الذي عشقه الكل، وكان اسمه سببًا في أمل غامر وبهجة رائعة تسكن القلوب، وفي تلك الأيام المباركة ظهر كنز خرافي تحكي عنه القصص الفاتنة! إذ خرج بعض الصالحين بالتاج الأسطوري «الهيرونيبو».. الذي كان كمتيو التاسع قد فَقَدَه في الماضي.. فتوَّجُوا به «پيتوباستي» الطيب.. ملاك النور ابن كيميت البار! وبذلك صار « پيتوباستي بن حوري بن پحوي» آخر مَلك نعرفه لبلاد كيميت ذات البهاء، وفي تلك الحقبة العجيبة نالت أغلب مقاطعات كيميت الاستقلال لفترة وجيزة، وكادت كيميت تستعيد سطوعها العظيم وتملأ العالم بالورود العطرة والضياء ذي الألوان الخلابة المُمتعة! ولكن الخيانة حطَّمت الاحلام السعيدة.. وأعادت نفوذ غزاة الشرق والشمال تدريجيًّا لبسط تعسفهم على شعب البساتين والأنهار.. وعاد الفساد ليستشري في كل مكان على الأرض.

الفصل السادس عشر
عن الساحر الأسود وأعاجيب أُخرى!

أما الشيماقيت فقد وجدوا ضالتهم في أماكن النزاع والالتهابات، وسرعان ما انتشرت تعاليمهم الفاسدة في الشرق، وأصبحت كجراثيم معدية تسري بين الشعوب، فذهب النور من العالم، وفي ظل التواكل الذي أصاب البشر.. بدأ الشيماقيت في الاحتيال والنصب في الخفاء، وتكنيز الثروات سرًّا، فهم قد صنعوا تلك التعاليم في الحقيقة لا ليعتنقوها هم.. ولكن لتخنيث الشعوب الأخرى ليسهل التحكُّم فيها على نحو غير صريح.

وبين كل خدع هؤلاء الماكرين.. كانت فتنة الطالمية وعبادة خيال الظل أعظم الخدع، بل إن أحدًا لم يلتفت للحقيقة الواضحة القاضية بأنها صنيعتهم، ولكي يسحروا العقول.. استعانوا بتعاليم الحكمة وكلماتها مما سرقوه من معارف كيميت وأساطير بلاد الكلدان وحضارة فاريجيا وغيرها، ومن ثم نسبوها إلى شيوخهم القدامى مثل «بن زَبوب» «بلعام» و«خامتان»

و«بعرام»، مع أفيونات المباخر وأهازيج الوجد. وبهذا صار أحقر الخلق.. قديسين مباركين تُفرش لهم المذابح في معابد مُذهَّبة وتقدم القرابين لرضاهم، وأصبح العالم يدعوهم بـ «الكهنة الأشراف» و«حكماء البشر المُختارين».

لاقت عبادة أوثانهم الجديدة رواجًا كبيرًا، وكأن العالم قد تعب من المجد والارتقاء بالحياة وشرف الرجال العظماء.. وآثر الانتكاس إلى خيالات الأطفال، حتى أنه بعد فترة.. اكتسحت العقيدة الجديدة سهول ليڤانتيا وجزر الزيتون كالطاعون المعدي، وصار أهل تلك البلاد يتسمون بأسماء شيوخ الشيماڤيت القدامى، وظنوا أن حضارتهم لم تبدأ إلا مع ظهور تلك القبيلة، فرأوا التاريخ بأكمله عبر عين بدوية عوراء.. عين كاذبة خبيثة تتشدق زورًا بالمودة والصدق، فصار البشر لا يعرفون من تاريخ الإنسانية والوجود نفسه إلا خرافات الشيماڤيت المسطورة، والتي أوهموا البشر أنها أسفار مقدسة لا ينجو إنسان دون اتباعها وتصديق ما فيها بلا ذرة شك أو مُساءلة، أما مَن يُشكك في صدقها.. فملعون! مغضوب عليه من قدوس الكون! مُقيَّد في الأخاديد العميقة للأبد! يأكل الأشواك ويشرب حميم البراكين الحامض، بين أصوات عويل الندم وصرير الأسنان!

وفي تلك الأسفار الطالمية وضع الشيماڤيت مخططهم الانتقامي الذي يجعلهم قبيلة اختارها سيد الكون لتسود وتقود، زاعمين أن الإيمان بذلك هو الوسيلة لخلاص الشعوب، والباب الوحيد مع عالم القداسة واللاهوت، وفيها أشاعوا أيضًا كثيرًا من الافتراءات التي تتهم ملوك كيميت القديمة

العظماء زورًا بالقبائح والشرور، وأباطيل تطعن في نُبل أهل كيميت الأطهار وشرفهم الذين عاشوا في أيام الماضي! ليت شعري! كم تدمع العين ويُدمي القلب لهذا الباطل الذي أذاعوه! بل إنهم أشاعوا قصة فجة يعف اللسان عن ذكرها! ويتحسر العقل عن تسليم الناس بها! قصة مختلقة تدَّعي أن «ميريت» العظيمة.. سيدة الفضائل الطاهرة.. ملكة الماضي البعيد.. وابنة كيميت البارة.. قد طلبت الفاحشة من أحد رعاعهم وهو: نتنشاؤول بن زبوب! ولكنه هو من استعفف عن تلبية توسُّلاتها!

***

بدأت حياة شعب كيميت تزداد تدهورًا تحت حكم القولجار.. فقد قام «اللاتين القولجار» بإحصاء وتقسيم مقاطعات كيميت على هيئة اثنتين وثلاثين مدينة، وقرابة الألف وأربعمائة قرية، كان الكيميتيون ممنوعين من امتلاك الأراضي، إذ إنها صارت مُقسمة على هيئة إقطاعيات بين وكلاء وحكام عسكريين من القولجار، ويعمل بها مزارعو كيميت البؤساء الذين وُلدوا على أرضها مقابل دفع الإيجار، كانت القرى والمدن تشبه المعازل والسجون الكبيرة، حيث يُربط كل فرد كيميتي بقريته الأصلية من خلال سِجِل ضرائب لا يستطيع الخلاص منه مدى الحياة، وإلا تعرض للسجن والتعذيب والغرامات التي تقصم الظهر، فكان الانتقال من قرية إلى قرية أمرًا مستحيلًا ما لم يتم تنفيذ إجراءات وتصاريح مرهقة من مندوبي الحكم القولجاريين، يتعهد الفرد من خلالها بأداء مستحقاته الضريبية خلال فترة

غيابه، وكان المفتشون يشددون الخناق بين المقاطعات ويُنكِّلون بالمتسللين.. فكان السجل الضريبي كأثقل الأغلال التي تربط عنق الإنسان الكيميتي في ساقية الحياة الكئيبة، ولا يتخلص منه إلا بالموت، ولم يكن أمام فلاحي كيميت سوى الإذعان لهذا النظام الصارم..

أما في المدن الكيميتية حيث تنتشر حِرَف الصاغة وصناعة الشمع ونفخ الزجاج وغزل شباك الصيد، وكذلك قيادة الحناطير وعربات النقل، والاعتناء بالخيول، وبيع الأعلاف، ودكاكين المأكولات، وورش الحدادة والنجارة، ودبغ الجلود، ففي تلك المدن.. سيطر القولجار على (أُسطاوات) كل حرفة واهبين إياهم حق فرض نفوذهم على العاملين بها وحق منح التصريح العرفي بمزاولتها، مقابل الحرص على أداء كل حِرَفِيٍّ للجزية الثقيلة المفروضة عليه كاملةً في مواعيدها، وقد أدت تلك المشاحنات لتفشِّي أمراض اجتماعية بين أفراد الشعب الأصيل.. وتقطَّعت روابط المحبة بينهم.

وطُبِّقت قوانين السجل الضريبي نفسها، المهينة التي تحرم الإنسان من الانتقال من مقاطعة كيميتية لأخرى، وفي وسط هذا التعسُّف لجأ عدد كبير إلى الهرب نحو الواحات والجبال.. وانغمسوا في حياة الرهبنة معتزلين متاع الحياة الفانية! إلى حياة النساك المنفيين في البراري، تاركين بيوت أجدادهم وقُراهم وأهليهم بغير رجعة.. متخلين عن أراضيهم الخصبة التي آلت للبوار.. بعد أن أيقنوا أنهم يزرعون خيرها لينعم به الأجانب الظالمون.

***

ومع الخراب الذي حَلَّ بالعَالَم، بدأت المفاهيم الفكرية العميقة في الاختفاء من الاستخدام، أو تبقت ألفاظها لتشير لمعانٍ أُخرى، إذ فقد كلٌّ منها مدلوله الأصلي، فاستُخدِمَت الكلمات لتعني معنًا آخر تمامًا.. بحيث تخدم أصحاب المصالح من الدجالين وسارقي العقول وناهبي تراث الآخرين، فالكلمة التي تعني «الإيمان» مثلًا في اللغة الكيميتة القديمة.. كانت تشير إلى التأمل في الوجود الحقيقي الذي يستقر خلف المظاهر المادية، والاستيعاب الذهني للأمور التي تعجز العين عن إدراكها، وإنما يراها العقل المتدبر ويشعر بها القلب السليم.

أما الآن فقد صار اللفظ نفسه يُشير إلى مدلول مختلف وهو التسليم دون دليل أو تفكير أو التصديق والاتباع الأعمى، وهو معنى يكاد يكون مناقضًا لمفهوم فضيلة الإيمان الأصلية، التي تدعو للبحث عن الحقيقة من خلال المعرفة وإعمال الفِكر والتأمل.. وليس المعنى الآخر القاضي بالإذعان دون تشكك لنموذج مذهبي معيَّن يدَّعي التواصل مع الحقيقة الغيبية بشكل حصري، وبذلك.. صارت أسماء عديد الفضائل تشير إلى غير معناها تمامًا، على نحو قد دفع بالبشر إلى حافة الضلال والجنون.. تحت لواء الباطل الموسوم بشعارات الحق والمُقدَّس! وهذه حقًا لهِيَ أعظم البلايا التي أصابت عقل الإنسان.. حتى يأتي ميعاد النور الفائق في آخر الزمان..

وكذلك كلمة «لص».. فقد كانت تشير في الأيام القديمة المباركة إلى كل أناني يستحِلّ لنفسه مزايا وخيرات أكثر من الآخرين، وعليه فإن الطغاة

وناهبي ثروات الآخرين كانوا هم أكبر اللصوص، وكان يُنظر لهم بعين الاحتقار كأبناء للشياطين، أما بمعايير العصر الذي يحيطه ذل الطالمية من جانب وغطرسة القوجلار من الجهة الأخرى.. فقد أصبحت كلمة «لص» تشير للإنسان الفقير الذي يأخذ شيئًا دون إذن وتصريح النخبة المُسيطرة! إذ إن كبار الطغاة والناهبين قد صاروا يُدعَون نبلاء! وأصبح نهبهم المُوثَّق لتعب الآخرين حقًّا طبيعيًّا مُسلمًا به.. بعد أن اتخذ صيغة رسمية كـ «أداء الجزية» أو «إيتاء الضريبة»، وهذا هو انقلاب الموازين الخفي الذي تدمع له عيون الحكماء.

***

وقد حصل في السنوات التالية أمر بالغ الغرابة! إذ حدث أن هطلت ثلوجٌ غزيرة.. ولكنها كانت كريهة الرائحة، وأقرب إلى لون القسطل المحروق! وقد أشار بعض العجائز والحكماء بأن في ذلك إشارة لأمر خطير وشيك!

ويُروى أنه في ذلك العصر قد وقعت عدة مشاحنات في الأقاليم الواقعة تحت نفوذ القوجلار، وظهر أنه من الصعب أن تُحكم إمبراطورية واسعة متعددة الثقافات والأجناس، وقد اشتعلت عديد من الثورات في أنحاء عدة من الأقاليم الواقعة تحت سُلطة، ولم تُجدِ أساليب القمع إلا مزيدًا من الشهداء والأبطال الشعبيين، ولكن شَرًّا عظيمًا كان في الطريق!

إذ جاء كاهن غامض إلى قصر الإمبراطور القوجلار «إيليريون» في عاصمته «لاتينيوم»، وهذا هو إيليريون الذي كان قد استولى على السلطة

بعد زوال جورياللوس بن أرمانيوس على يد جيش تحرير كيميت منذ فترة طويلة، كان الإمبراطور قد صار شيخًا عجوزًا يجلس على عرشه الذهبي ذي السلالم المفروشة بسجاد وكليم الأرجوان، وكان يتأمل سلطانه المتمزق الذي سيتركه لابنه الوريث اليافع.. فإذا به يستقبل ضيفًا غامضًا يحمل في قلبه خطة سوداء! كان القادم كاهنًا غريبًا يسير ببطء يبعث على عدم الارتياح.. يتوشح رداء وبريًّا بنيًّا أدكن ذا نقوش كئيبة، يتدلَّى وراءه فيجرجره على الأرض، وكان له وجه باهت وأنف كبير مليء بالدمامل، وقد اقترح فكرة خبيثة على الإمبراطور!

قيل إن اسم هذا الشخص هو «سيموديوس ماكاديوس» أو بالأحرى «صعمود بن مكيد» كما كان يُعرف بلسان بني جلدته، وهو أحد كهنة الأبرشية الطالمية في مدينة «مرقاديا» في جنوب ساحل «فاريجيا»، دخل «صعمود» القاعة.. وأشار برأي عجيب على الإمبراطور، إذ أخبره بأن السبيل الوحيد لكي تخضع الأكثرية المنهوبة للأقلية الناهبة.. يكمُن في أن تخضع هذه الغالبية - بكل تعددها وأطيافها - لقالب فكري واحد يجمعها مع الأقلية المتميزة، ورغم أنه لن يُسمح للأغلبية أن تتخطى حاجز النّخبة والأسياد، فإنها ستدين بالولاء للأقلية الحاكمة ما إن تجد نفسها مشاركة إياهم الشريعة والفِكر نفسيهما، وأن الشعوب حينها ستخضع وتُطيع كخراف مسكينة، وإن حطَّم أسيادها عظامها بعصيّ العِقاب والذُّل؛ لأنها لا تعرف لنفسها هوية غير هوية حُكَّامها الأجانب.

أخذ الإمبراطور العجوز يتأمل كلمات الكاهن.. ويتدبر مصير ابنه الصغير وأسرته من بعده.. عندما يتصارع كبار القادة والأمراء على العرش، لا شك أنهم سيُمزقون عائلته إربًا ويستأثر كلٌّ منهم بقطعة من الأقاليم المتمردة.

وفي ذلك الوقت شاعت كثير من النزعات التحررية والعقائد والمذاهب.. تمتزج كخليط عجيب، مقتبسة عن بعضها تفاصيل غزيرة، وقد تناول بعضها شيئًا من حكايات المعرفة القديمة.. ولكن على نحو سطحي فج.. ذلك أنها أخذت قليلًا من الرموز وبمعناها الحرفي، وأضفت القداسة الوهمية على كثير من الأباطيل.

فصارت ثلة من الناس يعبدون الوثن الإخميني «ميثرا» بعد أن ألبسوه ملامح قولجارية، ونصبوا له تماثيل لها إكليل مُشرق كالشمس، ونادى البعض بالزُّهد كسبيل للنجاة من فِتن الدنيا وأوجاعها، فخرج منهم متصوفة يسيحون في البرية معتزلين الناس يتأملون عجائب الملكوت، واهتم كثيرون بالتقليد القديم القاضي بتناول خبز الحياة للوصول للتواصل مع الروح وإدراك وَهْم انفصال الذات، وقد مال البعض إلى مذهب «الغنوص» أو العارفين بالأسرار التي تأتي عن طريق التأمل.. وكان من هؤلاء من اتبع تعاليم «المهاجر».. والذي كان له عديد من المناصرين والأحبَّة، وقد اتبع آخرون تعاليم الحكيم الصالح «يغوث الطمطامي»، وأحيا آخرون عقائد الشرق القديم، وأنشؤوا مدارس لتلقين حكمتها وأفكارها.

ولم يمر وقت طويل حتى أقام الملك القوجاري نظاماً من السلطة الكهنية الطالمية لتسيطر على البلاد كما نصحه «صعمود» ولم يكن الأمر وليد المصادفة، إذ كان للشيماثيت كثير من الجواسيس المتخفين كخدم داخل القصور، كما أن الشيماثيت كانوا قد سيطروا على تجارة البغاء وبائعات الهوى في الحواري والأزقة القذرة، بل إن بعض الشيماثيت قد وصلوا إلى مناصب حساسة كمربيين للأمراء وخدم مقربين في قصور «لاتينيوم» عاصمة القوجار وباقي مدن العالم الكبرى، فسمموا العقول عن طريق الابتزاز ونقل الأكاذيب!

ولم تمر سنوات عديدة حتى تحققت خطة «صعمود بن مكيد».. بل إن جميع أباطرة القوجار من بعد «إيليريون» قد اعتادوا – في أثناء مراسم تنصيبهم – أن يجمعوا شعوبهم في محفل كبير ثم يركع الإمبراطور أمام قطعة معدنية منصوبة على شكل خيال الظل، وهو شكل نول الغزل الضخم، وكانت مصنوعًا من الذهب المُزخرف ومُغطًّى بخيوط الحرير الأسود المُعطَّر.. وقد جعل إيليريون من طالمية المشرق العبادة الوحيدة المسموح بها في كل البلاد التي سقطت تحت حكم جيوشه، وقد حرَّم خلفاؤه الحديث عن الحكمة والفلسفة العتيقة، بل حتى الكتابة باللغات القديمة في كل الأراضي التي خضعت لسلطان القوجار الطالمية.. إذ إن هدفه من ذلك هو إحكام السيطرة على الشعوب المختلفة التابعة لسلطانه، بحيث تصبح ذائبة جميعًا في هدف فكري موحد، بلا أدنى احتمال لتمزقها إلى شِيَع وأحزاب ذات أهداف قومية أو أفكار متنافرة أو مشتاقة للحرية، وبهذه الطريقة تمكن الإمبراطور

من السيطرة على أفكار الحشود من خلال سلطات كهنوتية تملك مفاتيح الحياة الأزلية.

بل لن يطولَ الزمان حتى يصير الكاهن الطالمي الأكبر هو السيد الحقيقي في عاصمة القولجار! إذ تعدت سلطة كثير منهم الأباطرة أنفسهم! بل سيصير لاحقًا من مراسم ولاية الإمبراطور الجديد أن يركع أمام الكاهن الطالمي الأكبر.. ويُقبل علامة الطاليم في خاتم بإصبع الكاهن! فصار كهنة الطالمية السيد الفعلي في عقول شعوب ذاك العصر الحزين، ذلك أن سلطة الأباطرة هي على الأجساد، أما سلطة الكاهن – الذي يدعي الوساطة مع الإله – فهي تتخطى ذلك إلى تحديد مصير الأرواح حتى الأزل! وهي سُلطة خرافية لا يُضاهيها شيء.

وبهذا خرجت العقائد لأول مرة من سياقها الروحاني، واستحالت من وسيلة رائعة لتواصل كل إنسان مع الروح وعالم الغيب.. إلى وسيلة للتحكم في البشر من خلال ادعاء الوساطة الحصرية بين الإنسان وعالم الغيب، أصبح العالم مريضًا بالجنون! وظن البشر أن النجاة والصلاح في الخشوع لأكذوبة الشيماثيت! يعميهم الخوف من أن يروا حقيقتها، إذ إنهم حسبوا أن الشك في قدسيتها، ليس إلا تحديًا كافرًا من الإنسان للسماوات، وكانت الحسرة على العالم الذي أذعن لسَكْرَة الجهل وراحة إغماض العيون، وبهذا، لاذ أهل الأرض بالجُبْن والمخدِّر، وصاروا يرون في إرادة الارتقاء.. جسارة متهورة،

وظن الناس أن العلوم والفنون سحر باطل علَّمَتُه الشياطين، وهكذا كان الأمر.

***

وتحت سلطة «اللاتين الڤولجار».. صار لبلاد كيميت حاكمان، حاكم عسكري ڤولجاري عيَّنه الإمبراطور، وحاكم ديني نُصِّب في المعبد الطالمي الكبير في قلب لاتينيوم عاصمة الڤولجار، وجرت العادة أن يكون هذا الأخير ومعاونوه من أصول أيونية فاريجية، إذ كان الڤولجار شديدي الحرص أن يظل أهل كيميت بعيدين أي مناصب حساسة أو أن يكون لهم أي يد في إدارة بلادهم أو تذكُّر مجدها القديم، وكان دور الحاكم العسكري واضحًا باستخدام القوة الصريحة في إبقاء بلاد كيميت وثرواتها تحت قبضة سادتها الغزاة، أما الحاكم اللاهوتي.. والذي سكن قصر كبير من الرخام والذهب، فمنوط به أن يسيطر على عقول شعب كيميت، ويُبقيهم ضعفاء النفس، راغبين في الخضوع والاستسلام، من خلال تذكيرهم بفضيلة تحقير النفس والغرق المستمر في الشعور بالذنب، وكذلك يغويهم ويُخوِّفهم بخرافات اللاماورائيات كما تنصُّ أسفار الطالمية.

وكان للحاكم اللاهوتي نظامًا من الأعوان عُرف باسم «مُجمَّع الشيوخ»، وهم مجموعة من العرافين والكهنة الڤولجار، وكان هذا المُجمَّع هو السلطة الفعلية لبلاد كيميت.. وكان لديهم إقطاعيات واسعة على

طول البلاد وعرضها يخدم فيها أبناء كيميت المساكين كالعبيد باسم خدمة العقيدة لمدة ثلاث سنوات من حياتهم بعد البلوغ مباشرةً، وكان للحاكم الديني ومُجمَّع الشيوخ تسلُّط ونفوذ هائل على أذهان شعب كيميت! إذ أقاموا محاكمات دينية صارمة بعقوبات شنيعة وشيَّدوا سجونًا كئيبة ذات صلاصل وجنازير.. لكل من يأبى الخضوع لنظامها من أصحاب الأرض الأصليين.

وقد حدث في ذلك الزمان اضطهاد عظيم على يد سلطة الإمبراطور نحو مئات المذاهب التي كانت تنتشر بين الأهالي، حتى أن مذهب الغنوص قد تمت إبادة أتباعه عن آخرهم! وكذلك لُعِنَ حُكماؤهم القُدامى، ووُسموا بأبشع الصفات، وصار «المهاجر» يُلقَّب بـ «الساحر الأسود» وتم اعتباره كيانًا شيطانيًّا وفقًا للمذهب الطالمي الرسمي الذي تم إقراره في المعبد الكبير في عاصمة الثوجار لاتينيوم، بل إن النساء صرنَ يخشين على أطفالهنَّ عند حلول الليل من أن يتخطفهم الساحر الخرافي «الأسود»!

أما بوابات الروح أو المستحضرات التي تمنح الإنسان القدرة على التخلص من وهم الذات والحواس المادية.. مثل خبز الحياة والفطر السحري وأشجار الوعي، فقد تم تحريمها جميعًا بصرامة شديدة وتنكيل لا يعرف الرحمة، وكذلك تخلصوا على طول البلاد من أزهار اللوتس التي قيل إنها تنقل الإنسان إلى الوعي الجمعي، وزُيِّفت الحقيقة من خلال استخدام الأسماء نفسها في غير موضعها لكي ينسى الإنسان بوابات الروح للأبد.

حُرمت الكتابة بالحروف والرموز الكيميتية القديمة، وقُنِّنت اللغة القولجارية للكتابة في الدوواين والمعاملات، وقد أتبعَ ذلك أن تدهور لسان كيميت، إذ صار لسانهم متأثراً بلغة الغزاة الأجانب، حتى أن كثيرًا من المفاهيم العميقة في فلسفة كيميت الأصلية قد اندثرت بغير رجعة.. إذ لم يكن لها نظير في أي لغة أخرى!

مرت الأوقات.. وسرعان ما تحوَّل شعب كيميت العظيم إلى ظلال كالمرضى.. ترهقهم نظرة الانكسار.. وصاروا يذهبون للخلاء كباقي الشعوب.. تحولت أمجادهم إلى أطلال، وأصبحت حكمتهم.. مجرد رموز غير مفهومة.. على أحجار قديمة مدفونة، وصار تاريخ شعبهم العظيم ذكرى بعيدة.. كحلم نَسيَه المرءُ بعد الاستيقاظ.

الفصل السابع عشر
نيفيريو والغريب الغامض!

ذهبت أيام «حوري» و«تفنوت»، وذهب كلٌّ من أبنائهم الثلاثة في طريق.. فقد صار پيتوباستي ورفاقه أسطورة خلَّدها التاريخ، أما «آيا» ذات العينين الزرقاوين فقد تزوجت بمزارع صالح يُدعى «نَخت»، وكان نحيلًا ذا بشرة لوَّحتها الشمس بعض الشيء من العمل في الحقول، وله عينان خضراوان، وشارب خفيف، وانتقلت «آيا» لتعيش مع زوجها في قرية ذات حدائق، قريبة من مدينة أشمون العتيقة أي مدينة هرمس الكُبرى، كانت القرية الجميلة معروفة باسم «بهناسيا» وكانت تتميز بنوع غريب من الأسماك التي تعيش في ينابيعها الباردة، إذ كان لها خطم عجيب كالفيل!

وكان القولجار في ذلك الوقت قد تشددوا ضد جميع الفلسفات والأفكار الخارجة عن نظام الكهنة الصارم الذي فرضه ملوكهم، فدخل كثيرون من

أهل كيميت في هذا المذهب الفكري، ومنهم «آيا» وزوجها «نخت»، ووُلد لهما طفلان؛ «بيلاميوس».. وهو اسم بلغة القولجار.. التي صارت اللغة الرسمية على أرض كيميت.. ويُقصد به اسم «بلعام» نسبةَ إلى بلعام ابن بعرام، أما الطفل الآخر فهي الفتاة «يافينيا»، وهي صيغة قولجارية لمؤنث اسم «يعفون» نسبة للقديس الطالمي «يعفون الزبوبي».. والذي ينتمي أيضًا لنسل الشيماقيت.

وبين ويلات الزمان وبطش الأباطرة.. وجد أهل كيميت المساكين عزاءهم في الاجتماع عشية نهاية كل أسبوع في الجوقات الطالمية، فكانوا يخرجون بأطفالهم في تلك الليالي الباردة عبر الحقول، فيجتمعون في بيوت خشبية للعبادة، مُزدحمة بالمعارف والأقرباء، تملؤها الشموع وموسيقى التراتيل وفرحة الأطفال، فتُدفئهم مُشاركة الجيران والأحباب بنشوة الوجد الروحاني.. الذي يملأ صدورهم بالراحة وجروحهم الحزينة بالبلسم، فتظهر على شفاهم ابتسامات الرضا المقهور، متذكرين ما أُعِد لهم من لقاء بهيج بهؤلاء الأحباب في مملكة العالم الآخر البديعة.

واحسرتاه على مشاعرهم النقية الخالصة التي قد تم استغلالها! فالجوقة لا تكتمل دون أن تدمع أعينهم مرنمين الملاحم الوهمية من عهد قوم الشيماقيت وقصص شيوخهم القديمة، وكيف نصرتهم أوثانهم على الشعوب الظالمة من «أهل كيميت الطغاة» وشعب أنهار المشرق وملوك القولجار القُدامى! فتصدح أصوات أبناء وبنات كيميت بالأغاني الخاشعة عن اختيار القدوس

لقبيلة الشيماڤيت من بين الأمم ووعده بأن يورثهم المجد والسيادة على كل البلاد، وكيف أنه اجتباهم بالطاليم العظيم لينشر من خلالهم البُشرى والنور في العالم!

لقد طال الزمان.. حتى تحقق حلم شيخ الشيماڤيت، الذي يرقد منذ سنين طوال في مقابر منسية بسهول الأنباط.. فقد انحطَّ الحال بأهل الحكمة والعزة وأرض البساتين والأنهار المقدسة، وأصبحوا فقراء الحال بلا ذاكرة، بل إنهم قد صاروا شعبًا بلا هوية، وأضحوا مجرد تابعين لرعاع الشيماڤيت القدامى.. الذين دخلوا بلاد كيميت المقدسة في الزمان البعيد وهم أذلاء حاقدون..

***

أما نيفيريو الابن الأصغر لحوري وتفنوت.. الشغوف بقصص الأجداد، فقد كبر وامتهن النجارة، وعاش في مدينة اسمها «سمنوت»، وفتح ورشة بسيطة لأعمال الحدادة والأخشاب، كان حليق اللحية، يافع السن، طويل العود، ذا شعرٍ جميل كالأقواس اللامعة، وكان من القلَّة القابضين على الحق المتطهرين بنورٍ التفكير السليم، فاعتزل الحياة والاختلاط بقدر الإمكان، إذ كان يؤلمه المصير المؤسف الذي صارت إليه أحوال هذا الشعب الكريم، كم كان يشعر بأسى شديد لما يراه قد حَلَّ بأهل كيميت! الذين صاروا منكسرين دامعي الأعين، يقودهم جهل وجنون جماعي كشعب لا يعرف نفسه.

***

وفي أحد الأيام وبينما يعمل نيفيريو في ورشته.. لاحظ أمرًا غريبًا! فقد سمع صيحات أغنية عجيبة يلقيها أحد العجائز، وعندما خرج نيفيريو إلى باب ورشته ليستطلع الأمر.. رأي رجلًا غريبًا.. كبير السن، ذا شعر أشيب كأمواج بيضاء ولحية ناصعة، ولكن شعره المموَّج كان جميلًا برَّاقًا كأنه مدهون بالزيوت، كانت له عينان لامعتان كالليل الكحيل، ويستند على عصا سائرًا في الأسواق، تبدو عليه العِزَّة والأناقة وكأنه قد عاش أيام المجد العتيقة، وكان يصيح بحُرقة من الوضع المأساوي الذي آلت إليه تلك التي كانت يومًا أرض أعظم الشعوب.. قائلًا:

– في عشق أجدادي.. الغوالي على قلبي، أسيادي.. ليت شفتيَّ وسادة خُطاكم.. ليت بينكم رحيلي وميلادي.. رماكم الأقزام بالكفر والاستبدادِ.. وخذلَكُم الأحفادُ فباعوا البلاد.. فجَهَرتُ صائحًا بحكمة كيميت بين النجوم أُنادي.

تعجَّب نيفيريو كثيرًا من هذا الرجل الغامض وارتاب في أمره!

***

والحق أن نيفيريو كان يحزن وهو يرى طوائف من الناس يخرجون في صقيع الصباح الباكر.. ليتجمعوا على هيئة حشود في سذاجة بريئة.. بعيونٍ أتعبها السهر والحزن، فيمشون في بحر من الغموض بين دخان المباخر تلفُّهم ثياب من التقاليد البالية والمتناقضات، ليركعوا متوسلين الغفران أمام تمثال يمثِّل «يغوث طاليم»، فعندها يتحسر نيفيريو على أحفاد من كانوا يومًا

الكيميتيِّين العظماء، الحُكماء والأبطال.. أرقى شعوب البشرية وفخر إبداع الخالق بين جميع المخلوقات، ها هم قد صارت نفوسهم دنية.. يحنون جباههم أمام الأوثان وأهل الخُبث.. بظهور تلهبها أسواط جنود القولجار الذين لا يعبؤون إلا بجباية الضرائب الثقيلة والخراج.

تمنى نيفيريو لو أنه ينفذ وصية أسلافه ويحمي كتاب «تحوتي» الأسطوري من الوقوع في أيدي السارقين من فرسان القولجار السريين والشيماڤيت المتخفين، ولكن المهمة قد صارت مستحيلة.. ذلك أن سلالة جده الأكبر إيمحوتيپ قد انقرضت بوفاة «مانيتو» جدّه من الأم، إذ كانت الخرافات تروي أن معرفة مكان الكتاب كان يتم نقلها بين الأبناء الذكور من ذرية إيمحوتيپ، وبدا بذلك أن الكتاب قد ضاع للأبد من أيدي أصحابه.. ولم يبقَ أحد ممن يعرفون مكانه، وكان المصير المؤسف الحتمي هو وقوع الكتاب في أيدي شر الناس بعد زمن طويل، ما لم يتمكن أحد أبناء كيميت الأبرار من إيجاده ودفنه بقاع النهر الكبير حتى يحين الميعاد.. كما تقول الأسطورة.

حتى جاء يوم رطب بارد مليء بالغيوم البيضاء.. كانت أشعة الشمس الباهتة تظهر من حين إلى آخر بين السحب لتسقط بقليل من الدفء على الوجوه والبيوت والحوانيت الخشبية، أصوات السوق والعمل بالوِرَش هي كل ما يصل إلى الآذان وتمتزج معها أصوات العواصف الباردة المتقطعة، الناس مشغولون في صنائعهم.. وقطرات المطر تتهاطل على الأسطح المصنوعة من الألواح الخشبية والأقمشة القديمة التي تشبعت بالأمطار

فصارت تُقطر المياه إلى جوانب الحارات بجانب جدران البيوت والحوانيت، وكان نيفيريو يعمل في ورشته خافتة الإضاءة.. والتي تتسرب إليها أشعة من النور الأبيض بين جدرانها الخشبية وسقف من الصفيح.. كان نيفيريو يرتدي قميصه الكتاني الأبيض الذي يميل للون التراب، وفوقه صديري مفتوح بلا كمَّين بلون الفُستق منسوج من الصوف، مُشمرًا عن ساعديه منهمكًا في أعمال الحدادة، مع بنطال شتوي رشيق من الجلد والفرو، وبدا شعره الكثيف لامعًا رائعًا للغاية، تجري قطرات العرق على وجهه الجميل وصدره، ورغم برودة الجو فقد كان جسمه دافئًا من النشاط، وعندها وصلت إلى أسماعه أناشيد مألوفة يصيح بها عابر سبيل من بعيد.. جفف نيفيريو وجهه بمنشفه من القطيف، ثم تقدَّم عند باب الورشة القديم.. فلمح العجوز التائه نفسه يسير بِوَهَن في الأسواق التي امتلأت تربتها بطين الأمطار، وينشد قصائد حزينة أشبه بالتحسُّر على الأطلال.

وبينما يتأمل نيفيريو الرجل العجوز المخبول.. شعر بالحزن على الوحشة التي استشرت في كل مكان.. إذ انشغل الناس وصاروا غير عابئين بمعاناة جائع أو بردان، كان نيفيريو يؤمن أن غاية الإنسان الحقيقية هي أن يعيش حياة يرضاها ويحبها روح الكون البديع الكامل، وأن التقرُّب من الخالق العظيم ليس في طقوس العوام من تمسُّح بالأرض أمام الرموز، كما أوهمهم الظالمون والدجالون تُجَّار الغيب ومُدَّعو القداسة، ولكن الحياة التي تُرضي مُبدع الكون تكمُن في التشبُّه بصفاته الكريمة الرائعة، وأن يُكرم الإنسان

كل ما صنعه الخالق من أرواح وأجساد وطير ونبات، وأن ذِكر الخالق ليس في كثرة الهمهمة بألفاظ التملّق، ولكن ذِكره هو أن تسكن محبته الصادقة القلب.. فيوافقها العمل واللسان في كل الأوقات، وبهذا يصير بإمكان كل إنسان أن يصبح التغيير الطيب الذي يتمنى رؤيته في العالم، وأن يكون الملاك الذي يُرسله البديع لنشر المحبة والرحمة والتعامل اللطيف مع الموجوع والمسكين.

فكان نيفيريو الشاب يجد عميق البهجة في أن يُكرِّس بعضًا من جهده وكَسبه القليل في جبر القلوب.. وتخفيف قساوة الحياة عن الجوعى والتائهين، فكان يخدم الضعفاء سرًّا ويُنفق على الأيتام ويعطف على الضعفاء الذين يلفظهم عوام الناس، وكان يُعامل الناس باحترام دون أن ينظر إلى مراتبهم الدنيوية، وفي ذلك اليوم البارد.. قرر نيفيريو أن يستضيف الرجل العجوز، ولو بعض الوقت ليحميه من البرد ويشاركه بضع لُقيمات.

خرج نيفيريو إلى الطريق المليء بطبقة طينية من ماء المطر المتساقط، فشعر على الفور ببرودة المطر على وجهه، فرفع ذراعه قُرب جبهته الناصعة ليحتمي من القطرات الهاطلة، وغاص حذاؤه الجلدي مع كل خطوة في أرضية الشارع السبخة بالمياه، ولفحته الرياح الباردة وكأنها تخترق قميصه لتصل إلى جسده الدافئ، فاقترب من الرجل العجوز ووضع ذراعه برفق على كتفه وغطَّاه بذراعه اليُسرى من الأمطار، وسار معه بهدوء حتى أدخله إلى الورشة ذات الإضاءة الهادئة والأرضية الخشبية المريحة، ثم توَّجه به إلى ركن دافئ

لطيف، بالقرب من مدفأة بها شعلة لهب تتلألأ بنور يختلط فيه لون النحاس ووريقات الورد.

فأجلس الضيف على مقعد خشبي عريض مفروش بغطاء وثير، عندها لاحظ نيفيريو أن العجوز ما يزال يرتعش.. فوضع على ظهره بطانية دافئة من القطن المغزول.. ثم أحضر أربعة أرغفة من الخبز البلدي الساخن وطبقًا من الفول المدمس الذي خرج لتوه من الفُرن مع إناء فخاري من الماء.. وقدَّمها على الطاولة للعجوز الغريب.

ورغم أن العجوز ذا الشعر المموج ناصع البياض والعينين الكحيلتين كان يبدو مُجهدًا وفاقدًا لذاكرته تمامًا.. فقد رَفَضَ الطعام بأنفةٍ كريمة، وردَّ على نيفيريو بعزة نفسٍ ووقار:

– لقد عفَّت نفسي عن الحياة أيها الشاب، بعدما أصابها من عطنٍ وفساد.. ولتعلم أني لا آكل خبز مَن لعنوا الأسلاف الأطهار وباعوا خير البلاد.

فطيَّب نيفيريو خاطره عندما أخبره أنه من المحافظين على تراث كيميت، وأنه من المخلصين لحكمة الأجداد وعاشقي تاريخ بلادهم الأصيل، وأنه لم يركع يومًا لأوثان المشرق، عندها بدت البهجة على وجه الرجل العجوز.. بين التقاطيع السمحة والعينين الفطنتين المُجهدتين واللحية البيضاء الأنيقة.. كان الرجل يبدو حقًّا كأنه قد عاش عمرًا مديدًا للغاية! ورأى الحياة المباركة قبل سقوط أرض البساتين والأنهار، فجلس الاثنان معًا وتناولا لقيمات

الفول الساخنة الشهية، ولكن نيفيريو كان قد بدأ يشك في أمر هذا الغريب، وعندها استفسر نيفيريو من العجوز عن هويته.. فردّ عليه قائلًا:

– أنا ابن النهر والبستان.. أنا المسافر الغريب... هبطتُ بساحل الألوان، ثم عُدت وقد رحل كل قريب.

تدَّبر نيفيريو بُرهة في كلمات الرجل الكبير.. ودارت في عقله حكايات الأجداد التي رواها له والده الراحل حوري.. ثم شَعَر بالذهول! فقد أدرك هوية هذا العجوز! إنه أحد أبناء كيميت القُدامى.. الذي رحل وعاش غريبًا في بلاد ما وراء الغرب! وها هو قد عاد بعد كل هذا الزمن الطويل.. فوجد كل شيء قد تغيَّر!

إنه تسوتي بن راحوتيپ سليل إيمحوتيپ، إنه تسوتي أخو مانيتو جد نيفيريو، تسوتي الذي خرج قديمًا مع المغامر پحوي ورفاقه في رحلة بحرية أسطورية إلى ساحل الغرب البعيد، فمكث هناك ولم يعد معهم إلى أرض الوطن.

شعر نيفيريو بالحزن على حال تسوتي الذي قد ذهب عقله.. ولكن قلب نيفيريو قد امتلأ بأمل عجيب! ذلك أنه يعلم أن تسوتي ينحدر من نسل الأبناء الذكور لإيمحوتيپ العظيم، وبذلك فالفرصة لا تزال قائمة بأن يُدلُّه تسوتي على موضع كتاب «تحوتي» المُقدس ليحفظه في مثواه الأصلي كما أوصاه أبوه حوري.. فعندها أخبر نيفيريو تسوتي عن علاقة القرابة بينهما،

وأحسن ضيافته بكرم وقلب ودود. وطلب منه محاولة تذكُّر مكان الكتاب.. فردَّ تسوتي بصوت مُجهد:

– قد ذهبت ذاكرتي في الرحلة الطويلة.. فلا أجد لاسترجاع الذكريات سبيلًا.. بل إن ذِكر اسمي قد صار ثقيلًا..

***

وعندها أغمض «تسوتي» العجوز جفونه ببطء وإرهاق.. كأنه على وشك الخلود إلى نعاسٍ في مكانه.. وبدا أن العجوز المُجهَد المسكين يتمتم بهمسات لا معنى لها.. فتنهَّد نيفيريو.. وقد انطفأ أملُه.. وعندها هَزَّ تسوتي رأسه متأملًا وهو ما يزال يُغمض عينيه وأكمل بصوت واهِن:

– ولكن كنزها لا يُنسيه الرحيل! إنه تحت حجر المُعلَّم في «بيت فيلا».. ومآله الحفظ في قلب النيل.. عند الشجرة القديمة.. في جفط القناديل.

وعندما سمع نيفيريو ذلك امتلأت صدره بحماسة شديدة، ووجهه بابتسامة فرحة كبيرة! وضمَّ «تسوتي» العجوز بلطف وعاطفة جارفة بين ذراعيه وقال بعطف وبهجة:

– مُبارك أنت يا عم أمي، لم يكن مغيبك بلا جدوى يا ابن البلاد الطاهرة!

عزم نيفيريو على أن يُكرَّس نفسه في هذه المهمة الجليلة لحفظ كتاب «تحوتي» الأسطوري.

بدا الإرهاق والإعياء واضحًا على تسوتي العجوز، فقال لنيفيريو:

- ها قد أعطيتك سؤلك بشأن الكتاب.. فلا رهَقَ ولا عتاب.. وإنَّي راحلٌ قريبًا للخلود.. يا نسل الأخ الودود.. فحسبي أن أكون بين الأحباب.. عندما أُوارَى تحت التراب.

فوعد تسوتي بإخلاص بأن يدفنه في مقبرة العائلة عندما يأتيه الأجل.. قُرب مدينة «پيجوات»، حيث يرقد أخوه «مانيتو» وأفراد كثيرون من العائلة.. وحيث يستقر أسلاف الماضي الأبرار.

ثم جمع نيفيريو أغراضه سريعًا وهو مليء بالشغف والحماسة! وهو لا يكاد يُصدِّق أنه على وشك الخروج في رحلة عبر مُدُن البلاد وأقاليمها.. لإنقاذ كتاب تحوتي الأسطوري!

الفصل الثامن عشر
رحلة نيفيريو للبحث عن كتاب تحوتي

حمل نيفيريو بعض أغراضه في حقيبة قماشية، وبدأ رحلته متوجهًا نحو مدينة سوينيت في أقصى جنوب بلاد كيميت.. حيث بيت «بيلاك» للمعرفة والروح وهو مجموعة من المباني العتيقة المُقامة على جزيرة تُعرف باسم «فيلا»، وقد شاع اسم هذا المكان في بداية حكم غزاة الشمال كمعبد، إذ إن بيوت الحياة ومدارس الحكمة الكيميتة قد حُرِّف اسمها إلى «معابد»، وهو قول مغلوط قد استهدف إضفاء الوثنية على حكماء الماضي العظام الذين قد تحوَّل اسمهم زورًا إلى «كهنة»، وذلك ليتم إظهارهم في صورة الضلال والهرطقة.. وكذلك لترسيخ السُّلطة العقائدية باعتبارها أمرًا واقعًا ومقبولًا منذ قديم الأزل.

جَعَل نيفيريو النهر الكبير بوصلة له، فسار في ظله الوافر حاملًا معه حقيبة قماشية باهتة يضع ذراعها على إحدى كتفيه ويحفظها تحت كتفه الأخرى، كانت هذه من المرات القليلة التي يخرج فيها هذا الشاب من قرية سمنوت

منذ مولده، وكم أصابه الذهول الممتع وهو يشاهد كثيرًا من قرى كيميت ومدنها المختلفة للمرة الأولى! بعد أن كان يسمع عن حكاياتها القديمة وتاريخها العتيق، إذ كانت أخبارها تصل كصُوَر ضبابية مهتزة على سطح الماء، أو كنقوش مذهلة على السحاب البعيد وراء الغيوم.

كان الطريق طويلًا، ورغم أنه لم يكن من السهل أن يعبر بين القرى دون تصاريح.. فإن نيفيريو كان شابًّا ذكيًا ويعرف كيف يصل لما يريد، فعبر بشغف بين المدن المتتالية.. مرت به أيام وليالٍ بين أشجار السفرجل والنخيل الضخمة.. ومزارع الليمون وحقول القطن الأبيض.. سار بصندله المصنوع من البردي، وداعبت الأعشاب الخضراء ساقيه العازمتين.. كان يبيت تحت الظلال، وأحيانًا كضيف أو عابر سبيل.. في منازل أهل كيميت الطيبين، وأخذ يتأمل كل مدينة عتيقة من أقاليم كيميت.. فيتخيل كيف كانت تلك الأطلال في أيام مجدها! متذكرًا عظمة الأسلاف وعصور الفرحة والبهاء التي طواها تغيُّر الأزمان.

***

ولكن في وقت مغيب الشمس عند نهاية مدينة «نوب تيمبو» القريبة من سوينيت.. واجهته عقبة كبيرة! فقد عرف أن الڤولجار قد أقاموا حملة كبيرة على الطريق خارج حدودها.. يفتشون فيها بتشدد على كل مسافر دون تصاريح.. وقف نيفيرو وراء نخلة بالقرب من الضفة، ونظر إليهم من بعيد، وتدبّر الأمر.. فعاد إلى مدينة «نوب تيمبو»، واستأجر قاربًا من النوتي.. وعبر

معه نحو الضفة الغربية من النهر الكبير في سكون وقت العِشاء.. كان الجو مليئًا بالضباب فوق سطح النهر الهادئ.. وهناك سار غربًا حتى وصل إلى مناطق جبلية وَعرَة في التخوم الغربية.. ثم عاد إلى اتجاه الجنوب لكي يسير بمحاذاة الطريق الأصلي.. وبذلك يتحاشى المرور على كمين القولجار.

أمضى ليلته عابرًا بين الجبال الشاهقة والوديان.. ولكنه في الصباح لم يعرف الطريق! إذ كانت الجبال تسُدُّ المسار! وليس إلا لخبير أن يعرف كيفية العبور.. حزن نيفيريو وجلس مفكرًا عند الغروب.. راح في النوم من فرط الإرهاق.. حتى امتلأت السماء بلمعان النجوم.. غاص في السبات بإجهاد بالغ.. ولكنه استيقظ في وسط الليل! على عطر طيب كبستان مليء بالورود! صوَّب نيفيريو عينيه المتعبتين نحو خُطى شخص يقترب! وعندما التفتَ.. وجد رجلًا وجيهًا فارع الطول! ناصع الجبهة، له عينان ضيقتان وأهداب كحيلة، وله ابتسامة تبعث على الاطمئنان! وتبدو الحكمة البالغة على ملامح وجهه الكريم، يرتدي قميصًا من الكتان، وعقدًا من الورود وأوراق النبات، كان صوته يوحي بأنه حكيم كبير السن.. إلا أن بشرته نضرة كشابٍّ ذي وجهٍ صَبيح، وله نظرة واثقة تبعث على الاطمئنان كأنه ملك من نسل الملوك.. لم يستطع نيفيريو أن يتبين كل ملامحه.. إذ كانت عيناه مجهدتين، وبصعوبةٍ استطاع فتح جفونه.. وقف نيفيريو اليافع أمام الرجل العظيم في ذهول، وهو لا يعرف إن كان غارقًا في أحد أحلامه المفعمة! ثم توجَّه نيفيريو إليه بالقول: – هلَّا ساعدتني.. أيها السيد الحكيم؟

فقال له الرجل الكبير:

– إنما جئتُ لأُنير سبيلك، يا من طال اشتياقه إلى الطريق القويم، لا تُبقِ في قلبك إلا الجواهر الصادقة؛ لتعرف أنك من روح القدوس الكريم، عندئذٍ تصير إرادتك مطابقة لمشيئة المُبدع العظيم!

قام معه نيفيريو، وسار مع العجوز الغامض، ومر الاثنان بين الطرق الوعرة والجبال، ولكنها بدت كالسهول المنبسطة في صحبة هذا الرجل الفاضل المُبارك.. وعند الفجر، وصل الاثنان عند ضفة النهر مرة أخرى في الجنوب، عند حدود مدينة سوينيت ذات الجزر المزهرة.. امتلأ قلب نيفيريو بالفرحة، فقد أوشك على الوصول، وشعر بارتياح كبير وبهجة وهو يشم عبير الورود على الجزر الصخرية بين جداول النهر الكبير.. ومن بين أوراق الأشجار الكثيرة ذات اللون الليموني ودرجات الأخضر.. أشرقت أولى أشعة اليوم الجديد على وجه نيفيريو السعيد.. فبَدَت البهجة على عينيه الطيبتين المرهقتين، وابتهج قلبه لزقزقة العصافير.

عندها أراد أن يشكر الرجل الكبير.. ولكنه عندما التفت.. لم يجد أحدًا إلى جانبه! فحدثته نفسه إن كان يهذي! أم أنه قد كان في صحبة ڤيردو الأسطوري؟ البستاني الحكيم؟!

دخل نيفيريو المدينة الخلابة ذات صخور الجرانيت والصَوَّان والشجيرات المُلوَّنة.. كانت المياه نقية على نحو يسلب العقل! وكانت براقة كصفحة

المرآة، تحفَّها أغصانٌ وطيور بديعة.. وتكوينات صخرية تخترق ضفاف النهر الكبير.. حتى صار نيفيرو عند المعبد المنشود!

كان المعبد المفتوح مُقامًا تحت السماء الواسعة، وكان مُكوّنًا من مبانٍ معمارية عديدة ذات أعمدة بُنيت في عصور مختلفة، وقد تحوَّل في ذلك الزمان لمكان لإقامة الرهبان وناسكي الطالمية من أهل كيميت.. وكذلك بعض العائلات التي تم تشريدها.. فجاءت لتبحث عن المحبة والعيش البسيط بعيدًا عن اضطهاد الڤولجار، وكان مجتمعًا صالحًا يعيش بالتكافل.

كان المعبد بالغ الجمال، وأغلب مساحته بلا سقف يحجب جمال السماء، ولا جدران تخفي روعة الأفق، تملؤه الأشجار، وغناء الطيور بين الأعمدة القديمة، وبه نوافذ كبيرة على الجدران تطل مباشرة على الجُزُر الصخرية والمياه الصافية للنهر الكبير.

انضمَّ نيفيريو إلى النّسَّاك طيبي القلب.. كان لديهم العديد من المطاحن الحجرية وسُبُل المعيشة الطبيعية وأدواتها البسيطة.. وقد لاحظ نيفيريو أن أغلب الكتابات الكيميتية القديمة قد طُمست، وكذلك بعض الصور والتماثيل العتيقة.

بحث نيفيريو عن تمثال «تحوتي» المعلم العظيم، وكانت علامته أنه يمسك بالقلم.. بات الليلة وهو يفكر بين الرفاق الودودين.. وفي اليوم التالي استمر

في البحث عن التمثال حتى وقت العصر.. ولكن لم يجد ما يريد.. كان يتفقد الأركان المهجورة، وأطراف الشاطئ الصخري.. وينظر من النوافذ في السور الحجري.. ولكن لم يجد أي شيء..

***

مرت ثلاثة أيام.. أخذ الأمل في العثور على الكتاب الأسطوري يتلاشى.. شعر نيفريو أن عليه أن يتقبَّل الأمر.. بل جال في خاطره أن يستقر في هذا المكان الهادئ الجميل كواحد من النساك.

***

وفي اليوم الرابع.. كانت شمس العصر هادئة بين نخيل الأفق على الضفاف، وصوت المياه يريح البال .. جلس نيفيريو في إحدى جنبات بيت بيلاك الواسعة يتأمل الأشجار وهدير النهر العظيم.. وطيبة قلب النساك واللاجئين الذين لاذوا بهذا الموقع الخلاب.. ثم أخذ نيفيريو يمشي مفكرًا في وسيلة لفكِّ اللُّغز.. ومعرفة مكان التمثال الذي تختبئ وراءه غرفة الكتاب الأسطوري.. فسار بين الجنبات وهو يتدبر النور الأبيض البديع.. الذي يدخل على نحو سحري بين أبواب بنايات المعبد المتنوعة.. شعر أنه يرى في أعماق نفسه.. حقيقة أن كل عناصر العالم.. تُكوِّن لوحة هائلة متصلة.. تبدو لنا أجزاءً عشوائية، ولكن ما إن نبتعد حتى تبدو لنا على حقيقتها.. كتحفة فائقة كاملة بيد فنان رائع! فأخذ يتأمل بفرحة عجيبة.. كيف أن كل بوابة

من أبنية المعبد المفتوح تقود المرء إلى جنات واسعة خفية! ذات أشجار ملونة وضفاف صخرية مُذهلة! كمشهد يرطب النفوس بالأمل العظيم! ويقبع بروحانية جارفة وراء بُشرى البوابات!

***

عندئذٍ.. تفتق ذهن نيفيريو لفكرة! عن ركن كان يستبعده من البحث! إذ تذكَّر أنه لم يبحث قط ناحية المبيت.. الذي ينام فيه هؤلاء الأخيار رحيمو القلب من ناسكي هذا المعبد.. لعل المدخل الخفي يقع من خارج المعبد ناحية الجزر الصخرية الصغيرة.. فتوجَّه إلى تلٍّ مرتفع على طرف المعبد وهو يحمل الأمل الأخير.. وصوَّب بصره ناحية المسكن الهادئ.. وعندها.. رأي مساحة هابطة للأسفل تطل مباشرةً على النهر! مكان خفي لا يبدو للعيان من داخل المعبد الواسع المفتوح!

عندئذٍ.. ركض سريعًا بين أركان الجزيرة الهادئة والجدران العتيقة التي تزينها.. بقلب يخفق بسرعة شديدة من الفرحة الممتزجة ببعض التوتر! توجَّه نيفيريو سريعًا نحو الموقع المطلوب وقفز بين الصخور لأسفل.. بينما تتطاير عليه قطرات النهر الجاري ذات اللون الفيروزي الفاتح، فوطئ بصندله طبقة تامة الصفاء من المياه العذبة الجارية فوق أرض صخرية جميلة سوداء.. اقترب نيفيريو من الجدار الصخري الذي تغطيه فروع كثيفة متشابكة كالأدغال.. كان المكان مهجورًا تمامًا، ويبدو أن أحدًا لم يهبط هنا منذ فترة طويلة جدًّا! كانت شمس ما بعد العصر خلفه بين نخيل الأفق البعيد..

تصبغ الجدران وصخور الجرانيت بطيف برتقالي مُذهل.. فقفز نيفيريو بين الأغصان الخضراء بحماسة.. ليكتشف ما يقبع وراءها من أسرار! وما إن أفسح طريقًا بين الأغصان الخضراء المتداخلة.. حتى حدث له أمرٌ عظيم! وكاد قلبه يتوقف من الذهول!

***

إذ وجد أمامه رجلًا خارقًا! تلوح عليه سمات الخلود! التقط نيفيريو أنفاسه في انبهارٍ شديد!

وأخذ يتأمل ريشة الكتابة والسِّجل في يدي الرجل الخرافي.. إذ أدرك نيفيريو أنه يقف أمام تمثال بديع بلا مثيل! وراء الأغصان التي كانت تحرس هذا الركن القديم المهجور.. وكم كانت فرحته! إذ أدرك أنه قد وصل أخيرًا للهدف المنشود! تسارعت أنفاس نيفيريو واستبشر وجهه الطهور.. وأزاح البلاط الموجود أسفل التمثال.. كما أخبره تسوتي.. الشهير باللهب الناصع.. فنزل نيفيريو على درج لأسفل.. يقود إلى غرفة سرية تحت الأرض! ذات نقوش ذهبية عتيقة وكنوز من لفائف بالغة القِدَم.. وبينها.. كان هناك مصدر لمعان غريب يشرح القلب بالفرح الذي لا يُمكن وصفه.. وعليه علامة أعظم المعلمين!

لقد كان الكتاب الجليل! المكتوب بخط «كبير الچحاتتة» الأسطوري.. تحوتي الحكيم.. المُعظَّم ثلاثًا! إنه الكتاب الخطير الذي يبحث عنه مشعوذو

الشيماڤيت وفرسان الڤولجار السِّرِّيُّون! كان مستطيلًا ويشبه الصندوق، وبه عدد هائل من الصفحات القديمة..

تذكَّر نيفيريو بفخر أسلافه العظماء الذين أسسوا جماعة الحكمة المقدسة (سمايت سارانتيرو)، شعر نيفيريو برغبة شديدة في أن يفتح الكتاب! فيطَّلع على الأسرار العجيبة الموجودة فيه.. وينال بعض القدرات الخرافية التي قيل إن الكتاب يمنحها.. مثل رؤية الجن والملائكة! ومحادثة الطير والشجر والدواب! ولكنه قاوم الإغواء.. إذ كان يعرف التقاليد العريقة.. فقد كان نيفيريو موقنًا بأن الكتاب ينبغي أن يُحفظ حتى يحين الميعاد.. عندما يأتي ابن كيميت البار الذي ينال التنوير.. وضع نيفيريو الكتاب في حقيبته.. وخرج من الغرفة السرية وأغلقها.. ورحل سريعًا عند الغروب، بينما كان الناسكون يحملون الشموع ويغنون في جوقات تملأ القلب بالمحبة والأمل.. ودَّ نيفيريو لو أنه يستطيع البقاء معهم، أو على الأقل لو كان بإمكانه زيارة هذا المكان الدافئ كلما أراد.. ثم عاد أدراجه شمالًا، وتحاشى أماكن حملات الڤولجار على الطريق.

لم يخشَ لومة لائم، إذ كان عارفًا أن روح الكون المُبدع.. لن يخذله في مسعاه للحق.. ولن يتركه في أيدي الظالمين.. حتى وصل إلى بلدة جفط في قلب الصعيد.. وهناك وجد شجرة جميز عتيقة قُرب النهر كما أخبره تسوتي ذو الروح الحرة.. وعلى سطح نهر حابي الكبير كانت الورود المائية والزنابق تتحرك بهدوء.. فأخذ نيفيريو الكتاب وغاص في الأعماق.. كان قاع النهر مليئًا

بالتفاصيل! وجدرانه متلألئة كالجواهر الثمينة المدفونة من قديم الأزمان! وتغطيها طبقة من الطين وأغصان النباتات المائية.. وهناك ما يُشبه أعمدة القصور الضخمة تحت الماء! وتماثيل ضخمة لبشر بملامح وأزياء كيميتية قديمة! كأنهم يحرسون المكان من الغرباء، ويُطمئنون أحفادهم الأبرار.

صوب نيفيريو أبصاره للأمام وهو يسبح تحت المياه.. فوجد تابوتًا قديمًا في باطن النهر.. كما تحكي الأسطورة.. كان للتابوت تصميم مُبهر وزخارف تحفِّز الأفكار البديعة في عقل الإنسان! وما إن وضع نيفيريو الكتاب في مكانه.. حتى حصل على مكافأة رائعة! إذ إن بهاءً عظيمًا قد سَرَى من الكتاب إلى جسد نيفيريو! فأنار عقله بأفكار رائعة.. لا يعرفها إنسان آخر ما يزال حيًّا على وجه الأرض! ثم خرج الشاب من الماء واستند إلى ظهر الشجرة ليلتقط أنفاسه.. وهو مبلل بالماء وبعض زهور النهر، بوجه بشوش وقلب نقي مليء بالبهجة..

***

وبهذا أبقى «نيفيريو بن حوري» الأمل حتى يحين الميعاد، فحمى أعظم كنوز كيميت من الوقوع في يد أعدائها، إلى أن يحين الميعاد الذي يأتي فيه حورس.. ابن النور.. إنسان كيميت المتنور الذي ينال البصيرة العليا، فيستعيد عرش البلاد بعد ملاحم عظيمة!

***

عاد نيفيريو إلى مدينته «سمنوت»، وعاش كنجار عادي ذي قلبٍ صافٍ.. يصنع العجلات ويُصلح الفولاذ.. وبيد ماهرة يُزخرف الخشبَ ويطرق النحاس.. عاش معه قريبه الغالي تسوتي في آخر أيامه.. فكان له خير قريب يُذكِّره بالأسلاف الأحباب.. ولم يعرف أحد آخر قصة نيفيريو النجار.. كواحد من أعظم أبطال كيميت وتاريخ الإنسان! ولكن نيفيرو قد حصل على ما هو أجمل من الاستحسان.. فكانت الابتسامة الخفيفة دومًا على وجهه في أثناء عمله في الورشة.. وفي أثناء اطِّلاعه في الليل على الكتب القديمة عن حكايات الأجداد والأولين.. فقد لمس روح الكون قلبه بأنوار قدسية ذات صبغات لم ترها عين! وأفراح تملأ الأفق بأصناف البهجة! وبذلك ظل قلبه مفعمًا طوال حياته بالشعور الإلهي الغامر.. الذي تعجز الكلمات عن وصف حلاوته.

***

وبعد فترة قصيرة رحل تسوتي العجوز.. ابن راحوتيپ وسليل إيمحوتيپ تاركًا نيفيريو وحيدًا كآخر ورقة خضراء على شجرة عظيمة من السنديان، فدفنه نيفيريو عند مقبرة العائلة بمدينة پيجوات في أحد أيام البيضاء، فاستقر جثمان تسوتي البار.. بجانب قبر أخيه «مانيتو»، وبذلك نال تسوتي رغبته بأن تمتزج روحه وجسده في النهاية بأرض كيميت المباركة، في رفقة السابقين الأطهار، الأحباب الذين سيجتمع بهم تسوتي، تحت الأنوار الملوَّنة البهيجة في عالم الخلود! في حضرة البديع القدوس!

وبهذا فقد تحققت بصيرة يحوي المغامر، عندما احتسب حكمة المُبدع في إقامة تسوتي في بلاد ما وراء الغرب، فقد كان بقاؤه سببًا في حمايته من المذابح التي أقامها القولجار لنسل إيمحوتيپ، ومن ثمَّ كُتب البقاء لسر كتاب تحوتي محفوظًا في ذاكرة تسوتي، حتى جاء موعد إنقاذ الكنز على يد بطل آخر من أبناء أرض البساتين والأنهار.

***

كانت أرضية المقبرة في مدينة «پيجوات» كبستان من الأعشاب والزهور، ومقاعد قديمة جدًّا من الرخام، وكانت الأنوار بيضاء تملأ المكان وسط ضباب الفجر الخفيف.. فتأمل نيفيريو مقابر أسلافه الذين رحلوا، وقال لنفسه:

-ها قد تحققت نبوءات جدي الأكبر راحوتيپ، سيُطمس الحق لعصر طويل.. تحت التراب والطين، سيُحرم الإنسان من التواصل مع عالم الحقيقة الجلية والفرحة الأزلية، ولن يسمع الناس إلا ترانيم وصور زائفة.. تداعب رغبتهم الدفينة للتواصل مع المقدس، سيُبغض ابن كيميت أخاه فداءً لأوثان الغرباء!

عندها بدأت شمس تسطع من بعيد في الأفق، ولمعت في عيني الشاب! فصاح وهو ينظر للأمام:

- كما أن الشمس تسطع من جديد بعد الظلام.. سيأتي الفجر ويبزُغ عهدٌ جديد.. ليستيقظ العالم من السبات ويعرف معنى الوجود.. سيظهر يومًا ما.. جيلٌ من أبناء كيميت الأبرار.. يعرفون مجد كيميت القديم.. ويأتون

بشمس الظهيرة الكاسحة.. وأنوار الدينونة الفاضحة! فتظهر الحقيقة جلية واضحة.. ويعود نور الحكمة ليملأ العالَم ويسود.

***

وعن نيفيريو قد رُوِيَت حكايات غامضة متقطعة عن شاب صالح من أبناء كيميت.. أنقذ العالم في وسط عصور الزيف.. وحافظ على أعظم مصادر القوة على الأرض حتى يحين الميعاد، وذهب البعض بأن كتاب تحوتي لم يكن مجلدًا من الأوراق المكتوبة.. وإنما أشبه بصندوق خرافي يحوي المعرفة المقدسة على نحو لا يُمكن تخيُّله أو وصفه بالكلمات..

***

عاش نيفيريو النجار وحيدًا.. ولم يرَ أخته «آيا» وأسرتها بعد ذلك سوى مرَّة أو اثنتين..

لطالما افتقد أخاه الأكبر «بيتوباستي».. وأيام أسرتهم السعيدة في الماضي.. واثقًا أنه سيجتمع مع كل الأحباب في جنات النعيم والخلود.

كان نيفيريو يُفكِّر كثيرًا في جده الأكبر ڤيردو.. ذلك البستاني الغامض.. الذي تُروى عنه حكايات عجيبة! فكان يحب أن يسترجع ذكريات الحواديت الشائقة.. التي لطالما قصَّها عليه أبوه حوري في صباه.. عن مجد كيميت القديم ومقاطعاتها العتيقة.. ملوكها وقدَّسيها وملائكتها، حكمائها ومغامريها الأبطال.

***

ويُحكى أن «نيفيريو» قد راح ليلة في سباتٍ عميق الأغوار.. عند ينبوع تحت شجرة عتيقة يستنشق عطر الأزهار.. يجري السحاب في السماء، مع أنغام الناي الهادئ والقيثار.. فرأى جدَّه المغامر «يحوي» في المنام.. يقف كشاب عظيم في حديقة بجانب أغصان النهر.. وينظر إليه بوجه ضاحك راضٍ.. وقبل أن يختفي بين الضباب والنخيل، ناداه نيفيريو صائحًا:

– جدِّي.. أخبرني.. من ڤيردو.. البستاني الحكيم؟

فرد عليه يحوي:

– أتسأل عن ڤيردو الجليل؟ هو رجل لم تلده امرأة! هو ابن كيميت والأنتار! هو نسل ملوك الأشجار!

والحق أن الكثير قد قيل عن «ڤيردو پاتميس» البستاني الحكيم، فغالى البعض في شأنه.. واعتبروه القديس «پتاح» سيد الإبداع، وقال آخرون هو تجلٍّ لروح سيد النخيل والأشجار «أوزير العظيم»، وقال البعض إنه ليس ابن بشر! وقيل إن « ڤيردو» قد خرج من أحد أشجار كيميت القديمة، مستدلين على ذلك باسمه الذي يشير للنمو والازدهار.. طلوع الورود والاخضرار، وكذلك لقبه «پاتميس» والذي يعني حرفيًّا «ابن الشجرة»، وأغلب الظن أنه لم يكن مجرد بستاني يعمل في تصميم الحدائق، ولم يكن مُجرَّد رجل صالح في مجمع حكماء «بير عنخ»، وإنما كان الرئيس الأكبر لجماعة «سمايت سارانتيرو» لتعليم الحكمة المقدسة في عهد الملك «كمتيو الأكبر»! تلك المجموعة الفائقة التي حافظت على حكمة كيميت عبر العصور من أيام المُعلم الجليل

تحوتي المُعظَّم ثلاثًا، وقد راحت قيادتها لمعلمين آخرين ظلت هوياتهم وراء الغيوم، وإن كان الأمر كذلك فإن ڤيردو يكون آخر «الچحاتتة» (أو مُعلِّمي كيميت الخارقين) الذين نعرفهم.

وقد نقل كثير من الشعوب قصصًا عجيبة عن الحكيم الغامض ذي الثياب الخضراء.. وقيل إن رجل الأشجار يظهر في كل زمان وكل جيل.. وتعرفه الشعوب بأسماء عديدة.. بل قال بعض الثِقات إنه لا يوجد إنسان لا يُقابل «الخِضر» ولو مرة في حياته! فيأتي على هيئة مُعلِّم عجوز حكيم، نضر الوجه بشوش المظهر تملأ محبته القلوب.. وتكون له أحيانًا لحية بيضاء كالقمر.. وشعر أشيب خلاب كالتاج البرَّاق.. وعلامته أن يده بالغة الغضِّ كأنما هي مصنوعة من الزُّبد!

الفصل التاسع عشر
عن نهاية الدورة الزمانية

مرت قرون وعصور عديدة... تغيَّر فيها العالم كثيرًا... كأنها طبقات تغطي إحداها الأخرى.. والحق أن كثيرًا من عادات كيميت القديمة قد وصلت إلى تقاليد أحفادهم عبر عصور الطين والتراب، فمع توالي الغزاة الأجانب على بلادهم تمسَّك بعض أهلها بالرموز التي تشير لأملهم في مجيء الحق والصلاح وخلاص العالم من الظلم والأباطيل، ومنها أن بعض أبناء الريف كانوا يرسمون صورة صقر حورس خلف آذانهم والتي تشير إلى خلاص العالم بمجيء ابن كيميت الذي يصل للتنوير ويكشف الحقيقة جلية، فيرى الجميع النور الذي جاء منه الإنسان، وكانت فتياتهن الفلاحات الجميلات يرسمن تحت شفاههن الكريمة رموزًا كيميتية قديمة، ووضع كثيرون على أبواب منازلهم عين الحكمة والبصيرة الحافظة.. فاستمرت كثير من هذه العادات الكيميتة القديمة رغم خروجها أغلبها عن سياقها ونسيان أبنائها لأصلها، فصارت أقرب إلى طقوس شعبية يمارسها العوام.

والحق أن الباطل لن يستمر إلى النهاية.. ذلك أن رعميس.. «ابن النور».. الطفل الصغير.. حفيد الملك «كـمتيـو الأكبـر» العظيـم الذي كان مقدرًا له أن يكون كـمتيـو القادم.. لم يسقط صريعًا في الأيام البعيدة! بعد هجوم رحالة الخابو الشرقيين.. لقد استمر رعميس في الحياة! لكنه لم يكن يعرف نفسه.. ويُقال إن رجلًا حكيمًا عارفًا بالأمور كان يتفقَّده من حين لآخر.. عاش رعميس.. وكان له أبناءٌ وذُرية.. قطعوا الطريق الطويل عبر أزمان الأتربة الحزينة؛ وبذلك استمر نسل ملوك كيميت العظماء إلى آخر الزمان! إلى أن يأتي كـمتيـو الأخير.. الذي سيظهر في النهاية.. رغم أنه وقتها سيُكنَّى بنعت آخر.. واسم غير اسمه! حتى يتم إيقاظه.. يوم يأتي حورس.. ابن كيميت الذي يصل للتنوير.. ابن الإنسان.. صاحب البصيرة.. فيستعيد عرش البلاد بعد ملاحم كُبرى! فتستيقظ كيميت وتتذكر مجدها العظيم! عندئذٍ تُملأ أرجاءَ العالم بالنور المبهر! بعد أن امتلأت بالظلم والزيف.. فيعرف البشر الحقيقة الكاملة.. ويفهمون كل شيء عن حكمة العَالم ومعنى الوجود..

ولكن هذه قصة مُذهلة أخرى يا رفاق.. نرويها فيما بعد.. في كتاب آخر.

النهايـة

هشـام قاسـم

Hesham Kassem

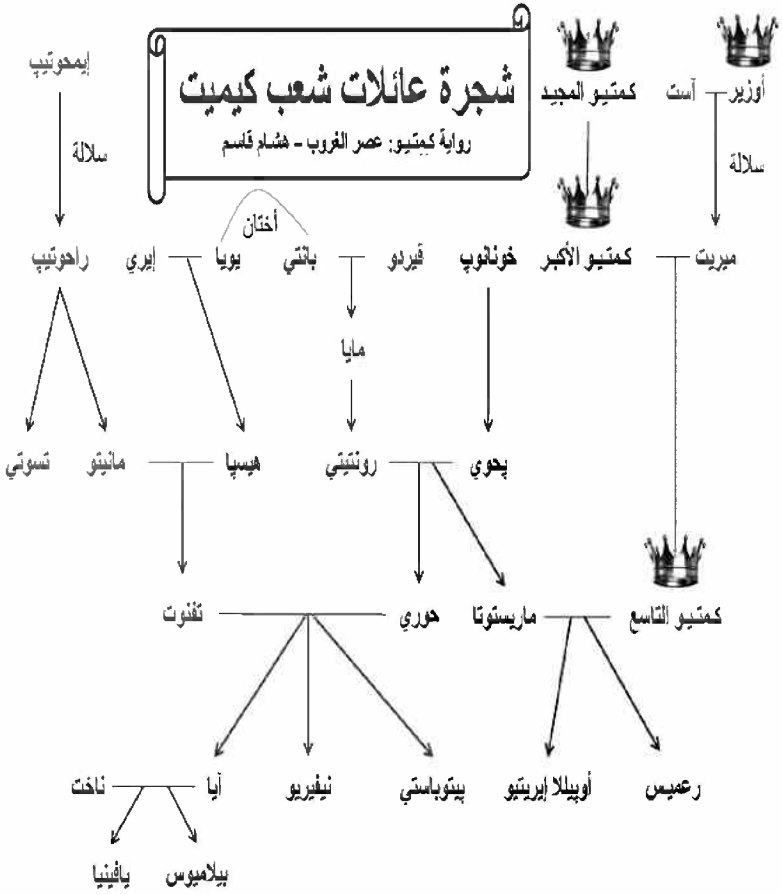
شجرة عائلات شعب كيميت
رواية كِمِتيو: عصر الغروب - هشام قاسم
إيمحوتيب
سلالة
أوزير
آست
سلالة
كمتيو المجيد
كمتيو الأكبر
أختان
راحوتيب
إيري
يويا
باتي
قيردو
خوناتوب
ميريت
مايا
تسوتي
مانيتو
هيسيا
رونتيتي
يحوي
كمتيو التاسع
تفنوت
حوري
ماريستوتا
رعمسيس
أوبيللا إيريتيو
بيتوباستي
نيفيريو
آيا
ناخت
بيلاميوس
يافينيا